الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم

كلية الأدب العربي والفنون–

قسم الدراسات الأدبية والنقدية

تجربة إدوارد سعيد النقدية– مقاربة ثقافية لكتاب "الاستشراق"

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه علوم في اللغة والأدب العربي

إعـداد الطالب :

بن قلوعة صلاح الدين

إشراف:

د. محمد خطاب

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د. محمد حمودي	جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم	رئيسا
د. محمد خطاب	جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم	مشرفا ومقررا
أ.د. الطاهر بلحيا	جامعة أحمد بن بلة – وهران	عضوا مناقشا
أ.د. لخضر بركة	جامعة الجيلالي اليابس – سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
د. عبد الله بوقصة	المركز الجامعي أحمد زبانة – غيليزان	عضوا مناقشا
أ.د. عمارة كحلي	جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم	عضوا مناقشا

السنة الجامعية : 2019–2020

((رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا))

صدق الله العظيم

سورة الكهف- الآية (10)

إلى كل من آمن بأن طريق النجاح العلمي يستحق كل التضحيات، من جهد ووقت وصبر وثبات، و يقتضي همة عالية لا تنبغي لأحد بعد طلاب العلم.

إلى كل من آمن بأن هذه الحياة إنما جاءت خادمة للعلم وطلابه، تقتفي أثرهم، تحتفي بهم، وتعبد لهم مسالكها راغبة وراغمة، لأن معناها في الوجود لا يتحقق إلا من خلال جهودهم، مصداقا لقول رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم "العلماء ورثة الأنبياء" .

إلى كل من ساهم أو ساعد أو نصح أو قدم توجيهات أو مادة علمية ساعدت ودعمت هذا العمل أقول لهم جزاكم الله عنا كل خير وبارك الله لكم سعيكم

إلى كل من أحب و احترم العلم وأهله، و إن لم يكن منهم فهو محب لهم، ومحترم لمكانتهم، أومستفيد من خبراتهم.

إلى هؤلاء وأولئك جميعا أهدي هذا العمل.

شكر وتقدير

الشكر والثناء والعرفان أولا لله عز و جل على أن هداني لسلوك طريق البحث ومسايرة العلم والعلماء و إن كان بيني و بينهم مفاوز.

والصلاة والسلام على رسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنار لنا سبل الحياة وأدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة وهو القائل : "أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد".

وقد بحثت بعد هذا عن من يستحق الشكر والتقدير في هذا المقام وجال في خاطري أساتذة وزملاء وأقارب و أهل وخلان و لا ريب أن كلا منهم يستحق ذلك ولكنني بعد إعمال فكر وتبصر لم أجد من هو أحق ولا أهل لهذا الشكر والعرفان قبل أسوقه إلى "إدوارد وديع سعيد"، فله كبير الفضل في منحي رؤية مخالفة تماما للحياة للثقافة لأساليب الفهم والوعي والتحليل والنقد والشجاعة الأدبية في تناول المواضيع واستنطاق النصوص التي لم يتجرأ الكثير من الكتاب على إخراجها بتلك الصورة التي أبهرت أهل الغرب من دعاة الحضارة ، ومهدت السبل لأهل الشرق من الباحثين في هذا المضمار والذين وجدوا ضالتهم في محبرته وقلمه.

كما أخص بالشكر أستاذي الكريم و معلمي الفاضل المشرف على هذا البحث الدكتور محمد خطاب، فقد كان حريصا على قراءة كل ما أكتب ثم يوجهني إلى ما يرى، بأرق عبارة و ألطف إشارة، فله مني وافر الثناء و خالص الدعاء. كما أنني ممتن كثيرا له لأنه هو من اختار واقترح موضوع البحث الذي أعطانا نفسا جديدا في طريق العلم.

كما أشكر السادة الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة، و كل الزملاء، و كل من قدم لي فائدة أو أعانني بمرجع أو توجيه ونصح ، أسأل الله أن يجزيهم عني خيرا، و أن يجعل عملهم في ميزان حسناتهم.

مقدمة

يعد الاستشراق من أهم المواضيع التي أخذت حيزا واسعا في مجال النقد والدراسات الأدبية واللغوية ككل، حيث يصعب على الدارس الإحاطة أو الإلمام بهذا الموضوع لتشعبه وكثرة وارديه من مختلف الأقطار، حتى أصبح من يخوض في هذا المضمار في ريب من أن ينتهي به المطاف إلى بر آمن . ولا نقصد أن سبب ذلك يعود إلى كثرة الكتاب من المستشرقين فحسب، ولكن اختلاف الرؤى بينهم وتباين الإيديولوجيات والمدارس، والخلفيات الثقافية والدينية كلها عوامل شاركت في تشعب القضية وتفرعها في كل الآفاق والاتجاهات. حتى إننا لنجد في أحايين كثيرة تناقضات جمة لكاتب واحد في كتاب واحد.

ولما كان الاستشراق مرتبطا بالاستعمار وممهدا له فان نظرة المستشرقين هي نظرة فوقية في مجملها إلى كل ما يمت للشرق بصلة- وخاصة الشرق العربي والإسلامي- من لغة، ودين وتاريخ وعادات وتقاليد، وقيم. والعمل على تفكيك الشفرات والإيقونات الخاصة بهذه المجتمعات في مخبر الغرب، وبالأدوات والأيادي الغربية، واستخلاص الاستنتاجات التي تخدم إيديولوجياتهم ومنظورهم للأشياء، وتوافق ذهنياتهم المعتمدة على العقل التحليلي والمنطق . وبالجملة فان الاستشراق هو نظرة الغرب إلى الشرق .

ولهذا الاستشراق تاريخ طويل يمتد إلى القرون الأولى بعد البعثة المحمدية الشريفة (عليه الصلاة والسلام) ، ويصل إلى العصر الحديث في مسايرة لصيقة، ودراسة تشريحية معمقة لكل المراحل والحوادث الاجتماعية والثقافية والسياسية للمجتمعات الشرقية والعربية بالخصوص.على أنه في المرحلة الأخيرة حدث انتشار رهيب لهذه الدراسات التي لم تترك موضوعا يمت إلى الشرق بصلة إلا وخاضت وجالت في تفاصيله ، وبالطبع لم تكن هذه الأبحاث من أجل المتعة العلمية أو حب اكتشاف الآخر والفضول إلى التطلع لما في أيدي الغير، ولكن لكل حدث حديث ، ولأن التاريخ يشهد الانجازات التي قدمها أهل الشرق في ظرف قياسي وقفت الأمم عاجزة عن إحصائها ناهيك عن الوصول إليها، وكيف لأهل الشرق العربي وهم أشتات هائمون في صحراء الجزيرة أن ينهضوا بحضارة ملأت الدنيا، ومازالت آثارها شاهدة على عظمة أهلها ... واشتعلت جذوة الاستشراق في القرن الثامن عشر والتاسع عشر بصورة كبيرة وصعدت من جهودها واجتهادها، لأن هذه الفترة هي الممهدة للاستعمار الأوروبي على بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، مما وسع حملة أسفار الباحثين في هذا المضمار إلى بلدان الشرق، وانتقل المستشرقون إلى بلاد العرب والمسلمين يتحدثون بلسانهم ويلبسون كسوتهم وأزياءهم، ويقلدون عاداتهم وطبائعهم ، ويستفيدون من كرمهم وعطائهم وضيافتهم ، وهذا ما ساعد هؤلاء المستشرقين على أداء مهامهم المنوطة لهم من قبل بلدانهم التي أرسلتهم ليكونوا عيونا لها ومرشدين في أرض العرب. قبل أن تعتدي وتحتل بعساكرها، وقواتها مستفيدة من مواطن ضعف البلدان الشرقية والعربية آنذاك.

وصدرت كتب لا حصر لها تعمي العيون عن حقائق الإسلام واللغة العربية والثقافة الشرقية ، وتقدم صورة زائفة شائهة تعكس مبلغ الحقد الغربي على الشرق، وتدل على المهام القذرة التي أداها المستشرقون في بلاد العرب أيام استضافتها لهم. إذ أن أغلب هؤلاء كانوا مأجورين ومدعمين للحملة العدوانية الحاقدة على الشرق، فكانت حملتهم الثقافية موازية للحملة العسكرية لجيوش بلدانهم المتعطشة لخيرات العرب، وثرواتهم ، و إراقة دمائهم وانتهاك حرماتهم .. ، فمضوا في كل اتجاه يخدم أغراضهم .

يقول ميشيل فوكو: "إن على الباحث أن يحيط بجميع جوانب الشيء إذا أراد أن يضع له تعريفا جامعا مانعا".

لذلك ارتأينا أن ندرس الترجمة الأولى لكمال أبو ديب التي ألمت بكثير من جوانب عمل إدوارد سعيد إلى درجة أن المترجم أسس قاموسا اصطلاحيا خاصا بهذا الكتاب –الاستشراق– وهذه النسخة اعتمدناها في الفصل الأول الذي هو مسح وصفي للجوانب المهمة والمثيرة في كتاب الاستشراق.

أما الترجمة الثانية للدكتور محمد عناني وهي حديثة بمختلف المقاييس من حيث التراكيب والأسلوب والبلاغة وحتى الدلالات لذلك فإنها تخدم الغرض النقدي الثقافي لهذا البحث بطريقة أقرب وأيسر لملائمة الدراسة البحثية.

ومن الملاحظ كذلك أن كتاب (تمثيلات المثقف) للكاتب نفسه هو الآخر مترجم عدة مرات وإن كانت عناوين الترجمات تختلف فلدينا ترجمة بعنوان "صور المثقف"، وترجمة أخرى بعنوان "المثقف والسلطة"، وترجمة تحمل عنوان "الآلهة التي تفشل دائما".

وارتأينا كما حدث مع كتاب الاستشراق بترجمتيه أن تكون كل الترجمات حاضرة حتى نطال الموضوع بمختلف أبعاده فربما أغفل مترجم ما جانبا معينا قد نجده حاضرا في الترجمة الموالية للكتاب نفسه . لذلك كان دأبنا أن نلم بكتب إدوارد سعيد التي كانت في مجملها تحمل مشروعا واحدا واضحا، هو طرح المشروع الاستشراقي بطريقة خاصة. ومخالفة جعلت منه كتابا محوريا في دراسات ما بعد الكولونيالية، وأصبح أحد المراجع الأساس المتعلقة بالخطاب الاستشراقي أو الاستعماري.وكان الدافع والهدف من وراء حضور ترجمة كمال أبو ديب (الاستشراق) ، وكان بوسعنا الاكتفاء ترجمة محمد عناني التي تبدو في أكثر من ناحية ميسورة الاستهلاك القرائي، ومواكبة لهذه اللحظات الزمنية أكثر من سابقتها، سواء كان ذلك من ناحية السياق أو النسق.ولكنها وإن تميزت بخصائص وانفردت بمنهجية فإنها لا تحتوي بحال من الأحوال على بعض ما اختصت به ترجمة كمال أبو ديب، فعلى سبيل المثال الكشاف المصطلحي، وبعض الترميزات و الترقيمات، وحتى التحقيقات، وطرائق تناول موضوع الاستشراق والتي هي غير موجودة في الترجمة الأخرى، ومن جهة أخرى يعتبر كتاب الاستشراق الجزء الأول من هذا الموضوع أو المشروع أو الطرح، وأما الجزء الثاني فهو كتاب "الثقافة والامبريالية". والمشكل أن كتاب الثقافة والامبريالية لم يترجمه إلا الدكتور كمال أبو ديب. فكان الأولى و الأحرى بنا أن نأخذ الجزء الأول والثاني من مترجم واحد(كمال أبو ديب). فإذا كانت هناك ترجمة ثانية لأحدهما(مثل ترجمة محمد عناني)، نأخذ بها من باب التوسع في الموضوع ورؤيته من زوايا وأبعاد مختلفة. وأستدرك في هذا المقام وأقول إن ترجمة محمد عناني كما يرى كثير من النقاد والكتاب تستوفي دلالات النص

الأصلي بصورة أوسع وأوضح وأيسر. وأضيف ملاحظة فيما يخص كتابَي إدوارد سعيد المذكورين (كتاب الاستشراق و كتاب الثقافة والامبريالية) ، ففي كتاب الاستشراق مكتوب عبارة (نقلها إلى العربية كمال أبو ديب) ، أما في كتاب الثقافة والامبريالية مكتوب عبارة (ترجمة كمال أبو ديب) ، والفرق واضح بين العبارتين.. ، وحتى نتفادى الدخول في مقارنة بين ترجمة كمال أبو ديب ومحمد عناني لكتاب الاستشراق – وهذا ليس موضوعنا–، لأننا إذا فتحنا المجال فلن ينتهي السجال. ولكنناآثرنا الاستعانة بالترجمتين (المتوفرتين) من باب التوسع والإلمام بجوانب الموضوع المهم جدا قدر المستطاع، والاستفادة من خصائص كل منهما، وحتى لا يكون هناك أي تعارض أو خلل في دراسة البحث فقد استعنا بترجمة كمال أبو ديب لكتاب الاستشراق في الجانب النظري، الذي يستوفي الفصل الأول من عملنا، وهو في الغالب مسايرة سطحية وأحيانا عميقة، لأهم المحطات والنقاط المذكورة في النص مع بعض التعليقات، والتعقيبات التي تبين وجهة نظرنا، ومن جهة أخرى تخدم الإطار العام للبحث، دون المساس بالخطوط العريضة للكتاب. لأننا لو أمعنا في البحث والتنقيب واستنطاق النصوص فإن ذلك يتطلب منا عقودا من العمل الجاد. وهذا ما يذكرني دائما – وكلما تصفحت كتاب الاستشراق– عبارة كان يرددها الأستاذ المؤطر : إن ادوارد سعيد لا ينتهي! .

أما ترجمة محمد عناني فكانت حاضرة بثقلها في الفصلين التاليين الموسومين على الترتيب: "تجربة ادوارد سعيد النقدية "، ولم تكن هذه التجربة محصورة في كتاب الاستشراق ولكن هناك مؤلفات أخرى، لها وزنها، ومكانتها الثقافية، والفكرية في شتى الميادين، على غرار كتاب العالم والناقد والنص، وكتاب صور المثقف. وكتاب السلطة والسياسة و الثقافة.. ، وكذا كتاب الثقافة والامبريالية. وأما الفصل الثالث، الذي يهتم ب: "المقاربة الثقافية لكتاب الاستشراق"، فيتناول الثنائيات عند إدوارد سعيد ثم الاستشراق الكامن و الاستشراق الظاهر .وكذا الاستشراق الدنيوي.

فيما يخص المناهج المعتمدة نجد أن المنهج الوصفي المطعم بالاجراءات التحليلة كان حاضرا في الفصل الأول خاصة أما الفصول الأخرى فكانت مسايرة النصوص باعتماد المنهج البنيوي والتفكيكي وهي مناهج نسقية. وومن جهة أخرى لم يخل البحث من بصمات بعض المناهج السياقية على غرار التاريخي والاجتماعي.

وهناك مجموعة من الاشكالات مطروحة في هذا الصدد،-وهي محل دراستنا الآتية - والتي من أهمها:

ما الجوانب التي أثارها كتاب الاستشراق، ليكون له هذا الصدى والتأثير العالمي، رغم الزخم الكبير من المؤلفات في هذا الحقل الثقافي ؟.

وهل اتبع إدوارد سعيد في نقده قاموسا لغويا معينا، أو طريقة أو منهجية خاصة في تناول الموضوع، وتسبب ذلك في الثورة الثقافية، التي أعقبت صدور الكتاب(الاستشراق) ؟.

وبالمجمل، ما هي الإضافة التي قدمتها، أو الأثر الذي خلفته تجربة إدوارد سعيد في الحقل الثقافي النقدي؟ أو حتى الأدبي، من خلال مختلف مؤلفاته، والتي من أهمها كتاب "الاستشراق"،الذي هو موضوع بحثنا ؟.

وما مدى نجاحه في المزج بين الحقول المعرفية؟ وهل يعتبر هذا النوع من التجارب مزية تضاف إلى رصيده وتجاربه المعرفية؟ أم دعته الضرورة للاستعانة باصطلاحات من مختلف المجالات، من أجل إيصال أفكاره للمتلقي، بعدما عجز قاموسه اللغوي، أو الأدبي عن ذلك؟

مدخل

المدخل:

لكل موضوع كلماته المفتاحية التي يتوجب التطرق اليها، بغية فك التشفير عن المدلول العام للموضوع قيد الدراسة. وبما أن محور بحثنا يدور حول موضوع الاستشراق، وآلياته وحقوله المعرفية والدلالية، ومدراسه ورواده، فإننا بحاجة إلى شرح لأهم الاصطلاحات التي تمت بصلة مباشرة لهذا الشأن، ومنها الاستشراق، الاستغراب، الخطاب، الثقافة، المثقف، النقد، النقد الثقافي، النقد الدنيوي، ما بعد الكولونيالية وغيرها..وفي هذا المدخل شرح مفصل وكاف يستعين به السالك لهذا المجال حتى تتضح أمامه السبل. ونستهل بشرح كلمة استشراق لغة وأصطلاحا ومدلولاتها عند كثير من الكتاب والنقاد والباحثين.

أ- الاستشراق لغة: كلمة "الاستشراق: مشتقة من مادة "شرق" يقال شرقت الشمس شرقا وشروقا إذا طلعت[1].

ب- الاستشراق اصطلاحا:

- التعريف الأول: «الاستشراق هو علم الشرق أو العالم الشرقي»[2].

- التعريف الثاني: «استشرق طلب علوم الشرق ولغاتهم "مولدة عصرية" تقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة»[3].

- التعريف الثالث: وهو لعالم غربي يقول: «الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، ولابد لنا إذن أن نفكر في المعنى الذي أطلقت عليه كلمة "شرق" وكلمة شرقا تعني مشرق الشمس وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي، والأمر إلى هذا الحد واضح، ولكن ما معنى كلمة شرق في هذا المقام بالذات؟ الظاهر أن اسم الشرق تعرض لتغيير في معناه فالشرق بالقياس إلينا نحن الألمان، يعني العالم السلافي، العالم الواقع خلف

[1]- المعجم الوسيط، تأليف مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية،بالقاهرة-مصر،1960.ج1 ص 482

[2]- راجع الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية تأليف رودي بارت وترجمة د. مصطفى ماهر – القاهرة 1967م ص11

[3]-معجم متن اللغة،موسوعة لغوية حديثة،الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة بيروتج3 ط1 1959ص 311.

الستار الحديدي كما كان يسمى كذلك في الماضي، وهذه المنطقة يختص بها علماء بحوث شرق أوروبا، أما الشرق الذي يختص به الاستشراق فمكانه جغرافيا في الناحية الجنوبية الشرقية بالقياس إلينا وذلك الاصطلاح راجع إلى العصر الوسيط، بل إلى العصور القديمة التي كان فيها البحر المتوسط يقع كما قيل في وسط العالم، وكانت الجهات الأصلية تحدد بالنسبة إليه، فلما انتقل مركز الأحداث السياسية بعد ذلك من البحر المتوسط إلى الشمال بقي مصطلح الشرق برغم ذلك على الدول الواقعة شرق البحر المتوسط كذلك تعرضت لفظة "الشرق" في أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية لتغيير آخر في معناها أو إذا شئنا دقة أكثر تعرضت لاتساع في نطاق مدلولها، فقد انطلق الفاتحون في ذلك الوقت من شبه الجزيرة العربية لا ناحية الشمال والشرق فحسب بل إلى ناحية الغرب كذلك، وزحفوا في غضون عشرات من السنين إلى مصر وشمال إفريقيا وتعرب السكان تدريجيا وهم الأقباط في مصر والبربر في غربا. ومنذ ذلك الحين تعتبر مصر وبلدان شمال إفريقيا ضمن الشرق ويمتد الاستشراق إلى الشمال غرب إفريقيا الذي يسمى بالمغرب أي بلد غروب الشمس. وإن كان المفروض أن اسم الاستشراق يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها ومهما يكن من أمر فإن الاسم لا يبين بوضوح مستقيم المقصود منه بالضبط والمهم هو الموضوع ذاته»[1].

– التعريف الرابع: وهو لعالم عربي "أحمد حسن الزيات" يقول: «يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرة لصلتها بالدين ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم، إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعه

[1]– رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر،القاهرة 1967. ص 12/11

منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدينة والعلم كان الغرب من بحره إلى محيطه غارقا في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجموح»[1].

– التعريف الخامس: وهو لمحمد عبد الغني حسن يقول فيه "الاستشراق هو اشتغال غير الشرقيين بدراسة لغات الشرق وحضاراته وفلسفاته وأديانه وروحانياته وأثر ذلك في تطور البناء الحضاري للعالم كله"[2].

وفي اللغة العربية: عند النظر إلى لفظة "استشراق" نجدها أنها مصوغة على وزن استفعال، ووجداناها مأخوذة من كلمة شرق، ثم أضيف إليها ثلاثة حروف هي الألف، السين، التاء، ومعناها طلب الشرق، وليس طلب الشرق سوى طلب علوم الشرق وآدابه ولغاته وأديانه وجاء في المعجم الوسيط: "شرقت الشمس شرقا وشروقا إذا طلعت" وفي لسان العرب: شرق: شرقت الشمس تشرق شروقا وشرقا: طلعت. واسم الموضع المشرق: والتشريق: الأخذ من ناحية المشرق، يقال: شتان بين مشرق ومغرب، وشرقوا ذهبوا إلى الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق. وفي الحديث: "لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا"[3].

أما في الاصطلاح فهو : "علم الأجانب بحياة الشرق وعلومه وآدابه ولغاته وحضاراته ومدنياته"، والمستشرق هو: العالم الأجنبي إذا كان عالما بالعلوم والآداب والفنون واللغات والمعتقدات والعادات الشرقية، ومن هذا التعريف نرى أن كلمة استشراق معناها: "دراسة مفكري الغرب والشرق، أو الغرب والشرق الملحد في دراستها للشرق المسلم "[4].إن مفهوم الاستشراق يعني: "علم الشرق أو علم العالم الشرقي"، وعرف البعض الاستشراق بأنه: "ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة من الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغات

[1]– أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطبع والنشر،ط 25 ، ص 512.

[2]– محمد عبد الغني، حسن عبد الله الفكري، سلسلة أعلام العرب، وزارة الثقافة مصر، 1962 ص89.

[3]– إيناس حسني، الاستشراق وسحر حضارة الشرق، مجلة دبي الثقافية 62، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ماي 2012، ص38.

[4]– جلال شوقي، ليوناردو دافنشي وبحوثه العلمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص 26-27.

وثقافته" وأحيانا يقصد به : "أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز المعرفي والعرقي والايديولوجي الشرق والغرب" وأحيانا أخرى يراد به: ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من قبل علماء الغرب[1]".

ب– مفهوم الاستشراق في اللغات الأجنبية:

ظهر في عام 1779 في انجلترا مفهوم "مستشرق" بمعنى " Orientaliste " وسرعان ما ظهر بعد ذلك في فرنسا عام 1799، وأدرج مفهوم الاستشراق "Orientalisme" في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1737م."[2].

ومفهوم هاتين الكلمتين مشتق من كلمة " Orient " ومعناها " الشرق " في اللغات الأجنبية حيث يعني في دائرة معارف الشرق: (اسم يطلق على الأقطار، والجزر الآسيوية) وفي بعض الأحيان يطلق هذا المصطلح على القسم الغربي من آسيا، والتي تسمى أيضا: الشرق الأدنى، ويرى بعض الكتاب الآخرين أن مصطلح " Orient "الذي يستعمل للأقطار التي تشرق منها الشمس في مقابل مصطلح "Ouident " الذي يستعمل للأقطار التي تغرب فيها الشمس ويتضمن أوروبا ونصف الكرة الغربية"[3].

وفي اللاتينية تعني كلمة " Orient"يتعلم أو يبحث عن شيء ما، وبالفرنسية تعني كلمة "Orienter"، وجه أو هدى أو أرشد، وبالإنجليزية Orientation أو Orientate تعني: توجيه الحواس نحو اتجاه أو علاقة ما في مجال الأخلاق والاجتماع أو الفكر أو الأدب نحو اهتمامات شخصية في المجال الفكري أو الروحي، وبذلك يتبين أن مصطلح الاستشراق ليس مستمدا من المدلول اللغوي، بل من المدلول المعنوي لشروق الشمس التي هي مصدر العلم.وظهر أيضا مصطلح " بلاد الشرق Leriant States "وهو وصف أطلق على البلاد

[1] – إيناس حسني، نقلا عن كتاب " الاستشراق وسحر حضارة الشرق "،كتاب دبي الثقافية، ماي 2012، ص 38، أنظر الفصل الأول "الدافع العلمي" ص 53.

[2] – نعمت إسماعيل علام، "الفنون الهيلينستية والمسيحية والساسافية، دار المعارف–القاهرة، ط 2، 1980، ص 133،149.

[3] – سعاد ماهر، "الفن القبطي"، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية، 1977، ص 24.

الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، والمصطلح مشتق من الكلمة الفرنسية Se lever ومعناها يشرق وقد يطلق على سكان هذه البلاد أي الشرقيون"[1]

تعريف الاستشراق اصطلاحا:

لقد اختلفت تعاريف الاستشراق عند المستشرقين والمسلمين، كل حسب تصوره لمفهوم الاستشراق، وانطلاقا من بيئته أو تجربته الذاتية، وربما استحضر هدف الاستشراق أو وسائله التي اعتمدها أو خلفيته السياسية أو غير ذلك.

فعرفه الدكتور أحمد غراب: بقوله: الاستشراق هو "دراسة أكاديمية يقوم بها غربيون (كافرون)، –من أهل الكتاب بوجه خاص– للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب، عقيدة، وشريعة، وثقافة، وحضارة، وتاريخا، ونظما، وثروات، وإمكانيات، بهدف تشويه الإسلام، ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عنهم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعى العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي"[2].

وعرفه الدكتور يوسف أسعد داغر بقوله: "حركة علمية عنيت ولا زالت تعني بدراسة المدنيات الشرقية، ما فر منها وما حضر، وما طمس منها وما استقر، وبما يتصل بهذه الحضارات القديمة من قوة وآثار فكرية وأدبية وفنية ودينية، وبما فيها من شعوب وأجناس ومذاهب ومدارس، وما إلى ذلك كله من أثر ظاهر ناطق شاهد على الحياة البشرية وهو خليق بأن نحييه نشرا وطباعة"[3]. ويؤيد هذا الرأي ما قاله إدوارد سعيد، عند تعريفه للاستشراق بأنه: "أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وتستبنائه، وممارسة السيادة عليه "[4].

[1] – فيكتور جرجس عوض الله، " اللوحات المصورة الأيقونات" الهيئة العامة لشؤون المصالح الأميرية، القاهرة، 1965، ص13.

[2] – محمد غراب رؤية إسلامية للاستشراق، ، سلسلة تصدر عن مجلة البيان، المنتدى الإسلامي د.ت، ص7.

[3] – يوسف اسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، المطبعة المخلصية، ط 2،1961 م، ص 771

4–إدوارد سعيد،الاستشراق،ترجمة:كمال أبو ديب،مؤسسة الأبحاث العربية، ط1،بيروت، 1984، ص39.

وفي نظر إدوارد أن الاستشراق لا يقتصر على الدراسات الإسلامية فحسب بل يشمل جميع العلوم الأخرى ما دامت متصلة بالشرق"[1].

ويعرف الدكتور ألبرت الحوراني، الاستشراق بقوله: "هو نظام أكاديمي لدراسة وفهم الشرق، أو هو نمط من التفكير يرتكز على التمييز بين ما يعرف ب(الشرق)، وآخر يدعى (الغرب) ومن مقتضياته وجود مؤسسة تعني بهذه المنطقة المترامية الأطراف،من أجل معرفتها وفهمها، وربما السيطرة عليها،كما حصل فعلا، فالرغبة في السيطرة تكمن في صلب ما كان يعتقده الغرب حول الشرق ففي تلك الرغبة يتجلى التمييز بين(نحن)، و (هم)"[2].

والذي يؤيد ما ذهبنا إليه قول الدكتور صلاح الجابري:" الاستشراق هو فكرة الغرب عن الشرق، تلك الفكرة التي تجسدت في الواقع وعبر مراحل تاريخية بالصورة التي ترسمها الظروف، وتجيزها، فتأخذ صورة التبشير الديني تارة وصورة التمثيل التصويري (تصوير الشرق) تارة أخرى، وصورة الاستعمار المباشر تارة ثالثة، وفي كل تلك التجسدات والتحقيقات فإن طبيعة الثقافة السائدة والسيطرة، هي ثقافة إمبريالية، تمثيلية، وليست انعكاسية، أي لا ترمي إلى تصوير واقع موضوعي، وإنما تسعى إلى تصوير شعور داخلي مشار بموضوع خارجي هو (الشرق)"[3].

وبعد هذا العرض، يمكننا إيجاد تعريف شامل وجامع:

الاستشراق هو كل نشاط علمي يقوم في الشرق من قبل الغربيين سواء كان دراسة لغاتهم أو تاريخهم أو تراثهم، أو حضارتهم، أو علومهم النفسية وأحوالهم الاجتماعية وخاصة حضارة الإسلام ودينهم، وأحوال المسلمين في مختلف العصور، تدفعهم في ذلك خلفيات ودوافع سياسية ودينية"[4].

مفهوم الاستشراق من منظور بعض الكتاب المعاصرين:

[1] – موسوعة الاستشراق،ص358.

[2] – ينظر الإسلام في الفكر الأوروبي للدكتور ألبرت الحوراني، دار الأهلية للنشر، بيروت 1994م، ص 78

[3] – ينظر الاستشراق قراءة نقدية، الدكتور صلاح الجابري، دار الأوائل – دمشق، 2009م، ص 15.

[4] – موسوعة الاستشراق، ص359.

المستشرق الألماني (هارتموت بوتسين – H.Botzun) :" الاستشراق مفهوم شامل، وهو نشاط للدراسات الاستشراقية في أوروبا "[1].

أما رودي بارت: " علم يختص بفقه اللغة خصوصا، وأقرب شيء إليه إذا أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه كلمة استشراق مشتقة من كلمة شرق " وكلمة شرق تعني مشرق الشمس"[2].

في حين عرفه الدكتور رضوان السيد بأنه (الاستشراق): "يتناثر ويدخل في تخصصات متباينة كالتاريخ والسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والاقتصاد والسياسة، ولم يعد هناك عوالم متباينة يحمل كل منها عنوان المجال الذي يهتم به، فإذا كانت مفاهيم الشرق، والعالم الثالث والشرق الأوسط متباينة وغير علمية فإن مفهوم الاستشراق صار اليوم كذالك "[3].

الدكتور عبد المنعم الخفاجي: " الاستشراق هو التفرغ من بعض العلماء في أوروبا وأمريكا للدراسة الشرق في تراثه وثقافاته وتاريخ شعوبه وأديان أممه ولغاتها، وما لهذه الأمم من علوم وآداب وعادات وتقاليد في ماضيها وحاضرها، وخصائص حضارات هده الأمم "[4].

يقول الدكتور إدوارد سعيد حول تعريف الاستشراق والمستشرق:

[1] – عمر لطفي العالم، الاستشراق في الميزان، مجلة الجهاد/ ليبيا، عدد 88، 1990،ص87.

[2]– رودي بارت،" الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية "(المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكة)، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي،القاهرة، دون تاريخ، ص11.

[3] – الدكتورة إيناس حسني كتاب الاستشراق وسحر حضارة الشرق،62 كتاب دبي الثقافية، مجلة تصدر عن دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع، الامارات العربية المتحدة، مايو 2012،ص42

[4] – حسن سعد السيد، " الاغتراب في الدراما المصرية "، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص9، نقلا عن كتاب الاستشراق وسحر حضارة الشرق، للدكتور.إيناس حسني 62 كتاب دبي الثقافية، مايو 2012،ص40.

والاستشراق بحسب إدوارد سعيد "في جوهره مذهب سياسي فرض فرضاً على الشرق"[1]. و"يمثل أسلوباً للخطاب أي للتفكير والكلام، تدعمه مؤسسات وأفراد، وبحوث علمية ومذاهب فكرية و أساليب استعمارية، وباختصار فإن الاستشراق هو أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه"[5].

كما أن المستشرق عند إدوارد سعيد هوكل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواءً كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أوعلم الاجتماع، أوالتاريخ، أوفقه اللغة"[2]

وقد ذكر الدكتور شكري النجار في تعريفة للاستشراق أنه:"يؤخَذ الاستشراق عادةً بعدّة معان متداخلة و مختلفة، ولعلّ أهم معنًى للكلمة هو المعنى الأكاديمي؛ إذ تطلق كلمة «المستشرق» بشيء من التجاوز ـ على كل من يتخصص في أحد الفروع المتصلة بالشرق؛ من قريب أو بعيد... وثمّة مفهوم آخر للاستشراق وهو اعتبار الاستشراق أسلوباً للتفكير يرتكز على التمييز الإنساني والمعرفي بين الشرق والغرب"[3].

وكذلك يتناول الدكتور إبراهيم علي النملة تعريف «الاستشراق» بقوله: وإن كان لابدّ من تعريف «الاستشراق»، فأقول: "إن الاستشراق في الجانب الذي يخدم البحوث العربية والإسلامية، هو اشتغال غير المسلمين بعلوم المسلمين، بغضّ النظر عن وجهة المشتغل الجغرافية، وانتماءاته الدينية والثقافية والفكرية."[4]

ويقول الدكتور أنور عبدالملك الذي عالج ظاهرة الاستشراق قبل إدوارد سعيد:"إنَّ الازدهار الحقيقي للدراسات الشرقية في القطاعين الرئيسيين هما الشرق الأقصى والعالم العربي يعود تاريخه بالدرجة الأولى إلى عصر التمركز الاستعماري، وبشكل خاص إلى السيطرة الأوروبية على القارات المنسيّة في أواسطالقرن التاسع عشر، ثم

[1] – الاستشراق : محمد عناني، ص 321 .

[2] – الاستشراق : محمد عناني، ص 45،ص46 .

[3] – تعريف الاستشراق، شكري النجار، مجلة الفكر العربي، العدد: 31، معهد الإنماء العربي، بيروت لبنان، 1983م ص 60 .

[4] – الاستشراق والدراسات الإسلامية (مصادر الاستشراق والمستشرقين ومصدريتهم). النملة،علي إبراهيم. مكتبة التوبة الرياض السعودية. (1441هـ -1998م) ص 22.

في ثلثه الأخير بأنه دراسة كل شيء عن الشرق لغاته القديمة لهجاته وتاريخه وأساطيره وطباعه وعاداته وأديانه أما المستشرق فهو العالم المتضلع في معرفة الشرق ولغاته وآدابه"[1].

ويقول حسن حنفي صاحب كتاب علم الاستغراب عن الاستشراق بأن: "مهمته المركزية هي تقديم الإثباتات التاريخية بأن تاريخ الحضارة العقلانية هوتاريخ الشعوب الأوربية وبأن ماقدمته الشعوب الأخرى بخاصة العربية الإسلامية لاتدخل مباشرة في الحقل الحضاري الذي يبقى حكرا على صانعي الحضارة الممتازين"[2] .

أما الدكتور عبد الله إبراهيم فله تعريف مميز للاستشراق: "ضرب من الممارسة الفكرية التي اقتضتها حاجة العقل الغربي لأن يشمل بكليته المعطيات الثقافية للآخر وإعاد ةإنتاجها بما يجعلها ضمن سياقات المركز"[3].

وبهذا المعنى فإن النشاط الاستشراقي ليس حوارا حضاريا أو تواصلا بين الحضارات أو تعاونا معرفيا بين الشرق والغرب ولا فعلا منزها عن المصالح بل هو ممارسة فكرية من أجل إعادة إنتاج الآخر وفق بنية فكرية محددة للشرق تتلاءم مع ما تشكل في المخيال الغربي تجعل دراسة الآخر إعادة إنتاج لمركزية الغرب مقابل هامش الآخر ."هذا التمركز حول الذات ينطلق من إدعاء وحدة الجنس البشري ووحدة الثقافة البشرية هدفها تعميم النموذج الغربي باعتباره النموذج الأمثل"[4].

إن خطاب الاستشراق في صيغته النهائية هو تحليل صورة الآخر، الإسلام والعرب وسائر الشعوب الأخرى غير الأوروبية، بعبارة أخرى هو رؤية كونها الغرب لنفسه عن الآخر وإذا استعرنا أدوات إدوارد سعيد المعرفية فإن الاستشراق خطاب أو إنشاء لكنه خطاب لا يعكس حقائق أو نتائج، بل يصور تمثلات أو ألوان من التمثيل حيث تتحقق القوة والمؤسسة والمصلحة، إنه خلق جديد للآخر أو إعادة إنتاج له على صعيد التصور والتمثيلم

[1]- أنوار عبد الملك، الاستشراق في أزمة مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد 31 مارس 1983، ص 70.

[2]-حسن حنفي، علم الاستغراب، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط 1992، بيروت، ص16 .

[3]- عبد الله إبراهيم، المطابقة و الاختلاف الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، 1999، ص171.

[4]- كلود ليفي شتراوس، العرق و التاريخ، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط 1، 1982، ص13 .

مايجعل من الاستشراق موضوع معرفة بينما موضوعه الذي هو الشرق موضوع واقع لا تربطه به صلة تطابق انعكاس بل يذهب المفكر إدوارد سعيد إلى أبعد من ذلك حين يؤكد أن"بنيةالاستشراق ليست سوى بنية من الأكاذيب أو الأساطير التي ستذهب أدراج الرياح إذا ما انقشعت الحقيقة المتعقلة بها"[1]. "فإن الاستشراق تنسحب عليه هذه الملاحظة فهو يعكس رؤية الأنا أي الشرق من خلال الآخر الغرب، وهذا الأخير محملا بأيديولوجية مناهج البحث العلمي، أو المذاهب السياسية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر خاصة من وضعية وتاريخية وعنصرية وقومية .لقد غلبت عليه مناهج تعبر عن بنية الوعي الأوربي التي تكونت عبر حضارته الحديثة و مناهجها المختلفة، لقد نتج عن هذا التفوق العلمي نظرة استعلائية لثقافة وحضارة الآخر مما أدى بالاستشراق والمستشرقين إلى الوقوع في التحيز المقصود إلى درجة سوء النية"[2].

ويذكر المستشرق رودنسون أن "كلمة مستشرق ظهرت في اللغة الإنجليزية نحو عام 1779م كما دخلت كلمة الاستشراق معجم الأكاديمية الفرنسية في عام 1838م وفيها تجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق."[3] ويعتمد المستشرق الإنجليزي آربري علي قاموس اكسفورد الجديد المستشرق بأنه "من تبحر في لغات الشرق وآدابه "[4].وقد ورد في موسوعة" لاروس "تعريف المستشرق في مادة.Orientaliste

"بأنه العالم المتضلع في معرفة الشرق وثقافته وآدابه"[5].

أما ألبرت ديتريش فيعرف المستشرق بأنه "ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه، ولن يتأتي له الوصول الي نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق[6]".

[1]– إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 1، بيروت،1984، ص 41 .

[2]– حسن حنفي علم الاستغراب المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط1، 1992بيروت ص 25.

[3] – مكسيم رودنسون، صورة العالم الإسلامي في أوربا، دار الطليعة، 1970، ص 74.

[4] – المستشرقون البريطانيون، أ.ج. آربري، تعريب الدكتور محمد الدسوقي النويهي، ويليم كولينز، لندن، 1946، ص 7.

[5] – انظر مادة Orientaliste في موسوعة لاروس الكبرى، باريس 1962م، Grad encyclopique paris. Lareusse.

[6] – محمد كرد علي، أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية، المجمع العربي، 1927.

أما د.شكري النجار فيعرف المستشرق قائلا: "تطلق كلمة مستشرق بشيء من التجاوز على كل من يتخصص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو بعيد"[1]. ويرى مالك بن نبي في مقال له تحت عنوان إنتاج المستشرقين يحدد مصطلح الاستشراق فيقول" :إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية[2] "وأن صفة مستشرق ينبغي أن تقتصر علي من ليس شرقيّاً، لأنها تصف حالة طلب لشيء غير متوفر في البيئة التي نشأ فيها الطالب"[3].وقد أستخدم شيخ المستشرقين سلفستر دي ساسي(1758- 1838) Selvester de Sacyهذا المصطلح مرتين مرة في مقدمة كتابه الشهير(النحو العربي)في معرض حديثه عن المستشرق الهولندي إربنيوس Erpenius ومرة ثانية عندما وصف به زملاءه الذين لعبوا دوراً هاماً في دراسة فقه اللغة العربية ونحوها "[4].

وجاء في موسوعة" المنجد "أن" المستشرق: العالم باللغات والآداب والعلوم الشرقية، والاسم الاستشراق".[5]

- مفهوم الاستغراب:

يمكن إرجاع كلمة استغراب إلى جذر الفعل: غرب، وهي تعني " لاندهاش أو الإنكار، فيقال "استغرب الشيء" غدا اندهش منه أو أنكره...لكنها في الدلالة الاصطلاحية تقابل الاستشراق وتستوفي معناها منه بدلالة المقابلة والمخالفة"[6]، والاستغراب هو الوجه الآخر والمقابل، بل النقيض من الاستشراق، فإذا كان الاستشراق يعني:

[1] – شكري النجار، مجلة الفكر العربي، العدد: 31، دار الانماء العربي، بيروت لبنان، ص60.

[2] – مالك بن نبي، مجلة الفكر العربي، العدد: 32، دار الانماء العربي، بيروت لبنان، ص130.

[3] – محمد عوني عبدالرؤوف، جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة، المجلس الأعلي للثقافة القاهرة ط1 2004، ص3.

[4] – ساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي، ج1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002،، ص243
رابط الموضوع: https://www.alukah.net/culture/0/98882/#ixzz5rQ68gUXx

[5] – المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط الثالثة والثلاثون، 1992م، ص 384.

[6] – يوسف زيدان الاستغراب جذوره ومشكلاته، عن كتاب مجموعة مؤلفين، جدل الأنا والآخر/ قراءات نقدية في فكر حسن حنفي، دار مدبولي الصغير، القاهرة، 1997، ص151-152.

رؤية الغرب الذي هو"الأنا" بالنسبة لنفسه، والآخر بالنسبة للشرق، رؤيته للشرق الذي هو الأنا بالنسبة لنفسه والآخر بالنسبة للغرب فإن الأدوار تتبدل في الاستغراب، ليصبح الآخر أللأوروبي المدروس بالأمس هو الذات الدارسة اليوم، ويصبح الأوروبي الدارس بالأمس هو الموضوع المدروس اليوم"[1].

وهذا أمر فيه تثبيت وإقرار بالجرح النرجسي العربي"[2]، ويترتب على انقلاب المواقع والأدوار في الاستغراب، أن يصبح هدفه تفكيك العقدة التاريخية المزدوجة بين علم الأنا والآخر، وتفكيك الجدل بين مركب العظمة الذي نشأ عند الأنا الأوروبي من كونه ذاتا دارسة، ومركب النقص الذي نشأ عند غير الأوروبي من كونه موضوعا مدروسا، إذ أن الغاية الكامنة وراء الاستغراب، غية نفسية قبل أن تكون علمية، لأن غايته أن ينقل الشرقي من وضع المفعولية إلى وضع الفاعلية بتحويله المستشرق عن دارس إلى مدروس وقلية دراسات المستشرقين من دراسة موضوعات إلى موضوعات دراسته"[3].

[1] – ينظر : حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للطباعة والنشر، القاهرة،1991، ص 29.

[2] – يعزو جورج طرابيشي فكرة الجرح النرجسي التي يستعملها غالبا لتوصيف بعض العقد النرجسية العربية سواء على مستوى توصيف المثقفين العرب في ذلك، أو على مستوى تشخيص بناءات الفكر العربي وعلاقته بالآخر عموما، أو على مستوى وصف الأنساق الثقافية العربية وكيفية تعالقها مع أنساق ثقافية أخرى، إلى عبارة كان قد أطلقها سيجموند فرويد في مقال له في عام 1917 بعنوان "صعوبة أمام التحليل النفسي" تحدث فيها عن جرح نرجسي فريد من نوعه نشأ عن الإذلال الذي تعرضت له كبرياء البشرية ثلاث مرات على التوالي من جراء تقدم العلم وتوالي كشوفاته،.. .ينظر : جورج طرابيشي، هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، ج1، دار الساقي، بيروت، 2006، ص 93.

[3] – لمزيد من التفاصيل ينظر: جورج الطرابيشي في الفصل المتعلق ب: علم الاستغراب المستحيل، عن كتابه : المثقفين العرب والتراث، دار رياض الريس، بيروت، 1991، ص165، 175.

وفي هذا المدخل نحاول تقريب معنى (الخطاب) بنماذج أدبية ولغوية، من خلال آراء بعض المفكّرين والنقاد، وكيف وظف كل من الشرع واللغة الأدبية (الخطاب) في مختلف السياقات اللغوية. وهذا لوضع النقاط على الحروف، ومحاولة الإجابة على مختلف الأسئلة التي يمكن أن تصادفنا في مسيرة بحثنا وذلك إيمانا منا بأن دور الخطاب في أطروحة إدوارد سعيد محوري و أساسي، وهو الذي أكد على أننا مالم نفهم أو نعي الاستشراق على أنه خطاب فلن نصل إلى كنه مضامينه ومشروعه:

- ما هو معنى الخطاب لغة واصطلاحا؟
- **الخطاب لغة** (النموذج الأول):

الخطاب لغة:خطب: الخَطْبُ: الشَّأْنُ أَو الأَمْرُ، صَغُر أَو عَظُم؛ وقيل: هو سَبَبُ الأمر. يقال: ما خَطْبُك؟ أَي ما أَمْرُكَ؟ وتقول: هذا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسير. والخَطْبُ: الأَمر الذي تَقَعَ فيه المخاطَبة، والشأْنُ والحالُ، ومنه قولهم: جَلَّ الخَطْبُ أَي عَظُم الأَمرُ والشأْن. وفي حديث عمر، وقد أَفْطَروا في يومٍ غيمٍ من رمضان، فقال: الخَطْبُ يَسِيرٌ. وفي التنزيل العزيز: قال فما خَطْبُكُم أَيُّها المرْسلون وجمعه خُطُوبٌ؛ فأَما قول الأَخطل:

كَلَمْعِ أَيْدِي مَثَاكِيلٍ مُسَلَّبةٍ يَنْدُبْنَ ضَرْسَ بَناتِ الدَّهْرِ والخُطُبِ

إنما أَراد الخُطوبَ، فحذفَ تَخفيفاً، وقد يكونُ من باب رَهْنٍ ورُهُنٍ[1].كما عرفه صاحب القاموس المحيط كالآتي:الخَطْبُ: الشأنُ، والأَمْرُ صَغُرَ أو عظُمَ، ج: خُطُوبٌ. وخَطَبَ الخاطِبُ على المِنْبَرِ خَطَابَةً، بالفتحِ، وخُطْبَةً، بالضمِ، وذلك الكلامُ: خُطْبَةٌ أيضاً، أو هي الكلامُ المَنْثُورُ المسَجَّعُ ونحوهُ. ورجلٌ خطيبٌ: حَسَنُ الخُطْبَة"[2].

[1]– مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروز آبادي، المتوفى سنة 817 هـ، القاموس المحيط/معجم، المطبعة الميمنية بالقاهرة، سنة 1319 هـ، ص54.

[2] – القاموس المحيط/ معجم عربي عربي، المطبعة الميمنية بالقاهرة، سنة 1319 هـ، مادة خطب، المرجع السابق.

وجاء في لسان العرب أن كلمة خطاب تعني (الخطاب والمخاطبة:مراجعة الكلام.وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطباء وهما يتخاطبان وفصل الخطاب:أن يفصل بين الحق والباطل) وكما ورد الخطاب في معجم ألفاظ القرآن الكريم: (خاطبه: تكلم معه، والخطب:الشأن الذي تقع فيه المخاطبة)"[1].

وجاء في كتاب –الكليات– لأبي البقاء الكفوي (الكلام الذي يقصد به الإفهام.إفهام من هو أهل الفهم. والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع لا يسمى خطابا)[2].

وتناول معجم الوسيط الخطاب بمعنى(الكلام والرسالة)[3]. أما القرآن الكريم فنجد قوله تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)[4] ويقول ايميل يعقوب في قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية(الخطاب مقطع كلامي يحمل معلومات يريد المرسل أن ينقلها إلى المرسل إليه فيكتب الأول رسالة ويفهمها الآخر بناء على نظام لغوي مشترك بينهما)[5]. ويعرف كذلك بأنه (المواجهة بالكلام أو ما يخاطب به الرجل صاحبه ونقيضه الجواب).[6]وورد كذلك في المنجد في اللغة العربية المعاصرة (بمعنى الكلام الموجه إلى الجمهور من المستمعين في مناسبة من المناسبات)[7]. وفي كتاب استراتيجيات الخطاب نستدل بهذا المقطع النصي في شرح الخطاب (إن الخطاب كمفردة لغوية يشير إلى مصدر الفعل خاطب يخاطب خطابا ومخاطبة وهو يدل على توجيه الكلام لمن يفهم أي نقله من الدلالة على الحدث المجرد من الزمن إلى الدلالة الاسمية فأصبح قديما يدل على ما خوطب به وهو الكلام)[8].

- **الخطاب**/Discoures،**لغة**:

[1] – مجمع اللغة العربية، معجم الفاظ القران الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1996م، المجلد2، مادة خطب.

[2] – أبو البقاء الكفوي، الكليات، طبعة مؤسسة الرسالة، بعناية عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت، 1992م،.ص419

[3]– مجمع اللغة العربية المعجم الوسيط، أخرجه إبراهيم محمد وآخرون، دار الدعوة، استانبول، عام 1989، ص 243

[4] – سورة ص الآية 20.

[5] – ايميل يعقوب قاموس المصطلحات اللغوية والادبية، دار العلم للملايين. بيروت.1987م. (مادة خطب).

[6]– محمد العدناني معجم الاخطاء الشائعة مكتبة لبنان، بيروت، 1980م، طبعة 2، (مادة خطب).

[7]– المنجد في اللغة العربية المعاصرة، بيروت، دار المشرق، عام 2000م، ص396.

[8]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م، طبعة 1، ص36.

بوجه عام:عملية عقلية تستند إلي عمليات جزئية ومتتالية.

بوجه خاص: تعبير عن الفكر وتطويره بفضل ألفاظ أو قضايا تلزم عن هذا التعبير".[1]

1- **تعريف الخطاب اصطلاحا** (النموذج الأول):

"كل ملفوظ يندرج تحت نظام اللغة وقوانينها فهو نص، وإذا ما خرج ليندرج تحت السياقات الاجتماعية سمي خطابا، فالخطاب إذن يضطلع بمهمة توصيل رسالة،، ومن ثم فهو مغمور في الأيديولوجيا، ومبالغ في خرق النظام بحثا عن المرجع، هكذا تنظر يمنى العيد إلى معنى الخطاب. وانطلاقا من قولها هذا نصدر حكما مقتضاه أن النص الأدبي هو خطاب، وليس سوى خطابا. ومن ثم فإن"النص الأدبي في أبسط مظاهره (كلام) ولأنه كذلك، وجدت العلوم المهتمة بالأفراد طريقها إليه. والنص الأدبي يبدعه فرد منغرس في الجماعة، ويتجه به إلى مجموع القراء، لذلك تناوله علم الاجتماع بالدرس، وهكذا إلى آخر العلوم الإنسانية علما علما، لكل منها طريقا تسلكه، إلى الظاهرة الأدبية فتمتحن مناهجها عليها."[2]والخطاب لا يتم إلا بين شخصين فما فوق، لأن الكلام لا يتم إلا به، وأن التواصل لا يتحقق إلا بوجوده، كما أشار القاضي عبد الجبار إلى أن المخاطبة مفاعلة، ولا تستعمل إلا بين نفسين يصح لكل واحد منهما أن يخاطب إبتداء، ويجيب صاحبه عن خطابه"[3]ورد الخطاب في(اللسان والميزان) على أساس أنه:

"إن المنطوق به –أي الخطاب– الذي يصلح أن يكون كلاما: هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التواصلية الواجبة في حق ما يسمى خطابا إذ حد الخطاب أنه كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه. مقصودا مخصوصا"[4]

[1]– د. منى أبو سنة تعريف الخطاب "مقال: مفهوم الخطاب" نقلا عن الانترنت، الموقع http://civicegypt.org/?p=9513 – ميشيل فوكو،

[2]– حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت و الدار البيضاء المغرب، ط2، 1987،ص108.–

[3]– مقالة للدكتور صبري محمد خليل "مفهوم الإصلاح في الفكر الإسلامي السياسي الانترنت الموقع
www.drsabrikhalil.wordpress.com

كما جاء في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة بأن الخطاب: "مجموع التعابير الخاصة التي تتحدد بوظائفها الإجتماعية ومشروعها الإيديولوجي"[1]

وقد قال سام هاريس وهو من الباحثين الذين يتميزون بالدراسة الإبستيمولوجية الحديثة:" إن الخطاب ملفوظ طويل أو عبارة متتالية من الجمل"[2]. ويعرف الخطاب اصطلاحا الباحث"بنفست" إن الخطاب هو كل لفظ يفترض متكلما ومستمعا وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"[3]. وقد اجتهد ميشل فوكو في تعريف الخطاب إصطلاحا على أنه مجموعة من الملفوظات بوصفها تنتمي إلى نفس التشكيلة الخطابية فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى مالا نهاية بل هو عبارة عن محصورة من الملفوظات التي تستطيع تحديد شروط وجودها أنه تاريخي من جهة أخرى جزء من الزمن وحدة إنفصال في التاريخ ذاته يطرح مشكلة حدوده الخاصة وألوان قطيعته وتحولاته والأنماط النوعية لزمانيته بدل أن يطرح مشكلة إنحباسه المباغت وسط تواطؤ الزمن"[4]. وتعرف الدكتورة منى أبو سنة الخطاب: "الخطاب/ Discourse" وجميع الدراسات تؤكد أن مفهوم الخطاب (إصطلاحا) على النحو التالي: الخطاب مرتبط أساسا بميشيل فوكو 1926 –1948 الذي يستخدمه لوصف كيف تعمل الأنسقة في الثقافة والأيدلوجية واللغة والمجتمع، وكيف تعكس هذه الممارسة السلطة وتحافظ عليها. وعند علماء الإجتماع، الخطاب نسق محدد من المعرفة ويحافظ على الممارسات التي تتحد عنده بواسطة فرد مشترك ووظيفتها غلق أية إمكانية لرسائل مردودة إلي ألفاظ تستخدم لوصف الأشياء..، ويدعو

1- حسين واد، في مناهج الدراسة الأدبية، دار سراس للنشر، تونس، 1985، ص37.
2- أحمد يوسف، سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، مخبر السيميائيات جامعة وهران، الجزائر، 2004، ص 22.
3-طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الناشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، 1998، ص197.
4-سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985م-1441هـ، ص83.
5-سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي(، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، 1989،ص 18

"ميشيل فوكو" إلى أركيولوجيا الفكر، أو علم آثار الفكر، لدراسة الظواهر مثل بنية المجتمع ومواجهته لمسائل الجنون والجنس وذلك بتفكيك الخطاب".في النظرية الأدبية، دراسة الخطاب وسيلة لدراسة العمل الإبداعي في ضوء منظومة عقلية خاصة بالتراث الإجتماعي، وبالجماعات المكونة لهذا التراث، وهذا من شأنه إلقاء الضوء علي مضمون ومعنى هذه الأعمال الإبداعية في داخل هذه المجتمعات، مثال: أوديسا هوميروس لا تفهم في إطار الصور الخيالية أو الحكي أو الخصائص الشعرية وحدها ولكن في إطار الفروض الكافية في عقل هوميروس كما كتبها، وفي إطار مبدعي الأساطير الذي يستند إليهم هوميروس، وفي إطار البناء الهرمي للطبقات وأفكار المجتمع التي كتب عبرها، كذلك أفكار المتلقي للعمل الأدبي...وكان علم اللغة فيما مضي محصورا تماما في تحليل العبارات الفردية وأجزاء من هذه العبارات. أما الخطاب فلا يتناول العبارات، كل عبارة بمعزل عن الأخرى، ذلك أن النصوص المكتوبة والمنطوقة لها أبنية ووظائف خاصة بها قد تفقدها إذا لم تتجاوز مستوى العبارات، وبمجرد أن نبدأ في اكتشاف كيفية أن تكون اللغة خطابا فإن التركيز يتحول من التعامل مع اللغة علي أنه شيء مجرد إلى كيفية استخدام اللغة كظاهرة إجتماعية"[1].

2- **تعريف الخطاب اصطلاحاً** (النموذج الثاني): وعرف بأنه (كل نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكاتب، وتفترض فيه التأثير على السامع أو القارئ، مع الأخذ بعين الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التي تم فيها)[2].

وفي ضوء ما سبق يمكن أن نعرف الخطاب بأنه إيصال الأفكار إلى الآخرين بواسطة الكلام المفهوم، واللغةفي ذلك هي أداة الخطاب يعني وعاء الأفكار.

[1] مقالة للدكتور صبري محمد خليل"مفهوم الإصلاح في الفكر الإسلامي السياسي ، الموقع: www.drsabrikhalil.wordpress.com

[2] أشرف ابو عطايا ويحيى عبد الهادي أبو زينة، تطوير الخطاب الديني كأحد التحديات التربوية المعاصرة، بحث مقدم إلى مؤتمر"الإسلام والتحديات المعاصرة"المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية في الفترة: 2-2007/4/3م ص 687

3- تعريف الخطاب اصطلاحاً: (النموذج الثالث): (ليست علاقات توجد داخل الخطاب، فهي لا تربط مفاهيمه وألفاظه بعضها ببعض، ولا تقيم بين الجُمل والقضايا بناءً استنباطيا أو بلاغيا، لكن هذا لا يعني أنها علاقات توجد خارج الخطاب، ترسم حدوده وتفرض عليه إشكالاً معينة، وتلزمه في بعض الأحوال أن يتلفظ بأشياء ويعبر عنها، إنها توجد إذا صح التعبير عند حدود الخطاب، فهي التي تمنحه الموضوعات التي يتحدث عنها، أو على الأصح هي التي تحدد مجموع الروابط التي على الخطاب أن يُنشئها بصورة فعلية، حتى يستطيع الكلام عن هذه الموضوعات أو تلك، وحتى يتمكن من دراستها وتسميتها وتحليلها وتصنيفها وتفسيرها وغير ذلك، فالعلاقات الخطابية لا تميز اللغة التي يستخدمها الخطاب ولا تميز الظروف التي ينتشر فيها كخطاب، بل تميز الخطاب ذاته من حيث هو ممارسة)[1].

مقومات الخطاب:

نلتمس من هذا التعريف الأخير عناصر ومكونات الخطاب ومجال عمله، والأثر الذي يحدثه، والغاية منه، هذه العناصر هي: " الخطاب: منطوق (شفهي) أو مكتوب معد، يتصف بصفتي: الارتباط والانتظام، ذو دلالة أو دلالات ضمنية معينة _ لابد له من حقل اجتماعي تعمل دلالته ضمنه، كل خطاب ينتج أثرًا متعينًا، فما لم يحدث أثره دل على قصور في المرسل أو الأداة، ويوصف الخطاب (بالنجاح)إذا تفاعل مع وعي المخاطب بما يجره إلى حقل قناعاته."[2]. ويتعين على أي خطاب يريد له صاحبه تحقيق الأثر الإيجابي أن يتوفر على مقومات الخطاب الناجح، أهمها:*الحجية: إذ لا دور لخطاب فاقد للحجة القوية والدليل المقنع والبرهان الجلي على المضمون الذي يحمله، "فالواقع أن هدف الخطاب في جميع مكوناته هو إقناع المستمع أو القارئ من خلال

[1] – ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 1987 ص 44، 45

[2] – وليد منير: « النص القرآني من الجملة إلى العالم»، (القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: ط1، 1418هـ _ 1997م)، ص 17

استخدام الحجة المنطقية المتماسكة، ومن خلال استخدام الأفكار.. المجمعة المنسقة ذات العلاقات الدلالية المتشابكة"[1]

مفهوم النقد لغة و إصطلاحا:

النقد لغة:

قال ابن فارس: النون والقاف والدال، أصلٌ صحيح يدلُّ على إبراز شيء وبروزه.

من ذلك: النقَد في الحافِر، وهو تقشُّره، والنقد في الضِّرس: تكسُّره، وذلك يكون بتكشُّف لِيطه عنه.

ومن الباب: نقد الدرهم، وذلك أنْ يكشف عن حاله في جودته أو غير ذلك.

ودرهم نقد: وازنٌ جيد، كأنَّه قد كشف عن حاله فعلم."[2]

ويأتي النقد بمعنى كشف العُيوب، قال أبو الدرداء: "إن نقدت الناس نقدوك"؛ أي :عبتهم واغتبتهم، من قولك: نقدت الجوزة أنقدها، ونقد الدرهم، ونقد له الدرهم؛ أي: أعطاه إيَّاه.

النقد اصطلاحًا:

"النقد في حقيقته تعبيرٌ عن موقفٍ كلي متكامل في النظرة إلى الفن عامَّةً، أو إلى الشِّعر خاصَّةً، يبدأ بالتذوُّق؛ أي: القدرة على التمييز، ويعبرُ منها إلى التفسير والتعليل والتحليل والتقييم، خطوات لا تُغنِي إحداها عن الأخرى، وهي متدرجةٌ على هذا النسق؛ كي يتَّخذَ الموقف نهجًا واضحًا، مؤصلاً على قواعد – جزئيَّة أو عامَّة – مؤيدًا بقوَّة الملكة بعد قوَّة التمييز"[3].

[1] – د/ مازن الواعر: « الاتجاهات اللسانية المعاصرة ودورها في الدراسات الأسلوبية «مجلة عالم الفكر، الكويت، الثاني والعشرون، ع: 3،4 _ 1994. ص176.

[2] _ معجم مقاييس اللغة –احمد بن فارس زكريا ابو الحسين– المحقق عبد السلام محمد هارون–دار الفكر–بيروت لبنان–1979 ج2 ص 577

[3] _ تاريخ النقد الأدبي عند العرب المؤلف : إحسان عباس الطبعة : 4. تاريخ النشر : 1983 الناشر : دار الثقافة بيروت لبنان ص14.

ويتغايَرُ مفهومُ النقد بحيثيَّات الفن الذي يخاضُ فيه، فنقد الأدباء والشُّعَراء غير نقد الفُقَهاء وأهل الفرق، ونقد الأصوليين غير نقد المحدِّثين؛ فلكلٍّ قواعدُه ومناهجُه، غير أنَّ المشترك بينها هو النظر في المقالة لبيان عُيوبها، وكشف نقائصها، ثم الحكم عليها بمعايير فنِّها، وتصنيفها مع غيرها.

والمعايير والأحكام الصادرة تتفاوَتُ وتتغايَرُ بحسَب الفن الذي يمارسُ فيه النقد، وبحسَب النُّقَّاد وملكاتهم العلميَّة.

كما للنقد مفردات مُقاربة؛ مثل: التقييم والرُّدود، والمناظرات والمحاورات، والجدل والمباحثة، والمِراء والمناقشة، وإنْ كان لكلٍّ واحدٍ ما يُمَيِّزُه عن غيرِه من دواعي وأساليب وغايات ودوافع.

فالتقييم يكون في الغالب للمقالات والإنتاج الفكري بمنهجيَّة عرض الخطأ والصواب، السيِّئ والحسن.

والنقد يُمارَسُ على الرجال من حيث الأهليَّة العلميَّة والعدالة والثقة، كما يكونُ على المقالات والمذاهب والأدب والشعر، والمراد بيان الزيف والأخطاء، وكشف القيمة.

والنقد عند أهل الحديث هو وصفٌ في الراوي، يثلمُ عدالته ومُروءته؛ ممَّا يترتَّبُ عليه سُقوطُ كلامه وردُّه، وهو مرادفٌ لكلمة "الجرح".

أمَّا الرد ففي الغالب يكونُ هدمًا لمقالة أو فكرة جملة وتفصيلاً.

والجدل يكونُ بالأخذ والرد، والطرح والبدائل.

والمناظرة تكون بالمواجهة؛ فينظُر الخصمان لبعضهما، وينظر كلٌّ منهما في قول الآخَر، فهي جدلٌ لكن مباشر بين المتجادلين، وغالب المناظَرة في مسائل الاختلاف، وغالب الجدل في مسائل الخِلاف، والرُّدود جملتُها في مسائل الخلاف.

ويغلبُ استعمالُ مصطلحِ النقد في الأدب والشعر والفلسفة، والرُّدود في الفقه والعقائد، والجدل في علم الكلام ومقالات الفرق، والجرح والتعديل ونقد الرجال في علم الرجال، والمناظرة والمناقشة والمباحثة والحوار في أيِّ فنٍّ تواجَهَ فيه الطرفان، اتَّفقا في الرأي أو اختلفَا."[1]

[1] – نقلا عن مذكرة التخرج لشهادة الماجستير –الموسومة ب الخطاب الإصلاحي والنقد الاجتماعي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس من إعداد الطالب : بن قلوعة صلاح الدين كلية الأدب العربي والفنون، جامعة مستغانم، 2015 ص 113.

- **الثقافة لغة**

أصل الثقافة في اللغة العربية مأخوذ من كلمة (ثقف) بضم القاف وكسرها.

وتطلق في اللغة على معان عدة، فهي تعني الحذق والفطنة والذكاء وسرعة التعلم وتسوية الشيء وإقامة إعوجاجه والتأديب والتهذيب والعلم والمعارف والتعليم والفنون.

قال ابن فارس ثقف الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة أليها يرجع الفروع وهو أقامة درء الشيء ويقال ثقفت القناة إذا أقمت أعوجاجها. ورجل ثقف لقف وذلك أن يصيب علما ما يسمعه على استواء[1]"

وفي تهذيب اللغة لابن السكيت: "رجل ثقف لقف إذا كان ظابطا لما يحتويه قائما به... ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم[2]".

وعند ابن منظور ((ثقف ثقف الشيء ثقفا وثقافا ثقوفة حذقه ورجل ثقف وثقف وثقف حاذقفهم وأتبعوه فقالوا ثقف لقف...ابن دريد ثقفت الشيء حذقته وثقفته إذا ظفرت به)).

قال الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُو ﴾ [الأنفال: 577] .

وثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقا خفيفا مثل ضخم فهو ضخم ومنه المثاقفة

وثقف أي صار ثقفا مثل تعب صار تعبا أي حاذقا فطنا

وهو غلام لقن ثقف أي ذو فطنة وذكاء والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه[3]"

[1] – معجم مقاييس اللُّغة، مرجع سابق، ج1، ص382، بتصرُّف.

[2] – تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت370هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ج9،، ط 1، 2011م،داراحياء التراث العربي، بيروت. ص81

[3] – لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق،، ج9، ص 19بتصرُّف.

- **الثقافة اصطلاحا**

قيل هي الرقي في الأفكار النظرية وذلك يشمل الرقي في القانون والسياسة والإحاطة بقضايا التاريخ المهمة والرقي كذلك في الأخلاق أو السلوك وأمثال ذلك في الاتجاهات النظرية[1]"

وقيل جملة العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق بها[2]"

فالمقصود من الثَّقافة مصطلحًا يعني: (العلم الَّذي يبحث كلِّيَّات الدِّين في مختلف شئون الحياة)[3]

"ولئن كان من الممكن اعتبار القرن الثامن عشر فترة تكون معنى فإن الثقافة كانت قد أصبحت، في عام 1700، لفظا قديما في التعبير الفرنسي. ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر متحدرة من CULTURAاللاتينية التي تعني العناية الموكولة للحقل وللماشية، وذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة "[4].

إن (ثقافة) أو (حضارة)، موضوعة في معناها الإيديولوجي الأكثر اتساعا، هي هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع"[5].

ويعرف كلود ليفي ستروس الثقافة كالتالي:

---

[1] – أضواء على الثَّقافة الإسلاميَّة، نادية شريف العمري،، مؤسَّسة الرِّسالة، ط9 بيروت،2001 م. ص 9

[2]– مقدمات في الثَّقافة الإسلاميَّة، مفرح بن سليمان القوسي ط3، الرياض 1424 هـ، ص 366.

[3] – مدخل في علم الثقافة الإسلامية الإسلامية، (الثقافة الإسلامية وصلتها بالعلوم الأخرى)، إعداد الطالبة:غزوى العنزي بإشراف الأستاذ: د.عبد الله الوصيف،، وهو بحث مقدم لقسم الثقافة الإسلامية، بكلية الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود بالمملكة العربية السعودية. ص4

5–أنظر بصدد هذه النقطة PHILIPE BENETHON, Histoire de mots ‘culture’ et ‘civilisation’. Travaux et recherches de science politique, ‘Paris presses de la fondation nationale des sciences politiques. 1975

[5] Edward Burnett Tylor, primitive culture : Reseearches into the 1 Development of mythology, Religion, Art and Custom, 2 vols, London; j/ Murray, 1871 p 1

"يمكن اعتبار كل ثقافة مجموع أنساق رمزية تتصدرها اللغة وقواعد التزاوج والعلاقات الاقتصادية والفن والعلم والدين. كل هذه الأنساق تهدف إلى التعبير عن بعض أوجه الحقيقة الطبيعية والحقيقة الاجتماعية. وأكثر من ذلك إلى التعبير عن العلاقات التي ترتبط بها كل من هاتين الحقيقتين بالثانية. وتلك التي ترتبط بها الأنساق الرمزية ذاتها بعها ببعض"[1].

- **المثقّف لغة**

من المعلوم أنّ مصطلح المثقّف وليد الثّقافة الغربيّة الحديثة ولم ينتقل إلى العربيّة، إلاّ عبر عمليّة التّرجمة الّتي بقيت على الرغم من تطوّرها ترتكز إلى الاجتهادات الفرديّة وتبتعد عن العمل المؤسّس، وذلك راجع إلى غياب المرجعيّات الثّقافيّة النّافذة الّتي إضافة إلى ذلك يمكن أن تؤطّر عمليّة التّرجمة وتوجّهها .ثمّ إنّ من المتعارف عليه أنّ كلّ ترجمة خيانة لذلك، نشير إلى المشكلات المتعلّقة بترجمة المصطلح، بما هو لفظ مخصوص تلك المشكلات الّتي يوجزها إبراهيم كايد محمود ب:

"فوضى المصطلح، وغياب المنهجيّة الموحّدة لوضع المصطلحات الملزمة لكلّ من أراد أن يمدّ يده إلى هذا العمل، كذلك اختلاف اللّغات الّتي نترجم عنها أو ننقل منها والمدارس الّتي نتبنّى آراءها ومنهجيّاتها، إضافة إلى ثقافة النّاقل أو المِصْطَلِحات الّتي تنعكس فيما يقدّمه من مصطلحات، كلّ هذه الأمور عقبات كأداء تقف حائلاً دون تقدّم المصطلح وتطوره في العالم العربيّ"[2].

[1] Claude Levy Strauss, 'introduction a l'œuvre de Marcel Mauss 19 ; dans Marcel Mauss, sociologie et anthropologie, bibliothèque de sociologie contemporaine, précédé d'une introduction a l'œuvre de Marcel Mauss par Claude Lévi-Strauss (paris : presses universitaires de France, 1950) p. XIX.

[2] – كايد محمود إبراهيم، المصطلح ومشكلات تحقيقه، مجلة التراث العربي، العدد 97، السنة الرّابعة والعشرون، مارس 2005.

نجد في(لسان العرب)لابن منظور" :ثقِف الشيء ثقفًا وثقافًا وثقوفة :حذق هو رجل ثقف وثقف وثقف :حاذق فهم، ويقال ثقف الشيء :هو سرعة التعّلم"[1].

وفي القرآن الكريم نجد في (سورةالنساء/91)" :فإن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْوَ يُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينا" ثَقِفْتُمُوهُمْ ،بمعنى وجدتموهم.
وقد جاء في تعريف المثقفين "إنّ كتلة الدّارسين والجامعيين هي التي يمكن أن نبحث فيها أوّلًا عن المثقّفين"[2]

"إنّ كتلة الدّارسين والجامعيين هي التي يمكن أن نبحث فيها أوّلًا عن المثقّفين"[3]

"إنّ بعض الأهليّة الإدراكيّة، مضافة إلى حساسيّة حادّة تجاه القيم، هما مجموعتا الخصائص التي نقترح تعريف المثقّفين بها، ويقتضي أن نضيف سمة ثالثة لنميّزهم بها وتتعلّق بالآداب التي يعلنون التّمسّك بها[4]"
ويقول إدوارد سعيد أنه "بخلاف المثقّف التقليديّ، يرتبط المثقّف العضويّ مباشرة بالطّبقة أو المؤسّسة التي تستخدمه لتنظيم وظائفها الاقتصاديّة .يقول في هذا الصدد : "إنّ كلّ جماعة اجتماعيّة تظهر إلى حيّز الوجود في عالم الإنّتاج الاقتصاديّ، حيث تؤدّي وظيفتها الجوهريّة، وتخلق شريحة أو أكثر من المثقّفين، وهي تمنحها التجانس والوعي بوظيفتها، لا في الميدان الاقتصاديّ وحده، بل في الميدانين معا. الاجتماعيّ و السّياسيّ أيضًا، فمنظّم الأعمال الرأسماليّ يخلق إلى جانبه التقنيّ الصّناعيّ، والاختصاصيّ في الاقتصاد السياسيّ ومسؤولين، لإنشاء ثقافة جديدة أو نظام قانونيّ جديد"[5].

والثقافة هي "كل كلمة لها نتائجها المترتّبة عليهاو كلّ صمت كذلك وإنّي أؤمن بأنّ فولتير وجويكور مسؤولان عن القمع الذي أعقب الكومونة؛ لأنّهما لم يكتبا ولوسطرًا واحدًا للحيلولة دونه .قد يقول قائل إنّه لم يكن شأنهم،

[1] – ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة 1999 ،ج 1، ص 492.
[2] – ر. بورون، وف. بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، سليم حداد (مترجمًا)، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1986، ص 48
[3]– ر. بورون، وف. بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، سليم حداد (مترجمًا)، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1986، ص 48
[4]– محمد الهادي كشت ، تمثيلات المثقف المقاوم صورة المثقف في فكر إدوارد سعيد ، العدد الخامس – نيسان / أبريل 2018 ص 211.
[5] – سعيد إدوارد، صور المثقف، ص 22 .

ولكن هل كانت محاكمة كالا شأنًامن شؤون فولتير .أو إدانة دريفوس شأنًا من شؤون زولا".[1]وكذلك فإن الثقافة تعني الصفة منها: العاقل المتفهم، وتطلق على الرجل الذي يحسن التفكير، ومن ثم تطلق على أهل الفكر أو inteligenstia على شريحة من المجتمع تكون من صفاتها المتميزة البارزة هي استعدادها الفكري والعقلي وذكاؤها. هذا هو معنى المصطلح"[2].

والمثقف اصطلاحا – وهذا هو موضوع بحثنا- كلمة تطلق على فرد من طبقة أو شريحة معينة تقوم بعمل عقلي وفكري.. وعليه فكل إنسان ذكي يبرز ذكاؤه وفكره وفهمه عن سائر مواهبه الأخرى في حياته فهو مثقف."[3]

النقد الثقافي

يرى عبد الله الغذامي أن (النقد الثقافي هو ذلك النقد الذي يحلل النصوص والخطابات الأدبية. والفنية والجمالية في ضوء معايير ثقافية وسياسية واجتماعية وأخلاقية بعيدا عن المعايير الجمالية والفنية والبويطيقية(...) وبالتالي. يعني النقد الثقافي بالمؤلف والسياق والقصدية والقارئ والناقد. ومن ثم فإن النقد الثقافي نقد إيديولوجي وفكري وعقائدي.. ويهدف النقد الثقافي إلى كشف العيوب النسقية التي توجد في الثقافة والسلوك بعيدا عن الخصائص الجمالية والفنية ويعني أن النقد الثقافي هو: "فعل الكشف عن الأنساق وتعرية الخطابات المؤسساتية، والتعرف على أساليبها في ترسيخ هيمنتها وفرض شروطها على الذائقة الحضارية للأمة) مقولة ل حمداوي جميل"[4].

يرى عبد القادر الربيعي أن: (النقد الثقافي يتوسع في مجالات الاهتمام والتحليل للأنساق. إذ لم يعد الأدب بالمفهوم التقليدي هو السائد غالبا في مجال الدراسة التحليلية والنقدية وإنماغدا في بعض الدراسات المعاصرة جزءا من كل أكبر وأوسع وأشمل. حتى سمي هذا الكل. الدراسات الثقافية).[5]ويقول الناقد محسن جاسم الموسوي: (أن

[1] – محمد الهادي كشت، تمثيلات المثقف المقاوم صورة المثقف في فكر إدوارد سعيد، العدد الخامس- نيسان / أبريل 2018 ص212.

[2]– علي تقي الدين شريعتي، مسؤولية المثقف، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت لبنان، ط2، 2007 ص50.

[3] – محمد الهادي كشت، تمثيلات المثقف المقاوم صورة المثقف في فكر إدوارد سعيد، العدد الخامس – نيسان أبريل 2018 ، ص214 .

[4] – جميل حمداوي، النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، مقال نقدي. الموقعHTTP : // www.diwamalarabe.com

[5] – عبد القادر الرباعي، تحولات النقد الثقافي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان ط1، 2007، ص 15.

النقد الثقافي يوظف الأدب بوصفه مصطلح وظائفي متغير. ف: _ليتش فنسنت بي_ يرى أنه يجب علينا فتح الطريق بين الشفاهي والأدبي والاجتماعي الذي نحيا فيه وبالتالي القدرة على دمج هذا الأدب داخل مساقات الخطاب والثقافة)[1]. وترى الناقدتان الأمريكيتان روز.س.مورغان و جوهانا. م. سميث، (أن النقد الثقافي في النهاية يجعل من مصطلح _ثقافة_ يحيل إلى الثقافة الشعبية وهو الأمر الذي يضعه في كثير من الأحيان في صراع ضد المفاهيم القديمة التي يتألف منها (التشريع) الأدبي)[2]

أما الناقد آرثر إيزابرجر: " النقد الثقافي _كما أعتقد_ هو مهمة متداخلة مترابطة، متجاورة متعددة كما أن نقاد الثقافة يأتون من مجالات مختلفة ويستخدمون أفكارا ومفاهيم متنوعة وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد وأيضا التفكير الفلسفي. وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي وبمقدوره أيضا أن يفسر نظريات ومجالات علم العلامة ونظرية التحليل النفسي. والنظرية الماركسية. والنظرية الاجتماعية والأنثروبولوجية"[3]. ويقول الدكتور عبد الوهاب أبو هاشم: (إن النقد الثقافي هو منهج سبقنا إليه الغرب (امريكا وفرنسا) له أدواته للكشف عن المضمر النسقي في العمل الأدبي[4]). ويرى سعد البازعي وميجان الرويلي: (أن النقد الثقافي، كما يوحي اسمه، نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعا لبثه وتفكيره ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها)[5].ويبين الدكتور صلاح قنسوة: (أن النقد الثقافي ليس منهجا من مناهج أخرى أو مذهبا أو نظرية كما أنه

---

[1]– مذكرة لنيل درجة الماجيستير في النقد الثقافي، خطابات الفيسبوك وخطاب المثقف، مقاربة سيميائية ثقافية من إعداد الطالب: فوضيل عدنان. كلية الآداب واللغات_ جامعة مولود معمري تيزي وزو، 2013 ص08

[2] – محسن جاسم الموسوي، النظرية والنقد الثقافي، الكتابة العربية في عالم متغير، واقعها، سياقاتها، وبناها الشعورية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ط1. 2005_ ص19 ص 20 بتصرف.

Voir : johanam.smith ,ross c. murfin, c'est quoi la critique culturelle ? http:// www.usac. . ca/english/ frank/wc/htm

[3] – آرثر إيزابرجر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء ابراهيم، ورمضان بسطاويس، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 2003. ص30ص31 .

[4] – عبد الوهاب أبو هاشم، مشروع النقد الثقافي في ملتقى الابداع، جمعية الثقافة والفكر الحر، مركز ثقافة الطفل الفلسطيني، اللقاء الخامس، يوم 17 أفريل2003

[5] – ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي ص 305.

ليس فرعا أو مجالا متخصصا من فروع المعرفة ومجالاتها بل هو ممارسة أو فعالية تتوفر على دراسة كل ما تفرزه الثقافة من نصوص. سواء كانت مادية أو فكرية، ويعني النص هذا كل ممارسة قوة أو فعلا يولد معنى أو دلالة)[1].

ويعرفه حنفاوي بعلي في كتابه: (مدخل في النقد المقارن) النقد الثقافي بأنه: (نشاط وليس مجالا معرفيا قائما في ذاته، وهو لا يدور حول الفن والأدب فحسب. وإنما حول دور الثقافة في النظام الأشياء بين الجوانب الجمالية والأنثربولوجية)[2]

يقول آرثر إيزابرغر في كتابه (النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية): بقدم ما يشبه خارطة لجغرافيا النقد الثقافي:

ـ حيث ظهر في فرنسا،رولان بارت، كلود ليفي ستراوس، ميشيل فوكو، لويس ألتوسير، جاك لاكان، بيير بورديو، جاك دريدا، أ.ج. غريماس.

ـ وفي ألمانيا: يورجين هابرماس، ثيودور أدورنو، والتر بنجامين، ماكس هوركهايمر، هوربرت ماركوز.

ـ وفي الولايات المتحدة: فيكتزر تيرنير، كليفود غرتيز، فريد يريك جيمسون.

ـ وفي كندا: مينشل ماكلون، إتش. انيس، نورثروب فراي.

ـ وفي انجلترا: كيفس، رايموند وليامس، ستيوارد هول، ريتشارد هوغارت، ماري دوغلاس، وليم إمبسون.

ـ وفي إيطاليا: أنتونيو غرامشي، وامبرتو إيكو[3]

- **النقد الدنيوي:**

وهو من ثمّ يؤسس في "العالم والنص والناقد" مفهومه لدنيوية النصوص ويقارن بين ما يسميه النقد الديني والنقد الدنيوي مفضلاً النقد الأخير الذي يرى أن النصوص الأدبية "في أكثر أشكالها مادية تكون منشبكة بالظرف

[1] – صلاح قنسوة، تمارين في النقد الثقافي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مكتبة الأسرة، القاهرة. ط1_ 2007.ص11.

[2] – شكري عزيز، ماضي: من إشكاليات النقد العربي الجديد. دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع ط2.2008 ص1

[3] – آرثر إيزابرغر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الأساسية، ترجمة وفاء ابراهيم ورمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003 ص48.

والزمان والمكان والمجتمع. باختصار انها موجودة في العالم [في الدنيا]، ومن ثمّ فإنها دنيوية[1]". وعلى هذا الأساس فإن هدف "النقد الدنيوي" هو "الوصول الى احساس مرهف بما تستلزمه قراءة أي نص، وانتاجه وبثه، من قيم سياسية واجتماعية وإنسانية".

كذلك يعني هذا المصطلح الدنيا في العربية كما يعني العلم، و يؤكد ذلك إشتقاقها

الإنجليزي من " word " و قد استخدم إدوارد سعيد هذا المصطلح مدونته" الإستشراق"[2]

" orientalism "أول ما استخدمه حيث أورده عنوانا فرعيا orientalism worldness "،"

من عنوانات الفصل الثالث " orientalism now "في الكتاب، و قد ترجمه كمال أبو ديب

"دنيويةالإستشراق و كان إدوارد سعيد يقصد به مدى خضوع المستشرقين في كتاباتهم لشروط العيش في هذا العالم الطبيعي، و دعواهم بأنهم تجريبون و علميون و غير خاضعين لفكر ديني أو تصوا رت غيبية في رسم صورة الشرق و تمثيله في أذهانهم و كتاباتهم"[3]

و"تتجلى الدنيوية مصطلحا نقديا لدى إدوارد سعيد فتتعين بها النصوص الأدبية في الوجود، متصلة بزمانها و مكانها و بيئتها وواقعها المادي، وواقعها في الظرفية و النسبية أي تظهر نصوصا في الدنيا ضامنة للتلوث بظروف الزمنية و شروط الواقع.

و تتصل الدنيوية " worldness "مصطلحا نقديا بمفهوم" القرب "و " البعد"في سياقاتها الدلالية، ووقوعها،أي النصوص الأدبية في شرك الزمنية و الواقع في مغزلها الوجودي و ارتباطها بالمعرفة منتجا ثقافيا، و خيرة و تجربة إنسانية" [4].

- **ما بعد الكولونيالية:**

حدد آلان لوسون ما بعد الكولونيالية بأنها :

(حركة تاريخية وتحليلية ذات باعث سياسي يتصارع مع الكولونيالية ويقاومها بهدف إبطالها على المستويات المادية والفكرية والثقافية والسياسية)[5]

[1] – العالم والنص والناقد ص35

[2]– جمال مقابلة و علي عشا، دنيوية النص الأدبي لدى إدوارد سعيد، قراءة في المصطلح، مجلة اتحادالجامعات العربية للآداب، مجلد 2،العدد 2، 2006 م،ص275

[3]– المرجع نفسه، ص277.

4–العالم والنص والناقد ص26.

5– نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية لونجمان، ط1، 2003، ص549

وتسعى ما بعد الكولونيالية إلى: (نقد الفرضيات التي تقوم عليها الرؤى المركزية الأوربية باعتبارها مصطلحا أطلق على كل الثقافات التي تأثرت بالوجود الامبريالي ومجد صفة الانكار لكل ما هو طرفي وهامشي. وكانت البداية مع اللغة التي اعتبرت أداة للسلطة وتأسيس خطاب يلائم المكان المستعمر)[1]

(يقصد بدراسات ما بعد الاستعمار: (الدراسات التي تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمرا، وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار، ما تتضمنه تلك الدراسات من تحليل للنصوص الأدبية وغيرها، للكشف عن استراتيجياتها الخطابية على النحو الذي يبرزه ادوارد سعيد)[2]

تطورت النظرية ما بعد الكولونيالية بعد صدور كتاب –الاستشراق– وصار مجالا أكاديميا، واتسع مداها وصارت تغطي بتساؤلاتها عن العلاقة بين السلطة والمعرفة وموضوعات أخرى كتاريخ الغزوات ومناهضة الاستعمار، وطرق الهيمنة الثقافية)[3]

وفي تعريف آخر للنظرية (استخدم ليغطي كل الثقافات التي تأثرت بالعملية الإمبريالية من لحظة الاستعمار حتى يومنا الحالي. ذلك أن هناك خطا متصلا من الاهتمامات على مدار العملية التاريخية التي بدأها العدوان الإمبريالي)[4]

كما أن هنالك تعريفا آخر للكاتب بيتر هولم في مقاله: (أرخبيلاتتقويضية) 1989، بأن الخطاب الكولونيالي: _ صيغة اكتسبتذيوعا حديثا وهو ما يمكن فهمه بوصفه مصطلحا محددا للمجال المفاهيمي الذي وسمه كتاب:

[1] – ينظر الموقع: http://www.Anatrrropos/com .غزلان هاشمي: ما بعد الكولونيالية.. من الهامش إلى المركز، مجلة دليل الكتاب، ديوان الكتاب للثقافة والنشر، ط1. 2010

[2] – حفناوي يعلى مسارات ومدارات ما بعد الحداثة، أمانة عمان الكبرى الأردن، ط1، 2007،ص142

[3] – ينظر ك. تلوولف وآخرون: موسوعة كمبرج في النقد الأدبي القرن العشرين المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، تر:اسماعيل عبد الغني وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة ج9، ط1، 2005، ص339.

[4] – جميل حمداوي: نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، مؤسسة المثقف العربي، د،ط. 2010،ص217.

(الاستشراق) لإدوارد سعيد بالرغم من أن كما كبيرا من الانتاج في هذا المجال الذي ينشر بعد صدور كتاب الاستشراق كان له بكل وضوح جذور من قبل ذلك بمدة طويلة)[1]

عمدت النظرية ما بعد الكولونيالية إلى: (فضح الخطاب الاستعماري الغربي وتفكيك مقولاته المركزية التي تعبر عن الهيمنة، والاصطفاء اللوني والعرقي باستعمال منهجية الفضح والتعرية)[2]

[1] – بيل أشكروفت، جاريث جريفيث، هيلين تيفين: دراسات ما بعد الكولونيالية، المفاهيم الرئيسية، تر: أحمد الروبي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010، ص 115.

[2] – جميل حمداوي: نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة،المرجع السابق ص221.

الفصل الأول

دراسة وصفية لكتاب "الاستشراق"

- مركزية الاستشراق الأوروبي
- الاستشراق الكامن والظاهر
- ثنائية التقدم والتخلف
- الصراع الفرنسي البريطاني لاقتسام الشرق
- المرحلة الأخيرة

إدوارد سعيد من خلال كتابه "الاستشراق"يعمل على استنطاق أعمال المستشرقين،من أجل تبيان الأهداف الحقيقية للاستشراق الغربي ومضامين كتاباته، والخلفية الدافعة إلى تقديم صور تشوه المعطيات الشرقية،كما أننا في دراستنا للاستشراق بمفهومه الواسع نجد أن جل المستشرقين يركزون على الكتب الغربية الملفقة بأياد ليست عربية إنما هندية، أو مجوسية (فارسية) ، ونسبت للكتاب العرب بطريقة أو بأخرى كما جاء في كتاب " سموم الاستشراق والمستشرقين " للكاتب أنور الجندي[1].ولقد غلب على العمل الاستشراقي إظهار مكامن الخلافات والصراعات الفكرية بين الكتاب العرب والمسلمين بالخصوص، والمتأثرين بالثقافات الدخيلة على غرار الفارسية والهندية، والفلسفات اليونانية، وإبراز النصوص التي تحمل في طياتها خلفيات أعجمية،معادية وبعيدة عن الثقافة الشرقية بغية خلق اضطراب فكري عند القارئ العربي الذي يتناول تراثه بالدراسة، فيقع في أغلاط محسوبة على بعض الكتابات العربية، ولكنها في الحقيقة مدرجة ووافدة من الغرب. لتدسها أيادي المستشرقين في المراجع أو المصادر، فتظهر صورة هذا الكتاب أو ذاك، ممن طاله التحريف والحشو على أنه الحقيقة العربية، تحمل صورة سوداوية متذبذبة زائفة، وذلك من مختلف المستويات الدلالية والسياقية والمعجمية[2].

كما نجد أن كثيرا من المستشرقين عنوا بالكتب التي تركها العرب، ولم يهتموا بها لأنها ظهرت في عصر الضعف، أو في عصور الامبريالية الغربية على دول المشرق والشمال الإفريقي. وكانت هذه الدراسات موازية للاحتلال الغربي،والحملة الشرسة التي تطال كل ما هو شرقي وإسلامي وعربي، والعمل على محو تعاليمه وآثاره.

أي أن الاستشراق الثقافي كان يوازيه استعمار عسكري. ومشى الطرفان مع التنسيق بينهما، تنسيقا مدروسا

1- سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، أنور الجندي، دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة الجزائر، 1987، (المقدمة).

2 موسوعة الاستشراق (معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في خطاب ما بعد الكولينيالي) ، تأليف مجموعة من الأكاديميين، إشراف وتحرير د. عامر عبد زيد الوائلي و د.طالب محيبس الوائلي، مراجعة د. علي عبود المحمداوي مراجعة لغوية د. وسام العبيدي ، ابن النديم للنشر والتوزيع – دار الروافد الثقافية –ناشرون،ط1،2015 ص630

ومحكما يعمل على إعطاء البديل للمجتمعات الواقعة تحت الاحتلال والهيمنة الغربية. هذا البديل الذي اجتهد في سلخ المجتمعات من أصولها و إظهار الأمور الشرقية كما يريد لها الغرب أن تكون، أو تبدو.

وجاء هذا في كتاب " الاستشراق" ردا على الافتراء المقصود وفضحا لمكامنه على كل المستويات، مما أحدث ضجة في نهاية السبعينيات، تاريخ صدور هذا الكتاب. واتهم صاحبه إدوارد سعيد بأنه معاد للغرب، وأن مؤلفه "الاستشراق"، يحمل من الأغلاط الفكرية والعلمية مالا حصر لها. ولم يسلم من الانتقادات اللاذعة من طرف كثير من النقاد والكتاب والصحفيين الغرب، الذين رأوا خطورته على آثار المستشرقين المنحازين للفكر الامبريالي وكبريائه، رغم أن صاحب الكتاب يدين بالديانة المسيحية، إلا أن ذلك لم يشفع له عندهم، ورأوا أنه عربي فلسطيني، محسوب على المجتمع الشرقي.

ويعد الاستشراق حقلا متجاوزا، إذ نجد أن الدراسات الحديثة غيرت كثيرا من المفاهيم في مرحلة تسمى ما بعد سعيد إدوارد، وراحت البحوث تهتم بالمقارنة بين الأديان والثيولوجيا، وذلك أن الدين الإسلامي لم تتم معالجة نصوصه والثقافة العربية ككل انطلاقا من منابعه الأصلية، وإنما تمت دراسته من خلال كتابات المستشرقين، التي لا تخلو من الخطأ، أو العبث. ومن هذا المنطلق فإن هذه الأعمال في مجملها جاءت حريفة، ومنحازة الرؤى. وعندما يتناول هؤلاء الغربيون المواضيع الشرقية – وبالخصوص الشرق العربي – فإن نظرتهم لا تخلو من الفوقية والتعالي المتجذر في نفسياتهم على أساس أنهم أصحاب القرار والذين يعملون على فرض التبعية على الآخر (الشرق). أي إخراج صورة الآخر كما أرادوها أن تكون، ورسمها بملامح (الدونية) ، التي لا يمكنها مسايرة الركب الحضاري العالمي، بسبب ما تحمله من همجية ووضاعة. استنادا على مقولة "إنهم عاجزون عن تمثيل أنفسهم، يجب أن يمثلوا "[1] كارل ماكس. وهذه الصورة التي قدمها أغلب المستشرقين، وإن كنا لا ننكر جهود بعضهم في دراسة المجتمعات الشرقية بموضوعية، على غرار المستشرقة "زيغريد هونكه " في كتابها " شمس الله تشرق على الغرب–فضل العرب على أوروبا "[2]. والذي ذكرت فيه فضل العرب السابق والمجتمع الإسلامي على بقية الأمم.

[1] – إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة السلطة الإنشاء، ترجة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 2012،ط7،ص35.

2 –زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق سعيد بيضونوكمال دسوقي،دار العالم العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت لبنان 1964.

إلا أن الحملات التبشيرية المسعورة التي شنها أغلب هؤلاء بالموازاة مع الحملات العسكرية لم تكن بالقضية الهينة. إذ يمكن القول أن العمل الاستشراقي كان الممهد للأطماع الاستعمارية في جزيرة العرب والشمال الإفريقي.

وجاء كتاب الاستشراق لصاحبه إدوارد سعيد ليقوم بعملية تشريحية للمقاصد والأهداف الاستشراقية، ويظهرها بالزي الحقيقي الذي يختفي تحت أثوابها الفضفاضة الزائفة. كون أن إدوارد سعيد ذو تركيب اجتماعي مزدوج غربي/ عربي، ويظهر ذلك في كل جوانب حياته وحتى في اسمه. فإدوارد" كلمة أعجمية" وسعيد "كلمة عربية". وهذا ما مكن الكاتب من الرؤية من زوايا مختلفة، واتسعت نظرته عن الموضوع من خلال تأثره بـ" ميشيل فوكو"إلى حد بعيد، ولكن ذلك لم يجرده من كونه عربيا يعيش المأساة مع مجتمعة العربي الفلسطيني، وقد أحدث كتاب الاستشراق ضجة أسالت الكثير من الحبر وجعلت النقاد الغربيين يردون بشراسة، وكأن مدونة "الاستشراق" جريمة تاريخية ارتكبها إدوارد سعيد في حق الغرب، ولكن ذلك لم يخمد جذوة الكتاب(الاستشراق) ، الذي مازال منذ أربعة عقود يعتبر مرجعا في حقل الاستشراق ككل، ولا يمكن الاستغناء عنه، أو تجاوزه في هذه الدراسات. لأن مضمون الكتاب لامس كينونة الشخصية الغربية في عمقها الثقافي الاستعماري، وفضح كبريائها مثبتا أن الاستشراق الامبريالي لم يكن بريء النوايا والمقاصد، وإنما كان الداعم الثقافي والمرجعية الفكرية للقوى الاحتلالية.

إذ أنه وضح الطريقة والكيفية التي يتم بها الهيمنة على المجتمع الشرقي من خلال تفكيك الهوية وزعزعة الشخصية العربية والقضاء على مقوماتها التي تستند إليها من دين ولغة وتاريخ وعادات وتقاليد.. ،واللافت للنظر أن إدوارد سعيد رغم كونه مسيحيا وأستاذا للأدب الإنجليزي المقارن، وقد تلقى تكوينه الأكاديمي في الجامعات الأمريكية، إلا أن كل ذلك لم يمنعه من الانتصار للقومية العربية والإسلامية.

وقد اشتغل في كتابه على تعريف الاستشراق وماهيته ودوافعه وأهدافه. وينظر في كتاب الاستشراق خلافا لكل المؤلفات في هذا الحقل على أنه لم يأت بجديد إلا من خلال القاموس اللغوي الخاص، وكثافة العبارات والتركيبات

المزجية التي ولدت اصطلاحات جديدة تواكب الحملة الفكرية التي شنها الكاتب ضد المستشرقين، وبالخصوص ذوي الايديولوجية الامبريالية – ومن جهة أخرى طريقة تناول الكتاب لحقل الاستشراق، وكيف تمت شرقنة الشرق وصناعته في المختبرات الغربية سواء البريطانية أوالأمريكية أو الفرنسية. ولم يغفل الكاتب المدارس الاستشراقية الأخرى، وإنما خصص جهده للمدارس ذات الخلفية الاستعمارية، " ليس كتاب إدوارد سعيد إذن دراسة للاستشراق بوصفه تاريخا وشخصيات وأحداث..، بل هو اكتناه صارم ومشبوب أحيانا، لكنه دائما على درجة مدهشة من حدة اللمعة الفكرية، ونفاذ الحدس وجوهرية التحليل لأسئلة حذريه في الثقافة والإنسان. أسئلة تدور حول مفاهيم " الحقيقة" و "التمثيل"، القوة وعلاقات القوة، وعي الذات والآخر. حول التصورات التي ينميها الإنسان لذاته وللعالم، والتمييزات التي يقيمها للذات وللآخر.."[1].

أي أن هذه الدراسة ليست وصفية على غرار ما سبقها من أبحاث في هذا الحيز ولكنها عملية تحليلية تفكيكية تعمل على استنباط الدلالات واستخراج الشيفرة من النصوص وربطها بالسياق التاريخي والمؤثرات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي أنتجنها، أو بعبارة الكاتب أنشأتها وأعادت بنائها استنادا على المنظور الغربي، ناهيك عن الخلفية العنصرية لهذا الآخر الذي درس الشرق كمادة وموضوع مختلف عنه تماما، وأعاد بناءه بالأسلوب والصيغة التي تروقه وتخدم مشروعه الامبريالي في الجغرافيا الشرقية و–الشرق أوسطية بالخصوص—بناء على الإنحيازية الأورو–أمريكية في الحكم على الآخر انطلاقا من الأنا.

كانت هذه التسمية الأخيرة صادرة عن مختبراتهم أي الغرب (الآخر) مع الذكر أن إدوارد سعيد اهتم بجانب الاستشراق من منطلق أن الغرب هو الذي صنعه وكونه أي "شرقنه"، لكنه لم يدل بشكل مباشر أن الغرب كذلك هو مادة وموضوع يمكن دراستها من طرف الآخر (هذا إلا إذا كان "الأنا" المدروس هو الغرب، فإن الآخر الدارس هو الشرق).

"يطرح إدوارد سعيد منظومة أساس هي أن الشرق " كيان مشكل مكون "، لا حقيقة من الحقائق الطبيعية،.. يبد أن ما لا يقرره كتاب سعيد بوضوح هو أن الغرب من المنطلق نفسه هو "كيان مشكل مكون"،

[1] – إدوارد سعيد، الاستشراق – المعرفة السلطة الإنشاء – ، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 2003،ص2.

أيضا ولا يحجب هذه الحقيقة سوى غياب منظور خارجي لمعاينة الغرب، وكون الغرب حتى الآن هو صاحب المنظور الفعلي الوحيد في دراسة ذاته"[1].

وهذا المقطع النصي موجود في مقدمة المترجم أي أنه تعقيب من زاوية نظر المترجم، ولكن المترجم نفسه أغفل أن سعيد إدوارد لا يريد من خلال كتابه أن يدفع بنا نحن أهل الشرق للقيام بردة فعل معاكسة اتجاه الغرب أي أن ننشأ ما يسمى " الاستغراب " جوابا على" الاستشراق " الذي صنعه الآخر.

وإذا كان الاستشراق كما عرفه سعيد في كتابه هو:" أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه"[2]. فلا يمكن بحال من الأحوال أن نعمل على تصويب الأغلاط انطلاقا من أغلاط أخرى تبدوا أنها نتيجة حتمية في نظر البعض. قياسا على ما درج من الأمثال التي توصي بمعالجة الداء بالداء.

وبالمفهوم السابق الذي يرفضه سعيد ويحذر منه كذلك حتى يتم الدفاع عن الشرق وحمايته من خطر الاستشراق يجب أن ننشأ الاستغراب للرد على الطرف الآخر (ثقافة المعاملة بالمثل).إن الآخر بخلفيته العنصرية والمتعالية يعطي لنفسه أحقية المركزية في تناول المواضيع سواء تلك التي تخصه بشكل مباشر أي تمخضت عن ذاته أو تلك التي تخص الآخر وماله من ميزات ثقافية ودينية وعرقية وجغرافية...مختلفة عنه (الأنا الغرب). كما يقول سعيد "فالاستشراق بما هو تجسيد لوعي نقدي ضدي غربي، ليس ظاهرة شرقية بمعنى أنه ليس عملا شرقيا يهاجم الغرب، وإنما هو تفجر من داخل الثقافة الغربية يمارس فاعليته على حيز من هذه الثقافة بطريقة جدلية ستؤدي في الأخير إلى إخصاب جديد لإستشراق من نمط جديد"[3].

[1] – إدوارد سعيد، الاستشراق (مقدمة المترجم)، مؤسسة الأبحاث العربية، ط6 ،2003 ،ص 6.

[2] – المرجع نفسه ص 39.

[3] – إدوارد سعيد، الاستشراق (مقدمة المترجم)، مؤسسة الأبحاث العربية،ط6، 2003، ص9.

ولنتأمل عبارة:"وعي نقدي ضدي غربي"، إن هذا الوعي النقدي لا يحمل على دراسة الآخر بمعطياته الموجودة فيه، وإبراز دعائمها وأسسها التي تستند عليها، ولو كان ذلك ما ذكر كلمة "ضدي" واكتفى بعبارة مختلفة أو مغايرة ولكن دلالة الضد تحمل في طياتها مفهوم "الصراع العدائيالغربي" للشرق ككل. والذي دفع إلى إعادة صياغة المفهوم الثقافي والحضاري الشرقي على الطريقة الأوروبية الأمريكية. "فقد كان الشرق تقريبا اختراعا غربيا ".

وانطلاقا من مفهوم ميشيل فوكو للإنشاء استطاع إدوارد سعيد أن يحدد دلالة الاستشراق،" ولقد وجدت استخدام ميشيل فوكو للإنشاء الكتابي كما يصفه في كتابه: علم آثار المعرفة وأدب وعاقب، ذا فائدة لتحديد هوية الاستشراق. فلم يكن بوسعنا أبدا أن نفهم الفرع المنظم تنظيما عاليا في حين استطاعت الثقافة الغربية أن تنشأه أي الشرق – بل حتى أن تنتجه سياسيا واجتماعيا وعسكريا وعقائديا وعلميا وتخيليا في مرحلة ما بعد عصر التنوير" [2]. والإنشاء من التنشئة وإعادة البناء حسب المتطلبات التي تخدم المشروع الاستعماري من تقييد للفكر الشرقي وخلق المعوقات التي تحول دون النهوض.

"إن الشرق بسبب "الاستشراق" لم يكن وليس موضوعا حرا للفكر"3، بل هو إذعان للفكر الوافد مع الاحتلال من أجل بسط النفوذ ماديا ومعنويا في ظل الثالوث الخطير " التنصير، الاستشراق، الاستعمار".

والمطلع على كتاب الاستشراق يرى أن الكاتب لا يؤرخ لحوادث وإنما يثير نقاط حساسة ويكشف دلالات وخلفيات دسيسة، ويركز الكاتب على الاستشراق البريطاني والفرنسي كقوتين إمبرياليتين استعملت الاستشراق – الذي تدعي أنه وصف ودراسة أكاديمية علمية وموضوعية قائمة بذاتها لا يمكن تجاوزها في مجال البحث العلمي–

لشرقنة المجتمع الشرقي حتى يواكب مشروعها كما أسلفنا. "والنقطة التي أثيرها هنا هي أن الاستشراق يشتق من علاقة تقارب خاصة قامت بين بريطانيا وفرنسا والشرق"[1]، ولا يقصد الكاتب أن يحصر الاستشراق في هاتين الدولتين ولكن أخذهما على سبيل المثال الذي يراه أكثر خدمة لكتابه "الاستشراق" "وينبغي القول فورا إنه على الرغم من العدد الوفير من الكتب والمؤلفين الذين أدرسهم، فثمة عدد أكبر بكثير اضطررت ببساطة أن أغفله"[2]. ولأن الكاتب له موضوع محدد لا يستطيع بحال من الأحوال أن يحوي في مخطوط واحد منظومتهالثقافية ككل استنادا على نظريات بعض المفكرين والفلاسفة من أمثال ميشيل فوكو، وأنطونيو غرامشي، وكارل ماركس وغيرهم من رواد الاستشراقية العالمية. وإنما اختار أكثر النصوص ملائمة وتأثيرا لتكون محل الدراسة في ضوء هذه الخلفية والمرجعية والايديولوجية .

يقول الكاتب: "إن الشرق ليس حقيقة خاملة من حقائق الطبيعة فهو ليس مجرد وجود ثمة بالضبط كما أن الغرب نفسه ليس مجرد وجود ثمة وينبغي أن تأخذ بجدية ملاحظة فيكو العظيمة: أن البشر يصنعون تاريخهم وأن ما بمقدورهم أن يعرفوه هو ما صنعوه، وأن نسحب هذه الملاحظة لتنطبق على الجغرافيا.."[3].

إن أهل الشرق صنعوا ثقافتهم الخاصة بهم والتي انعكست على سلوكهم الاجتماعي ولنأخذ الشرق الأوسط كنموذج: في فترة ما يسمى الجاهلية كانت الجزيرة العربية مكونة من مجموعة من القبائل العربية المتعايشة

والمرتحلة هنا وهناك في نجد والحجاز.. ، تحوطها مماليك الفرس والروم. ولم يكن لها آنذاك أي صيت يذكر حتى انتشر الإسلام الذي وحد البلاد العربية تحت راية دين واحد(الاسلام) ولغة واحدة (العربية) وحتى العرق كان موحدا أي أن التاريخ بدأ يسجل مرحلة غير معتادة من مراحل النهضة الحضارية التي تمخضت عن النهضة الثقافية، ولم تمض إلا حقبة تاريخية يسيرة حتى بدأت الجغرافيا ترسم حيزها الجديد في ظل الفتوحات الإسلامية شرقا إلى أقصى آسيا وغربا إلى الأندلس.

[1] – الاستشراق، مرجع سابق، ص39.

[2] – الاستشراق، مرجع سابق، ص40.

[3] – الاستشراق، مرجع سابق، ص40.

إن هذه الثقافة هي وليدة المجتمع الشرقي، وليست صناعة أو إنشاء وافدا من خلف البحار.. ،وبالمقابل فإن الغرب له تاريخه وقد مر بحقب وقرون كان الانحطاط والجهل يخيم على أوربا قبل اكتشاف أمريكا، ثم بدأت النهضة متعثرة وبطيئة.

واستندت في أسسها على المجتمع الشرقي في كثير من الأحيان (التكوين العلمي الغربي في الأندلس وجزيرة العرب)، ومن هناك بدأ الرقي الحضاري والغرب يدخل مراحله الجديدة في تاريخه والتي كسرت روتين الانحطاط أو- ما يسمى بعصور الظلام – الذي خيم حوالي ثمانية قرون من الزمن، هنالك. وبدأت الثورة الصناعية، وبالموازاة مع التحول التاريخي بدأ التوسع الجغرافي (اكتشاف أمريكا)، ومن جهة أخرى بدأ التوسع الاستيطاني باتجاه الشرق، بمعنى أن كل من المجتمع الشرقي أو الغربي هو كيان قائم بذاته، يستمد عناصره الوجودية من معينه ومواده الأولية التي صدرت منه، وتولدت عنه.

أما من ناحية شرقنة الشرق فهذا موضوع يقر بالقوة والسيطرة، التي ساقها الامبرياليون معهم من أجل صناعة الشرق حسب ما يريدون، وما يتوقعون، " لقد شرقن الشرق لا لمجرد أن أوربا اكتشفت أنه شرقي.. ، بل لأن الشرق كان قابلا لأن يجعل – أي يخضع لكونه – شرقيا "[1]. وهذا ما يذكرنا بمقولة (القابلية للاستعمار).

للأستاذ مالك بن نبي. مع الإشارة إلى أن الاستشراق لم يكن أبدا سردا للثقافة والعرف الشرقي أو فضولا يدفع لاكتشاف الآخر المختلف، أو كما يسميه المستشرقون "الغريب المدهش". وإنما له أبعاد ومساع أخرى، وهي تمييز هذا الغريب المدهش كما هو متداول عنهم تسمية الرجل الشرقي،عن الأوربي المتحضر والمتسيد(..هو مفهوم يحدد

[1] – الاستشراق، مرجع سابق، ص41.

هويتنا "نحن" الأوروبيين كنقيض لـ "أولئك" الذين ليسوا أوروبيين)[1]، من خلال هذا النص الأخير وخلافا للمفاهيم السابقة فإن الغرب يقر أن الاستشراق له دور آخر غير شرقنة الشرق وهو تمييز الغرب عن غيره

وليته كان تمييز اختلاف أو تنوع، وإنما القضية أن الغرب يرى نفسه ...من علوه على بقية المجتمعات ويدعي أن أوربا " قارة الله المختارة " أي أن تميزه امتياز وعلو وليس اختلاف وفوارق ثقافية وحضارية." لا يعتمد الاستشراق بطريقة ثابتة من أجل إستراتيجيته على هذا التفوق الموقعي المرن الذي يضع الغرب قي سلسلة كاملة من العلاقات المحتملة مع الشرق دون أن يفقده للحظة واحدة كونه نسبيا صاحب اليد العليا "[2].

أما الآخر " الشرقي"فهو التابع، ومكانه في المقاعد الخلفية، لأنه يفتقر للمؤهلات "غريب مدهش"، وتذكرنا هذه الجملة الأخيرة بعبارة طريفة في رواية الفقراء لدوستو بيفسكي: يتعين علي أن أقر بهذا ... " الإنسان كائن غريب في بعض الأحيان غريب ومدهش على نحو قوي.."[3].

وأستدرك فأقول أن دوستوييفسكيأجرى هذا الوصف على الإنسان عموما. وقد ترسخت الأفكار التسلطية في التكوين الأساسي للثقافة الغربية "، فكرة كون الهوية الأوروبية متفوقة بالمقارنة مع جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية وثمة بالإضافة إلى ذلك تسلط الأفكار الأوروبية عن الشرق التي تعيد بدورها تأكيد التفوق الأوروبي على التخلف الشرقي.."[4].وهذا النص الذي يتضمن الكبرياء والعنصرية، إضافة إلى المركزية في الحكم على "الأنا"، وعلى "الآخر". وضمنيا نستشف من النص أن الكبرياء الأوروبي يملي على "الآخر" التسليم بهذا، بمعنى أن يؤمن الآخر ويسلم بالمعطي الثقافي الغربي من حيث أنه منزه من الانتقاد الخارجي، فلا يمكن أن يكون موضوع دراسة

[1] – الاستشراق، مرجع سابق، ص42.

[2] – الاستشراق، المرجع السابق، ص42.

1 – ميخاييلوفيتش فيدور دوستوييفسكي، الفقراء، ترجمة أحمد الويزي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت– لبنان، ط1،2015،ص18.

[4] – الاستشراق، المرجع نفسه، ص42.

من أحد إلا من نفسه.ومن جهة أخرى هو من يدرس الآخر لأنه يملك الأحقية المركزية في ذلك، ويملك القوة، ولأن هذا الآخر غير مؤهل حتى لدراسةنفسه وإعطاء أحكام عليها لذلك عليه أن يتلقى ذاته وماهيته وموضوعه من الغرب "القابلية للإستشراق". وهذه الظروف نتجت عن سيطرة الغرب التي انتهزت ظروف الاختلال والتذبذب والضعف الذاتي الذي استشرى في الآخر(نحن)للأسف .

"إن الاكتناه التخيلي للأشياء الشرقية كان يقوم بصورة حصرية نوعا ما على وعي غربي ذي سيادة، برز من مركزيته التي لم يكن ثمة ما يتحداها في العالم الشرقي.. ،ومن يستطيع أن ينكر أنها كانت أفكار مشبعة بمذاهب التفوق الأوروبي وشتى أنواع العنصرية العرقية والامبريالية، وما إليها وبأفكار مذهبية جامدة عن الشرقي بوصفه تجريدا مثاليا ولا متغيرا."[1] إن هذا الفكر الشائع الذي ينظر إلى الشرقي بوصفه حاملا لكل جينات التخلف والانجراف والآفات لا يدل على حقيقة الموصوف بقدر ما يفضح خلفيات ومقاصد من يعرض هذا الوصف كما يقول الكاتب إدوارد سعيد الذي لخص في عبارة مقتضبة ما أشرنا إليه: " إن خوفيّ هما: التشويه، وغياب الدقة"[1]ولنقدم نموذجا ساقه فرانز فانون في كتابه(معذبو الأرض) يصف فيه المجتمع والفرد في عالم الشرق: ".. إن بلدة المستوطن هي بلدة الناس البيض الغرباء، أما البلدة التي تخص الشعب المستعمر، أو البلدة الوطنية على الأقل، بلدة السود، المدينة، البلدة الاحتياطية، فهي مكان سيء السمعة، مأهول برجال ذي صيت ذميم، إنهم مولودون هناك. أما أين وكيف ولدوا فأمران ينطويان على أهمية ضئيلة، كما أنهم يموتون هناك، وأما أين وكيف يموتون فأمران لا يخطران على بال، إنها عالم بلا أية سعة، إذ أن الناس تعيش بعضها فوق بعض، وأكواخهم مبنية بعضهم فوق بعض. فالبلدة الوطنية بلدة جائعة، تتضور جوعا، وتلهث خلف الرغيف واللحم والأحذية والفحم والنور، إن البلدة الوطنية قرية ذليلة جاثية على ركبتيها، بلدة تتمرغ بالوحل إنها بلدة السود والأعراب القذرين "[2].

[1] – الاستشراق، المرجع نفسه، ص43.

2 – فرانز فانون – معذبو الأرض – نقلا عن ادوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ – دمشق: اتحاد كتاب العرب،ص53-54.

ونلاحظ عبارة " بلدة احتياطيين " أي أن المستوطن أقامه صاحب النص مقام الأصل والأساس أما الوطنيون فهم سكان احتياطون رغم أنهم في بلدانهم الأصلية، ولا يهم أين وكيف ولدوا ولا أين وكيف ماتوا أو يموتون فهذا الأمر في نظر الكاتب،"ينطوي على أهمية ضئيلة"، وقضية الموت "لا تخطر على بال ". ونستشف من هذه العبارات سخرية ماكرة بالأعراف، والمراسيم الجنائزية الشرقية. ثم يقول "إنها- أي بلدة الوطنيين- بلا سعة ..." وهو يدرك تماما أن الجغرافيا الامبريالية هي التي خنقت الجغرافيا الوطنية مما نتج عنه:" الناس تعيش بعضها فوق بعض وأكواخهم مبنية بعضها فوق بعض".

ويستأنف الوصف ببلاغة ساخرة وحاقدة " البلدة الوطنية بلدة جائعة، تتضور جوعا تلهث خلف الرغيف.." ونطرح السؤال الانكاري في هذا الصدد : أليست هي الامبريالية الاقتصادية والهيمنة على وسائل الإنتاج والسلب والنهب الذي اقترفته الحكومات الغربية في حق المجتمعات البسيطة في الشرق؟. وأن ذلك الجوع هو نتيجة لسياسة التجويع؟. ويصف الكاتب البلدة الوطنية بالذل مستعملا كناية "جاثية على ركبتيها "، دلالة على الانهزامية وكناية "تتمرغ في الوحل" دلالة على الاستسلام والخنوع، ويحمل الوصف أخيرا في عبارة " إنها بلدة السود والأعراب القذرين ".(الضيق، الجوع، الذل، القذارة) هي النعوت التي يرى هذا الكاتب أنها تليق بالمجتمع الشرقي.

كما نلاحظ أن له (الكاتب) خيالا واسعا إلى درجة الهلوسة أو الوسوسة (الانحطاط).

ويتابع في نصه الوصف اللاذع لنظرة البلدة الوطنية (المحلية) والرجل الشرقي (الآخر) تجاه بلدة المستوطن والمستوطن نفسه فيقول: " إن النظرة التي تنظر بها البلدة الوطنية إلى بلدة المستوطن هي نظرة اشتهاء، نظرة حسد، ونظرة تعبر عن أحلام المواطن بالتملك وكل أنواع التملك: أن يجلس إلى طاولة المستوطن، أن ينام في سرير المستوطن، مع زوجته وإن كان بالإمكان، الإنسان المستعمر إنسان حسود، وهذا الشيء يعرفه المستوطن أتم المعرفة، فحين تلتقي نظرتهما يتأكد من ذلك بكل مرارة، ويبقى دائما مستنفرا للدفاع عن نفسه " إنهم يريدون أن يحتلوا مكاننا "

وهذا صحيح إذ ليس هناك من مواطن لا يحلم مرة واحدة في اليوم على الأقل من إحلال نفسه محل المستوطن" ويعقب ادوارد سعيد على هذا النص بقوله " وهكذا فليس من المستغرب أن يكون حل فرانز فانون لمثل هذه المحادثة هو العنف" والعنف دفاعا عن ما سلبوه " ويبقى دائما مستنفرا للدفاع عن نفسه: إنهم يريدون أن يحتلوا مكاننا ".[1]

إن الوطنيين يريدون أن يحتلوا مكان المستوطنين، المكان الذي كان مكانهم أصلا وسلبه المستوطنون، واسترجاع الحقوق تسمى احتلالا في عرف المستوطن أو المستشرق، وأبعد من ذلك يقول ادوارد سعيد في كتابه الثقافة والامبريالية تكملة لما بدأبه في (الاستشراق).

"..الأفارقة والآسيويون.. عربا وغير عرب- الذين كانوا دائما موضوع لعلم الإنسان (الأنتروبولوجيا) والسرديات الغربية، والنظريات التاريخية والتكهنات اللغوية، وكانوا في النصوص الثقافية الدليل السلبي على شتى أنواع الأفكار حول الشعوب الغير الأوروبية الأقل تطورا، التي ظلت جواهرها ثابتة رغم التاريخ"[2]

أي أن يلقى باللائمة جملة على كل ما هو خارج حيز "الأنا" الغربي وبالخصوص الآسيويين والأفارقة. يقول غاندي في كتابه: (حضارتهم وخلاصنا) ، واصفا الوضع والحالة اللامتجانسة " لقد انتصروا علينا فيالحروب وأفسدونا في فترات السلام، والذين أبوا أن يرضخوا هلكوا، والذين رضخوا مثلنا لاقوا حضا أسوء... لقد فرضوا علينا أن نعمل لصالحهم، ونحارب في ظل علمهم، لقد دفعونا للتخلي عن إيماننا ليحشوا رؤوسنا بأفكارهم وانتهوا

1 – فرانز فانون – معذبوا الأرض – نقلا عن إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ – دمشق: اتحاد كتاب العرب، ص53-54

[2]–إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، مكتبة بغداد، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان– ط.4– 2014.ص9.

بنا لأن نكون هم، وهكذا متنا من تلقاء أنفسنا ... المغلوبون هم نحن، نحن الشعوب الملونة، وسكانالجزر والغابات والجبال... نحن جميعا على الرغم من كل ما بيننا من تفاوت أنحنا رقابنا لنيل الاستعباد"[1].

" إن الاستشراق ليس مجرد موضوع أو ميدان سياسي ينعكس بصورة سلبية في الثقافة والبحث والمؤسسات، كما أنه ليس مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص حول الشرق، كما أنه ليس معبرا عن، وممثلا لمؤامرة إمبريالية (غربية) شنيعة لإبقاء العالم (الشرقي) حيث هو، بل إنه بالحري توزيع للوعي، إلى نصوص جمالية، وبحثية، واقتصادية، واجتماعية وتاريخية، وفقه لغوية، وهو إحكام لا تمييز جغرافي أساسي وحسب (يتألف من نصفين غير متساويين، شرق وغرب)، بل كذلك لسلسلة كاملة من المصالح التي لا يقوم الاستشراق بخلقها فقط، بل بالمحافظة عليها بالوسائل كالاكتشاف البحثي، والاستبناء فقه اللغوي، والتحليل النفسي، والوصف الطبيعي والاجتماعي. وهو إرادة بدلا من كونه تعبيرا عن إرادة معينة أو نية معينة لفهم ما هو بوضوح، عالم مختلف (أو بديل طارئ) والسيطرة عليه أحيانا والتلاعب به، بل حتى ضمه. وهو قبل كل شيء إنشاء ليس على الإطلاق على علاقة تطابقية مباشرة مع القوة السياسية في شكلها الخام ..."[2].ولنلاحظ عبارة " توزيع للوعي الجغراسي أي الجغرافي السياسي إلى نصوص جمالية .. وفقه لغوية " أي أن الجانب النظري للتوسع الإمبريالي في المنطقة، ومحاولة إحلال ثقافة دخيلة في شتى الميادين محل الثقافات الوطنية والمحلية.

وهذا ليس كل شيء، فالاستشراق ليس فقط " تمييز جغرافي وحسب " بل مصالح "معرفة" يخلقها الاستشراق "إنشاء" ويحافظ عليها "سلطة"[3] وهذه الثلاثية التي يستند عليها إدوارد سعيد في طرحه – المعرفة – السلطة – الإنشاء – لموضوعه القديم الجديد. وهو قديم كونه أسال كثيرا من الحبر، وجديد من حيث زاوية النظر وطريقة

2-المهاتما غاندي، حضارتهم وخلاصنا، تعريب نجدة هاجر/ سعيد الغز، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، أكتوبر1959، ص11، ص12.

[2] الاستشراق، السابق، ص46.

[3]المرجع نفسه ص46

الدراسة وكذا أدوات هذه الدراسة، إضافة إلى القاموس اللغوي الذي أخرجه المترجم في الكشاف المصطلحي،وبعد ما يذكر الكاتب أن الاستشراق الذي يعنيه هو تمييز جغراسي ومصالح مختلفة...كذلك هو إرادة لفهم ووعي "الآخر" (المختلف التابع) بهدف ترويضه واستعماله ضد نفسه بغية الإستفادة منه. ويواصل الكاتب

استرساله النصي ".. والاستنباء الفقه اللغوي والتحليل النفسي، والوصف الطبيعي والاجتماعي وإرادة، بدلا من كونه تعبيرا في إرادةمعينة أو نية معينة لفهم ما هو بوضوح (عالم مختلف) أو (بديل طارئ) والسيطرة عليه أحيانا والتلاعب به، بل حتى ضمه. وهو قبل كل شيء إنشاء ليس على الإطلاق علاقة تطابقية مباشرة مع القوة السياسية في شكلها الخام بل إنه لينتج ويوجد في وضع تفاعل غير متكافئ مع مختلف أنماط القوة، مكتسبا شكله إلى حد ما مع تفاعله مع القوة: – السياسية: الاستعمار، الإمبريالية، سلطة القوة الغربية وفرض التبعية."[1].

– الفكرية: التقدم العلمي في شتى الميادين " الألسنة المقارنة "، "علوم السياسة الحديثة ".

– الثقافية: الأديان والشرائع والمذاهب.

– الأخلاقية: التفاوت المتفوق في النظام السلوكي بين الغرب والشرق"[2].

ويريد الكاتب أن يؤكد على نقطة أساس في هذا المضمار لم تنل حضها من الدراسة الجادة وهي أين يقع الاستشراق من حيث مسافته مع الشرق ومع الغرب؟ فيقول " الاستشراق...أقل ارتباطا بالشرق منه بعالمنا نحن (الغرب)"، ويقول في موضع آخر: " لقد استجاب الاستشراق للثقافة التي أنتجته أكثر مما استجاب لموضوعه المزعوم الذي كان عضومن نتائج الغرب".[3]

[1] انظر المرجع السابق، ص47.
[2] انظر المرجع السابق، ص47.
[3] انظر المرجع السابق، ص47

ويقول إدوارد سعيد أن هدفه من الدراسة الاستشراقية لم يكن سردا تاريخيا وموسوعيا لأن ذلك لن يأتي بالفائدة المرجوة ولن يتعدى أن يكون مجرد تكرار للدراسات السابقة " لقد لي من الحمق أن أحاول إنجاز تاريخا من السرد الموسوعي للاستشراق"، لأن هذا العمل مستهلك وقد تداوله الكثير من الكتاب " ثمة أعمال موسوعية حول جوانب معينة من المواجهة الأوروبية الشرقية "[1].

وكما سبق وأن ذكرنا أن إدوارد سعيد قد حط ثقله في دراسة الاستشراق الإمبريالي بالخصوص " ولذلك كانت نقطة انطلاقي التجربة البريطانية والفرنسية والأمريكية للشرق"[2]

وهو يرى أن القوى الامبريالية كان لها بالغ الأثر في الحملة الاستشراقية مقارنة مع باقي المدارس الغربية المهتمة بعلوم الشرق وعلاوة على هذا فإن بريطانيا وفرنسا بالخصوص هما الإمبراطوريتان اللتان نالتا الحيز الأكبر من الدراسة. أما أمريكا فالتحقت بهما بعد الحرب العالمية الثانية وكان دورها عبارة عن ملء للفراغات الذي تركته حكومتي بريطانيا وفرنسا. فلقد اضطر أولا إلى التركيز بصرامة على المادة البريطانية الفرنسية. ثم في مرحلة لاحقة الأمريكية، ولماذا هذا التركيز الاضطراري يجيب الكاتب: " لأنه بدا صحيحا صحة لا مهرب منها، أن بريطانيا وفرنسا لم تكونا الأمتين الرائدتين في الشرق والدراسات الشرقية وحسب، بل إن هذه المواقع المتقدمة قد بلغت بفضل الشبكتين الاستعماريتين العظيمتين في تاريخ ما قبل القرن العشرين، وقد ملأالموقع الأمريكي الشرقي الفراغات التي تركتها القوتان الأوروبيتان السابقتان "[3]، ومن ناحية أخرى يوضح الكاتب الترتيب المتأخر لباقي المدارس الاستشراقية وهذا من الأسباب التي جعلت الكاتب يعطيها أهمية أقل وحيزا أصغر في كتاباته.

[1] انظر المرجع السابق، ص47

[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص55.

[3] الاستشراق، المرجع السابق، ص50.

" ثم إنني أؤمن بأني مجرد النوعية والاتساق اللذين تملكهما الكتابات البريطانية والفرنسية والأمريكية حول الشرق يسموان إلى مرتبة فوق العمل الحاسم دون شك والذي أنتج في ألمانيا وإيطاليا وروسيا وأمكنة أخرى"[1]، ولا يجرنا هذا القول إلى إلغاء أو تهميش بقية المدارس فلكل تأثيره وبصماته في شتى الحقول المعرفية إلا أن الاستشراق البريطاني – الفرنسي – الأمريكي، كان له الأثر الكبير لارتباطه المباشر بالاستعمار وبالمقابل فإن صاحب كتاب الاستشراق كما أنه ركز على مدارس استشراقية معينة كذلكومن جهة أخرى اهتم بجانب معين من الشرق (الشرق الأوسط) مع ذكره للشرق الأقصى بين الحين والآخر...أي أراد أن يضع كتابه في حيز شبه مغلق يتناول الاستشراق الامبريالي والمستعمرات العربية والإسلامية، وبصيغة أكثر دقة المستعمر البريطاني – الفرنسي والمستعمر شبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا.

وكأن الكاتب يريد أن يسوق معاناته وتجربته الخاصة لكونه شرقيا – كما يقول – قد عانى في الاستعمار مرتين الاستعمار البريطاني في فلسطين وفي مصر.

"إن معظم ما في هذه الدراسة من استثمار شخصي ليشتق من وعي كوني (شرقيا) نشأ طفلا في مستعمرتين بريطانيتين ولقد كانت دراستي في هاتين المستعمرتين (فلسطين ومصر)... فإن دراستي للاستشراق كانت محاولة لجرد تلك الآثار عليّ،"أنا" الموضوع الشرقي"[2]، ونضيف في هذا الصدد أن كون الكاتب شرقيا عاش في ظل الاستعمار البريطاني جعل نظرته إلى الاستعمار الفرنسي أقل وضوحا وغورا بحيث ترجح في كتاباته الرؤى الاستشراقية البريطانية التي يراها أشد وطئا وأبعد مدى وكذلك هي أقرب صلة بتجربته الحياتية الخاصة، إضافة إلى الاستعمار الأمريكي. مع العلم أن الكاتب من مغتربي الشرق في أمريكا.

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص51.

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص 51 .

ونلاحظ أن الطلاب العرب انكبوا على الجامعات الغربية المنتجة للاستشراق مما أدى إلى تأثرهم بأساتذتهم خلافا لصاحب الاستشراق الذي مرّ بذات المرحلة – وقد جنوا على العالم الشرقي وأبصروا – بعيون غربية هي عيون المدارس التي تخرجوا منها، "ذلك أن البعثات العلمية التي أرسلتها بعض البلدان إلى الجامعات الغربية ، جعلت من طلاب هذه البعثات بعد عودتهم إلى بلدانهم تلاميذ للمستشرقين وحاملي أفكارهم، مما أدى إلى استمرار التنسيق المعرفي السلبي للاستشراق "[1].

وأستدرك فأقول إن إدوارد سعيد لم يمر بهذه التجربة وحسب وإنما عاش بين ظهراني المجتمع الأمريكي، ودرس في الجامعات الأمريكية، ودرّس هناك أيضا. ورغم خلفيته المسيحية التي من المفترض أن تجرفه إلى أن يكون من أنصار الاستشراق باستحقاق.ويؤهله لذلك إلمامه بالجوانب والخلفيات والحيثيات التي غذت هذا المشروع الاستيطاني." الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق "[2].

وقسم الكاتب كتابه (الاستشراق) إلى فصول ثلاث وقد دعمه بنصوص ومعلومات ودراسات مختلفة المشارب والاتجاهات من تاريخ وجغرافيا وأنثروبولوجيا، ونقد أدبي، وأدب مقارن، وعلم نفس، وسوسيولوجيا.. ، وقد أشار الكاتب أن (الاستشراق) يفيد ويزود طلاب النقد الأدبي بمادة معرفية دسمة وثرية " فلطلاب الأدب والنقد، يقدم الاستشراق مثلا رائعا على العلاقات المتداخلة بين المجتمع والتاريخ والنصوصية، وعلاوة فإن الدور الثقافي الذي يلعبه الشرق في الغرب يربط بين الاستشراق والعقائدية.. ، وهي قضايا علائقية في اعتقادي للمجتمع الأدبي".[3]

وخطة صاحب الكتاب في صناعة مخطوطه "الاستشراق" لم تكن خاضعة للمنهج المتعارف الأكاديمي المألوف ولا مبني على طريقة متعارف عليها في مجال البحث العلمي، مما دفعنا إلى مسايرته بالأسلوب الذي رأيناه يتماشى مع محطات أفكاره، التي لا يمكننا القول أنها فقدت البوصلة، ولكن ربما أراد الكاتب لأفكاره (التحررية) وأن

[1] عبد الله محمد النعيم الأمين: الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (لا بلدة/1997)، ص 1.
[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص39.
[3] الاستشراق، المرجع السابق، ص57.

تتحرر من كل قيد أكاديمي قد يكون سببا في تطويق دلالاتها، أو الحد منها، أو ربما يريد الكاتب أن يصنع لكتابه منهجية خاصة.وذلك كسرا للروتين المستهلك. ومنه فإن الكاتب يذكر لنا بشكل مقتضب الخطوط العريضة (للاستشراق)، "ينطوي على الفصول الثلاثة الطويلة، والوحدات الإثني عشر الأقصر التي قسم عليها الكتاب كي تسهل العرض إلى أكبر درجة ممكنة.

يرسم الفصل الأول " مجال الاستشراق "دائرة كبيرة حول أبعاد الموضوع كله ، في إطار معطيات الزمن التاريخي

والتجربة التاريخية وفي إطار الموضوعات الفلسفية والسياسية في آن واحد، ويحاول في الفصل الثاني الموسوم ب:"البنى الاستشراقية والاستنباءات" أن يتتبع تطور الاستشراق الحديث عبر وصف تتابع زمني في خطوطه العريضة.ووصف طقم من الوسائل المشتركة بين أعمال الشعراء والفنانين والباحثين.

ويبدأ الفصل الثالث "الاستشراق الآن"حيث انتهى سابقه في مرحلة التوسيع الاستعماري العظيم في الشرق.ويحدد القسم الأخير من الفصل الثالث خصائص النقلة من التسلط البريطاني والفرنسي إلى التسلط الأمريكي". وفي مستهل الفصل الأول الموسوم بـ "مجال الاستشراق" يطرح الكاتب عينة من النصوص الاستشراقية على لسان صاحبها –بلفور– من أكبر ممثلي السلطة البريطانية في غمرة الاستيطان في دول الشرق "مصر"، ولعل صاحب الاستشراق يريد أن يسوق مثالا عايشه ولامس أبعاده وحيثياته، أو بتعبير أكثر دقة، الكاتب يرى نفسه أحد ضحايا هذه الحملة الإمبريالية على مصر (بلد المنشأ). ذلك أن عددا من أعضاء المجلس كانوا يتساءلون عن ضرورة وجود "إنجلترا في مصر"، وقد ألقى آرثر جيمس بلفور محاضرة في المجلس البريطاني، حول المشكلات التي ينبغي أن نعالجها في مصر، وقد علق إدوارد سعيد على نص آرثر جيمس بلفور:"يضفى على ملاحظات بلفور موضوعان عظيمان: المعرفة والقوة " وكأن هذان العنصران الأخيران لهما علاقة سببية – نحن نعرف حضارة مصر – يقول بلفور وكأنه يقدم هذه المعرفة على أساس أنها رخصة للسيطرة.

يقول إدوارد سعيد في هذا السياق: "...يبرر بلفور ضرورة الاحتلال البريطاني لمصر، يرتبط التفوق في ذهنه بمعرفتنا بمصر لا بالقوة العسكرية.. والمعرفة في رؤية بلفور تعني المسح الكامل لحضارة ما من أصولها الأولى إلى ذروتها وانحطاطها وتعني طبعا امتلاك القدرة على هذا المسح ، والمعرفة تعني الارتفاع فوق الآنية وأن نمتلك معرفة كهذه بموضوع كهذا هو أن نسيطر عليه، أن نمتلك السلطة عليه، والسلطة هنا تعني أن ننكر " نحن " الاستقلالية عليه — على البلد الشرقي – ما دمنا نحن نعرفه وما دام هو قائما بالمعنى الذي نعرفه..."[1].

إن جدلية المعرفة والسلطة متناسقة إلى درجة الانسجام الكلي حيث تصبح بنية متكاملة الأجزاء تخدم العرض العام لنص بلفور وإيديولوجيته، كأن القارئ لن يجد ما يضيفه أو ينفيه في خضم هذا التشابك الدلالي... "وهكذا فإن المعرفة البريطانية هي، وفي رؤية بلفور، مصر نفسها"[2]وبلفور في هذا الطرح يشرح مصر للمصريين والمجتمع الشرقي، وللعالم ككل. والمصريون بالخصوص أعجز من أن يحملوا صورة متكاملة الملامح عن أنفسهم وعن وطنهم خارج منظومة بلفور، ناهيك عن لغة الفوقية التي يخاطب بها. ولا ينكر بلفور في أي سياق (فوقية) بريطانيا، بل يعتبرها من المسلمات. ولا يكتفي صاحب الاستشراق بتفكيك دلالات السياق الخطابي لبلفور، بل يقدم وصف على لسانه(بلفور) يتضمن عواقب المعرفة:"..إن الأمم الغربية فور انبثاقها في التاريخ تظهر تباشير القدرة على حكم الذات"[3] هذا الشرق يقدمه بلفور إلى أمته على أساس أنها صاحبة سيادة واقتدار وكفاءة في التسيير الذاتي، وهذا خلافا للأمم الشرقية التي يراها دون ذلك. "ويمكنك أن تنظر إلى تاريخ الشرقيين بأكمله فيما يسمى، بشكل عام، المشرق دون أن ترى أثرا لحكم الذات على الإطلاق"[4]. ويقدم الحجج من التاريخ على ذلك "كل القرون العظيمة التي مرت على الشرقيين.. انقضت في ظل الطغيان.. لقد فاتح فاتحا، وتلك سيطرة سيطرة"[5]، وكل هذا التمادي هو مجرد

[1] الاستشراق، ص 58.
[2] أنظر الاستشراق، ص64.
[3] أنظر الاستشراق، ص64.
[4] أنظر الاستشراق، ص64.
[5] أنظر الاستشراق، ص64.

تمهيد يسوقنا بأسلوب شيق إلى نتيجة مذهلة هي سليلة هذا التدرج أو الاسترسال من مرحلة أو فكرة إلى أخرى، حيث يرى أنه هيّأ القارئ للاقتناع بما سلف ذكره مما يراه حقائق والقسم يريد أن يطرح البقية أو الشطر المتبقي من منظومته: " أهو خير لهذه الأمم العظيمة – وأنا أعترف بعظمتها – أن نقوم نحن بممارسة هذا النمط من الحكم المطلق.وفي ظني أن ذلك خير، وفي ظني أيضا أن التجربة تظهر أنهم في ظل هذا النمط عرفوا حكومة أفضل بمراحل مما عرفوه خلال تاريخ عالمهم الطويل، وإنها ليست مصدر نفع لهم فقط بل دون شك مصدر نفع للغرب المتحضر بأكمله... نحن في مصر لسنا من أجل المصريين وحسب .. ، نحن هناك أيضا من أجل أوروبا كلها "[1].

والمقطع الأخير قد بلغ فيه بلفور مقصده من حتمية الوضع الاستعماري البريطاني الذي ألبسه حلة الفاتح و" المنقذ من الظلال"، والذي أخرج الشعوب الشرقية من الظلمات إلى النور، "وحسن حظ " مصر هو الذي أهلها لأن تكون في كنف ورعاية إنجلترا. وإنجلترا تقوم بهذا الدور الرياديفي الأدمجة المصرية في عالم الحضارة والرقي دون أن تنتظر شكرا، أو اعترافامن أحدوإنما الدافع الإنساني للحكومة البريطانية،حيث يقول بلفور:"إذا كان عملنا هو أن نحكم، مع اعتراف بالجميل أو دون اعتراف، مع التذكر الحقيقي لكل الخسارة التي جنبناها للسكان.. ، ودون التخيل الساطع لكل الفوائد التي أغدقناها عليهم، إذا كان ذلك واجبنا... إن إنجلترا تصدر "أفضل ما لديها إطلاقا لهذه البلدان"، وهؤلاء الإداريون الذين ينذرون أنفسهم دون أنانية يقومون بأداء عملهم وسط عشرات الآلاف من الناس الذين ينتمون إلى عقيدة أخرى وعرق آخر وشروط حياة أخرى"[2].

ناهيك عن لغة الجمع المستعملة في النص والتي تشمل المجتمع الشرقي دون مراعاة للفروق الفردية، كما يضيف بلفور مبررا الدافع الذي حمل هؤلاء الإداريون – كما يسميهم في نصه – على العمل في الوسط الشرقي، مسبقا أرقى النعوت عليهم (ينذرون أنفسهم) وهو دلالة على مدى التضحية والتفاني في خدمة الأخر وعبارة

[1] المرجع نفسه ، ص65

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص65.

(دون أنانية) التي تلغي مفهوم العنصرية وتدل على الإنسانية في التعامل مع الآخر، وقد توسط نصه تركيبة لغوية مقتضبة تختزل وتحمل ما يريده، إن انجلترا قدمت أفضل ما لديها إطلاقا لهذه البلدان والدافع إلى هذا كله هو شعور بلفور بالمسؤولية الملقاة عليه اتجاه هذه البلدان التي يرى أنها في حاجه ماسة إلى خدمات هؤلاء الإداريين واستمراريتها مرهونة بالدعم الغربي."... وما يجعل عملهم في الحكم ممكنا هو إحساسهم بأن ثمة حكومة – تدعمهم وتقر ما يفعلونه "[1].

ويقول صاحب الاستشراق في هذا الشأن: "لا يقدم بلفور دليلا واحدا علي أن المصريين والأعراق التي تتعامل معها تنظر بتقدير أوبتفهم على الأقل، إلى الخير الذي يأتيها من الاحتلال الاستعماري"[2].

والكاتب يشير إلى الانسجام النصي والتناسق الدلالي الذي يجر النتائج الأولى لتكون أسبابا لنتائج تالية في تسلسل منطقي يقول عنه أنه (شيق)، كونه منسجما انسجاما تاما مع المقدمات المنطقية لخطبه كلها، وهذا الانسجام خوّل لبريطانيا أن تنتج مصر، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تكون هناك مصر خارج الخريطة الجغراسية (الجغرافية السياسية) لحكومة بلفور، فانجلترا تعرف مصر، ومصر هي ما تعرفه إنجلترا. هذا من حيث المفهوم أما من حيث نظام الحكموسياسة التسيير يضيف بلفوربهذا الشأن:" وانجلترا تعرف أن مصر لا يمكن أن يكون لها حكم ذاتي"[3]. إن مصر بالمفهوم البريطاني لا يمكن أن يتم تسييرها ذاتيا مما استدعى تدخل السلطات الانجليزية (اضطراريا) لإنقاذ الموقف واحتواء المصريين الذين باركوا هذه النجدة وأتموا في أحضانها، "وانجلترا توثق ذلك باحتلال مصر، وبالنسبة للمصريين فان مصر هي ما احتلته انجلترا وما تقوم الآن بحكمه، ولذلك فان الاحتلال الأجنبي يصبح الأساس الفعلي للحضارة المصرية المعاصرة، ومصر تطلب بل إنها تصر على الاحتلال البريطاني"[4].

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص65.

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص65.

[3] الاستشراق، مرجع سابق، ص66.

[4] الاستشراق، مرجع سابق، ص66.

ويوضح ادوارد سعيد أبعاد المنهج الاستشراقي الذي جناه بلفور خلال تجربته في مصر والشرق ككل وهذا الزخم الفكري هو عصارة قرن من الزمن في التعامل مع المستعمرات والمستشرقين. ويدعم هذا الطرح نموذج آخر هو أحد دعاة الفكر الامبريالي في الجغرافيا الشرقية، حيث يذكر "كرومر" في كتابه (مصر الحديثة) ملامح الشخصية الشرقية على لسان أحد المستشرقين يدعى "ألفرد لابل": إن الدقة كريهة بالنسبة للعقل الشرقي (وعلى كل إنسان أنجلو–هندي أن يتذكر هذا المبدأ الأساس). والافتقار إلى الدقة الذي يتحلل بسهولة ليصبح انعداماللحقيقة، هو في الواقع الخصومة الرئيسية للعقل الشرقي. الأوروبي ذو محاكمة عقلية دقيقة، وتقريره للحقائق خال من كل التباس، وهو منطقي مطبوع رغم أنه قد لا يكون درس المنطق وهو بطبعه شاك ويتطلب البرهان قبل أن يستطيع قبول حقيقة أي مقولة، ويعمل ذكاؤه المدرب مثل آلة ميكانيكية. أما العقل الشرقي فهو، على النقيض، مثل شوارع مدنهالجميلة صوريا، يفتقر بشكل بارز إلى التناظر، ومحاكمته العقلية من طبيعة مهلهلة إلى أقصى درجة، رغم أن العرب القدماء قد اكتسبوا بدرجة أعلى نسبيا علم الجدلية (الدياليكتيك) فإن أحفادهم يعانون بشكل لا مثيل له من ضعف ملكة المنطق.وغالبا ما يعجزون عن استخراج أكثر الاستنتاجات وضوحا من أبسط المقدمات التي قد يعترفون بصحتها بدءا. خذ على عاتقك أن تحصل على تقرير صريح للحقائق من مصري عادي وسيكون إيضاحه بشكل عام مسهبا، ومفتقرا للسلاسة. ومن المحتمل أن يناقض نفسه بضع مرات قبل أن ينهي قصته، وهو غالبا ينهار أمام أكثر عمليات التحقيق لينا"[1]. هذه الموازنة بين والأوروبي تبين الشرخ الفاصل والتفاوت البين ، كما يقول إدوارد سعيد مضيفا: " يظهر الشرقيون والعرب سذجا غافلين، محرومين، من الحيوية والقدرة على المبادرة... والشرقيون لا يستطيعون السير على الطريق أو الرصيف...عريقون في الكذب وهم كسالى وسيئو الظن ...على نقيض من الحرف لأنجلو – سكسوني في وضوحه، ومباشرته، ونبله "[2].

[1] الاستشراق، ص69- 70 -1

[2] الاستشراق، ص70.

هذه المقارنة المشحونة بتزكية العرق البريطاني على حساب الشرقي رغم إمعانها في الحظ من شأن هذا الأخير ليست بالأمر الغريب، ولا يمكن أن تنتظر غير ذلك أو أبعد من ذلك، لأن صاحب المقارنة ينتمي إلى الغرب وإلى المد الاستعماري، فهو يصف الإنسان في الغرب بصاحب المحاكمة العقلية الدقيقة، وبعيدا عن الخلط والالتباس وطبع منطقي، يتحقق من المعطيات قبل قبولها ذكي مثل الآلة الميكانيكية. بالمقابل فإن الإنسان الشرقي مجملا ودون مراعاة الفروق الفردية هو غير دقيق، ذو تركيب مائع مهلهل، غير متوازن، غير منطقي عاجز وثرثار متناقض وذو شخصية انهزامية، كأن المستشرق صاحب النص يريد وبالإجمال أن يبرز فوقيه الجنس الأبيض ودونية

العرق والجنس الملون كما سماه غاندي. لسبب واضح أن هؤلاء الشرقيين: " كونهم عرقا محكوما يسيطر عليه عرق آخر يعرفهم ويعرف ما هو خير لهم بأفضل مما يمكن لهم أن يعرفوا أنفسهم"[1]. ولا بأس في هذا المقام أن نطرح

الموضوع من زاوية أخرى زاوية نظر الشرقي الذي عاش في المجتمع البريطاني، وقام بدراسة ميدانية على الإنسان الغربي. وأول ما اكتشفه مهاتما غاندي لدى وصوله إلى لندن هو أن الانجليزي لا يزيد ولا يقل عن سواه. هذا الكائن ليس إلا إنسانا مثلنا، ويضيف غاندي الذي كان مثل بني جنسه – الشرقيين – يملى عليه أن الرجل الغربي يستحق الصدارة والفوقية: "حتى إنه إنسان ضعيف لطيف..ومضحك، قادر على أن يتأثر وتعتريه حمرة الخجل، كثير الأخطاء إلى درجة أنه يستحق العطف والشفقة"[2].

هذه الحقائق أدهشت النموذج الشرقي الذي عاين الغرب عن كثب وهو يطرح تساؤله الغريب والمدهش: "فما هي إذا العلاقة التي تربط الكائن الأبيض (الإنسان) بتلك الإمبراطوريات الرهيبة التي تلقي بظلالها على القارات والمحيطات؟.ثم يضيف ساخرا، هل في إمكاننا الاعتقاد أنه كلما كبرت الحضارة صغر المتحضر؟"[2] ، إن هذا التصوير الشائه الذي حمله الكتاب الغرب لم يكن دافعه سياسيا وحسب، أو حتى ثقافيا ودينيا، ولكن كان هناك جانب اقتصادي تجاري، إذن، كتب الاستشراق لاقت استحسانا، وكان عليها الطلب في الأسواق الغربية.والإنسان يجري وراء المفقود، لذلك رأى كثير من المستشرقين أن الغاية (الاستشراق) تبرر الوسيلة "الثراء"، وفي مقدمة المترجم محمد عنانيلكتاب (تغطية الإسلام) لإدوارد سعيد، يتم إبراز هذا الدور الاقتصادي والتجاري

[1] الاستشراق، ص66.

[2] مهاتما غاندي – حضارتهم و خلاصنا – منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت/لبنان-1959،ط.1،ص10.

الذي يغذي الطلب السوقي والمصلحة على حساب الحقيقة. "كتاب الاستشراق"، الكتاب الذي يقتصر في ظاهره على تقديم الكتاب الأوروبيين للصور التي تمثل الشرق (بحيث أدت إلى تكوين الصورة التي يريدونها للشرق والإصرار على صدقها بزعم أنها تمثل الحقيقة) .

ولنكتف بمثال واحد من ذلك الكتاب على منهجه، فهو يدلل بنماذج مفحمة على أن صور الشرق كانت "تباع" للغرب في ظل نظام اقتصادي يحكمه الربح المادي والفائدة المعنوية. فما يريده السوق يقدمه الكتاب سواء كانوا يكتبون كتابات عامة أو إبداعية أو علمية (مزعومة) . فالسوق يريد صور مكان غريب متخلف عن ركب الحضارة (خارج التاريخ) يسوده التفكير اللاعقلاني، وتسود فيه المتع الحسية وخصوصا الاستغراق في الملاذ الجنسية سواء كان ذلك مما يتفق مع الواقع كله أو يختلف عنه في بعض التفاصيل المهمة التي قد تغير من "حقيقة" الصورة".[1]

وفي هذا النص ، كما نلاحظ، علاقة وطيدة بين الصورة الشائهة للشرق، والتذوق الغربي عموما، أو نسبة المقروئية في العالم الأول. والمثال الذي ساقه صاحب الترجمة خير دليل. إذ يشير إلى الخصائص والعناصر التي تفتح الشهية للقراء الغرب، وكان الأمر قد بلغ من الطرافة أنه كلما أمعن مخيال الكاتب في التمثيلات، والتلاعبات في المعطى الشرقي كلما غض النظر عن الحقيقة، كما نرى في النص "..متخلف عن ركب الحضارة يسوده التفكير اللاعقلاني .. المتع الحسية، الاستغراق في الملاذ الجنسية ..." إذ أصبحت هذه الأفكار بضاعة رائجة يقتات منها تجار الاستشراق ومستهلكوه.إن صور الشرق كانت تبعا للغرب. إذن هذه الصور السوداوية عن المجتمع الشرقي – ومصر عينة منه – جعلت من أصحاب القرار المتسلطين من المستوطنين يرفضون أي فكرة للحكم الذاتيأو الاستقلال للعرق المحكوم بدعوى أن العروق المحكومة لا تمتلك في ذاتها القدرة على معرفة ما هو خير لها"[2].

كما وضح ذلك كرومر وبلفور وانطلاقا من هذه النقطة، فإنهما قد رسما علاقة خاصة عبّرا عنها بأسلوب لبق، يقول صاحب الاستشراق "وكان الملمح الآخر للعلاقات الشرقية – الأوروبية أن أوروبا كانت دائما في موضع القوة،

[1] إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة الدكتور محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، 2006، ص 18.

[2] الاستشراق، المرجع نفسه، ص69.

إن لم نقل السيطرة "، إذن هناك شرق لا يمكنه إدارة شؤونه بنفسه، وهناك غرب قوي ومسيطر استدعاه واجب المسؤولية أن يقوم بهذا الدور في الشرق اضطرارا.

ومن ناحية أخرى فإن اللغة المقنعّة والملطفة تصبغ خطابات الامبريالية على غرار عبارات بلفور" ..هذه الأمة العظيمة – وأنا أعترف بعظمتها " ويقصد مصر، كما يقول في موضع آخر:" كل القرون العظيمة التي مرت على الشرقيين ولقد كانت عظيمة جدا ". وهذا تمهيد لبق لمعطيات لاحقة تبرر نوع العلاقة بين الحاكم والمحكوم أي

(بريطانيا ومصر)، والنتائج "الباهرة" التي توصل إليها المجتمع الشرقي بفضل إنجلترا التي تعترف به كونه عنصرا مختلفا ولهميزاته وعالمه الخاص "منظم"، "كون الشرقي يعيش في عالم خاص به.. عالم له حدوده القومية، والثقافية، والمعرفية، وله مبادئ انسجامه الداخلي الخاص به " هذه التوطئة والمقدمات هي مجرد تسويق إلى المعنى المراد: "إلا أن ما أضفى على العالم الشرقي وضوحه وهويته لم يكن نتيجة لمجهوده الخاص".وهنا تكمن قيمة العلاقة – كما يتحدث سعيد عن مقاصد الاستشراق من خلال استنطاق نصوص كرومر وبلفور "..لم يكن نتيجة لجهوده الخاصة بل كان السلسلة المعقدة القابلة للمعرفة من سبل التحكم والتأثير التي عن طريقها حدد الغرب هوية الشرق وميّزه"[1]. ومن أجل رسم ملامح أكثر وضوحا عن توحيد العلاقة الثقافية بين الجانبين الغربي والشرقي يقول إدوارد سعيد عن نظرة كرومر وبلفور وفي لغة كرومر وبلفور يقدم الشرقي في صوره :

1- شيء يحاكمه المرء (كما في محكمة العدل).

2- شيء يدرسه المرء ويصوره (كما في خطة دراسية).

3- شيء يؤدبه المرء (كما في المدرسة أو السجن).

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص69.

4- شيء يوضحه المرء ويمثل عليه (كما في دليل وجيز في علم الحيوان).[1]

هذا التحليل التراثي يصف الشرقي بأنه "شيء" بدل "إنسان" ويعمل على تشريحه وإقامة التجارب عليه على طريقة التجارب المخبرية للحيوان والنبات .

وفي كل المراحل والحالات يبقى الشرقي "كونه شيء" بدون ردة فعل أو استجابة، وإنما يخول كل أموره إلى حاكميه الغربيين."والنقطة المثارة هنا أن الشرقي في كل من هذه الحالات يحتوى ويمثل بأطر طاغية[2].والاحتواء يكون من مختلف الزوايا كما يوضح الترتيب أعلاه، كما أن التمثيل هو التلاعب وتقمص الأدوار والصفات والحالات والبروز في صورة المنقذ والمخلص الذي يقع على عاتقه مهمة النجدة والإسعاف. ويضيف سعيد أن هذه العمليات كلها وضّفت بأساليب واستعمالات "طاغية" متجبرة تنم على الكبرياء والغرور الغربي، الذي يرى أحقيته في معالجة أو صناعة أو إنشاء، أو استبناء الشرق، "..كما قد نما افتراض بأن الشرق وكل ما فيه بحاجة إلى دراسة تصحيحه من الغرب، هذا إذا لم يكن بوضوح مطلق أدنى منزلة منه ".[3]

وأول خطوات المرحلة التصحيحية، أو العملية هو الانصياع وتنفيذ الأوامر بطريقة انقيادية أوتوماتيكية آلية، أو حتى حيوانية، كما توضح العبارة التي ساقها سعيد وسماها " سلسلة القيادة الخفية "،وهذه العبارة مجتزأة من نصوص أحد المستشرقين:" بغل، حصان، فيل، عجل، يطيع سائقه، والسائق العريف، والعريف الملازم، والملازم النقيب، والنقيب الرائد، والرائد المقدم، والمقدم العميد آمر وحدته، والعميد اللواء يطيع نائب الملكة وهو خادم الإمبراطورة ".[4]

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص71.
[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص71.
[3] الاستشراق، مرجع سابق، ص71.
[4] الاستشراق، مرجع سابق، ص76.

فهو"ينقذ إقليما من بربريته الحاضرة ويعيده إلى عظمته الكلاسيكية الممجدة، أن يلقن الشرق (لمصلحته هو) طرائق الغرب الحديث.."[1] تدجينا له. والمراد هو إعادة صياغة هذا الشرق الموسوم بالبربرية والهمجية حسب المعطى الغربيالذي يدعي رد المشرق لأصوله الثقافية الأولى التي يراها لائقة به وبمشروعه الامبريالي، ويلقنه تعاليم الحضارة الأوروبيةالحديثة وما تحمله من إباحية وثقافة كنسية وعنصرية... ، ولكن الطريقة التي انتهجها نابليون هي طريقة

التثقيف بالدرجة الأولى (الغزو الثقافي) ، كما أنه أخر القوة العسكرية، بسبب أن حجم الوجود الفرنسي المسلح هناك لم يكن كافيا لاحتواء الزخم الجماهيري في مصر، مما استدعى ترجيح القوة الفكرية، التي تستطيع استيعاب الشعوب خاصة إذا كان لها دعم من الداخل. وقد أسلفنا أن نابليون استعان بالقضاة والأئمة وأعيان البلاد، لإخضاع البلاد والسيطرة عليها بأيسر الطرق، وأخف التكاليف، ومنه أن تكون عملية الاحتلال أشبه بالفتح المبارك الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. وذلك عن طريق إضفاء هالة من القداسة على البرنامج الاستعماري وممثليه.كما لاحظنا في قول فيكتور هوجو الذي شبه نابليون بعد أن أسبغ عليه تمائم الجلال والعظمة بالنبي "محمد صلى الله عليه وسلم"، وبأن المجتمع المصري كان في أمس الحاجة إلى هذا الفتح العظيم الذي باركه كبراء وممثلي مصر." أن يحل القوة العسكرية محلا أدنى أو يقلل من أهمية دورها تعظيما لمشروع المعرفة الممجدة التي اكتسبت أثناء عملية السيطرة السياسية على الشرق، أن يصوغ الشرق، أن يعطيه شكلا، وهوية..،وبأهميته الإستراتيجية الإمبراطورية، ودوره "الطبيعي"من حيث هو ملحق لأوروبا .."[2].

هذه الهوية الهمجية المكتسبة من طرف الغرب للشرق، والتي تحدد الملامح الجديدة للشخصية الشرقية وفق الإنشاء الغربي، و تحمل في طياتها روح التبعية والانقياد للمستعمر، دون أن تصل إلى درجة الانتماء، أي الشرق عليه أن يكون منقادا وتابعا "مخلصا" للغرب، وبالمقابل عليه أن يتذكر دائما، ويضع في اعتباره أن انقياده وتبعيته

[1] الاستشراق، نقلا عن مقال للدكتورة مديحة عتيق، ما بعد الكولونيالية مفهومها أعلامها أطروحاتها، جامعة سوق أهراس 07مارس 2015.
[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص111-112.

لا تعني انتماءهإليه(الغرب) أبدا.فالشرق يبقى في جيناته الأجنبية رغم خضوعه، وعبوديته للجنس الأبيض لأنه موضوع في خانة(الغريب المدهش، الملون، الذي له أنف أقل طولا).وأن يكون موضوعا لأقلام وكتابات الباحثين الغرب، يتم تشريحه مخبريا، وإقامة التجارب عليه مهما كانت نتائجها.. ، وليس بالضرورة أن يكون طرفا للتشاور فهو غير مؤهل لذلك، وإنما هو مجرد موضوع يلهم المستشرقين والباحثين والكتاب الغرب للاهتمام بعالم الشرقخدمةلبلدانهم حتى يتيسر الاستيلاء على الأرض والثروات. " أن يحل المعرفة المجمعة خلال الاحتلال الاستعماري ويشرفها بتسميتها (إسهاما في نمو المعرفة الحديثة) في حين لم يكن السكان الأصليون قد استشيروا أو عوملوا إلا بوصفهم ذريعة لخلق نص لا تعود الفائدة منه على السكان الأصليين[1]".

بل أن يكون المحور في هذه العملية هو رجل الغرب الأوروبي بحيث يؤسس وينظم ويضيف ويحذف...حسب المتطلب الإمبريالي "أن يشعر المرء بنفسه أوروبيا في مركز القيادة، كيف شاء تقريبا، للتاريخ الشرقي، وللزمن الشرقي، والجغرافيا الشرقية، أن يؤسس مجالات جديدة للتخصص، أن ينشئ فروعا جديدة للمعرفة أن يقسم ويوزع ويخطط ويجدول ويصنف مؤشرات، ...أن يشكل من كل جزئية تلاحظ تعميما، ومن كل تعميم قانونا لا يتغير للطبيعة الشرقية والمزاج الشرقي والعقلية الشرقية، والنمط الشرقي لكن، وفوق كل شيء أن يحول الواقع الحي إلى نصوص"[2]. كأنه بهذا يوحي إلى المجتمع الغربي بعدم الجدوى من المعاشرة الميدانية للمجتمع الشرقي والبديل هو قراءة نصوص الكتاب والمستشرقين الذين يملكون الدراية الكافية أو الشاملة بمكونات وماهية الشرق، أي أنه يتوجب أن ينظر الغرب إلى الشرق بعيون الاستشراق (الامبريالي)، والأمر لا يقتصر على هذا لأن الواجب لا يتوقف عند الغرب وحسب، بل يجب على الشرق ذاته أن ينظر إلى نفسه من خلال المرآة الاستشراقية،فيتبنى ما يكتبه الاستشراق عنه، لا ما يعرفه هو عن نفسه. لأنه غير مؤهل أوناضج إلى مستوى دراسة الذات والإلمام بماهيتها. وينوب عنه في هذه المهام، المعطى الغربي الدارس للشرق والمنشئ له." فالاستشراق قد

[1] الاستشراق، مرجع سابق،ص 112.

[2]الاستشراق، مرجع سابق،ص 120.

طغى على الشرق وأثقله، فمن حيث هو نظام من الأفكار حول الشرق، ارتقى الاستشراق دائما من الجزئية الإنسانية الخاصة إلى العام المتجاوز للإنسان"[2].

وهكذا كان الإسقاط الجزئي على الكل حيث يكتفي الدارس الغربي بتحليل عينة (جزئية) ليعمم نتائجها على كل المجتمع الشرقي. حيث يصور لنا هذا المجتمع بأنه مجرد نسخ متكررة من نتائج تجربته التي قام بها على الجزئية محل بالدراسة. فلا جدوى من تناول جزيئات أخرى في أماكن أو أزمنة مختلفة لأن النتائج ستكون متطابقة وثابتة في كل الحالات، رغم أن الدراسات الاستشراقية في حد ذاتها غير متناسقة وغير متوافقة ومختلفة من مدرسة لأخرى ومن دارس لآخر، ويعمل المستشرقون على فرض هذه القاعدة العامة التي تنص على هذه الصورة الزائفة الباهتة عن الشرق " ليس الشرق كما هو، بل الشرق كما شرقن" [1]، والشرقنة لها وجهان: "وثمة قوس متصل دون انكسار من المعرفة والقوة يربط رجل الدولة الغربي أو الأوروبي بالمستشرق الغربي"[2]، والمعرفة هي الزخم الاستشراقي والكتابات والدراسات حول عالم الشرق، أما القوة فهي اليد الامبريالية التي تقوم بعملية التجسيد الميداني لأفكار المستشرقين على أرض الشرق، وصناعة هذا العالم الذي يقع تحت سيطرتها حسب رغبتهااستجابة لشراهة الشخصية الغربية."وقد تطابق مجال الاستشراق بدقة مع الإمبراطورية وكانت هذه التوحدية المطلقة بين الاثنين ما أثار الأزمة الوحيدة في تاريخ التفكير الغربي بالشرق"[3]. ثم أن الغرب من منظوره يرى من حقهأن يستفيد من الثروة الشرقية أو يمتلكها بأي طريقة أرادها، لأنه يمتلك في ذاته خاصية الإنسان (الجنس الأبيض) على خلاف ذلك الأجنبي. فرجل الغرب عقلاني موضوعي متحضر ومؤهل لتسيير الآخر، خاصة إذا كان هذا الآخر هو الشرق، ويرى أن هذا الامتلاك حق شرعيوليس سلبا أو نهبا. أي عدم امتلاكه لثروات الشرق هو إهدار لهذه الثروات وإتلاف لها، لأنها إذا بقيت ملكا للغريب الأجنبي من أصحاب الأرض، أو السكان الأصليين فإنهم سيسيئون استغلال هذه الثروات.

وتقوم بينهم صراعات واعتداءات داخلية ويحتكر بعضهم موارد هذه الثروة على حساب البقية مما يخلق اختلال عام ناتج عن عدم أهلية الشرق لاستغلال خيرات بلدانهم نتيجة محدودية ذهنياتهم وقدراتهم (الغريب المدهش).

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص128.

[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص128.

[3] الاستشراق، المرجع السابق، ص128.

الاستغلال المناسب لترقية المجتمع الامبريالي" فالعرب مثلا، يصورون –على أنهم– راكبي جمال، إرهابيين معقوفي الأنوف، شهوانيين، وثمة دائما افتراض متربص بأن المستهلك الغربي، رغم أنه ينتمي إلى أقلية عددية، ذو حق شرعي إما في امتلاك معظم الموارد الطبيعية في العالم أو في استهلاكها (أو في كليهما)"[1].

ويطرح الكاتب التساؤل عن هذا النمط المتضارب من طرحهم والذي يشير فيه إلى أقلية أجنبية تحكم أغلبية خاضعة من السكان الأصليين وتتيح هذه الأقلية لنفسها التصرف في الموارد المحلية – لفائدتها هي دون مراعاة أو إشراك أصحاب هذه الممتلكات..." لماذا؟ – لأنه – الغربي بخلاف الشرقي إنسان حق وليس ثمة مثل أفضل اليوم على ما أسماه أنور عبد المالك: "تسلط الأقليات المالكة"[2].

والمركزية الإنسانية متحالفة مع المركزية الأوروبية، من الحالة التالية:

" إن غريبا أبيض ينتمي إلى الطبقة الوسطى يؤمن بأنه امتياز طبيعي له لا أن يدير شؤون العالم غير الأبيض وحسب، بل يمتلكه كذلك لمجرد أن العالم الأخير، تحديدا ليس بالضبط وإنسانيا تماما بقدر ما "نحن" كذلك"[3] ونحن هذه تعود على الرجل الأوروبي الذي يرى أن المقابل له "الشرقي" غير إنساني بالضبط وهو عالة على الإنسانية دفعت الأوروبي الذي قام بتسيير شؤونه هو أن يتعدى ذلك إلى تسيير شؤون الآخر – الشرقي خاصة.

- **مركزية الاستشراق الأوروبي:**

وجل كتابات الغرب إن لم نقل كلها تضع أوروبا موضع الشرطي الذي ينظم العلاقات أو السير في بقية الأماكن في العالم بما يخدم مآربه، وهذا ما يبعث على السيطرة والهيمنة من خلال هاته المركزية التي نصبت أوروبا نفسها بنفسها فيها حيث لا ترى الصواب خارج منظورها الإمبريالي ذي النظرة المتعالية، والفوقية التي تضع ما هو خارج

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص131.
[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص 131
[3] الاستشراق، المرجع السابق، ص 131

أوروبا موضع التابع والملحق،وبالخصوص إذا كان ينتمي إلى الشرق. سواء الأدنى أي الشرق العربي، أو الأقصى ، أي آسيا وشبه الجزيرة المنغولية " كان الشرق الآن يوسع ويمد إلى مدى بعيد خارج نطاق العالم الإسلامي ..لكن جميع هذه الآفاق المتزايدة اتساعا كانت تضع أوروبا في المركز الامتيازي،..بصفتها مركز المراقبة العالمي كما في كتاب غولد سميث (مواطن العالم). ذلك أنه حتى حيث تحركت أوروبا باتجاه الخارج، كان إحساسها بالقوة الثقافية يزداد تدعيميا..." [1]، وإذا كانت أوروبا تأخذ المركزية من العالم، فإن المستشرق يجد دوره يعمل على أن يكون عضوا مهما، "بطلا"، في هذه العملية البحثية، من أجل إكتناه غور، وفك شفرات هذا العالم الغائر، الذي يسمونه الشرق، " كان المستشرق الحديث، في نظر نفسه بطلا، ينقذ الشرق من مطاوي الإبهام، والاغتراب والغرابة التي كان هو ذاته قد ميزها تميزا سليما، وقد أعادت أبحاثه بناء لغات الشرق الضائعة، وعاداته بل حتى عقلياته، وتقنيات المستشرق المحددة، المعجمية- النحو، الترجمة، فك الرمز، الثقافي.."[2]. وكان المستشرق من أجل ذلك، يتعلم اللغات الشرقية، وآلياتها وقواعدها، والقاموس المعجمي الملم بدلالاتها وحيثياتها، حتى يتسنى له الإحاطة بالمعطيات التي تخدم مشروعه الاستشراقي. فالنحو والمعجمية وحتى البلاغة والنصوص الأدبية والدينية والتاريخية، كلها مواد دسمة يقتات منها الباحث في هذا المجال إلى درجة التطابق، أي أن يصبح فكر المستشرق محاكيا للفكر الشرقي، ومحتوياته، بشرط أن لا يكون العكس. فالباحث يصف الشرق ويدرسه ويدون الملاحظات عنه، لأنه مقتدر وكفء وراشد ومؤهل، أما الشرق وأهل الشرق، فمحدودو القدرات و وهم في قصور تام عن دراسة أنفسهم ناهيك عن محاولتهم دراسة الغرب. " يستطيع المستشرق أن يقلد الشرق دون أن يكون العكس صحيحا، ولذلك ينبغي فهم ما يقوله عن الشرق، باعتباره واصفا اكتسب في عملية تبادل وحيدة الاتجاه، ففيما كانوا هم يتحدثون ويتصرفون كان هو يلاحظ ويدون، وكانت قوته كامنة في كونه وجد بينهم كمتحدث أصيل باللغة، على سبيل القول، وككاتب سري أيضا، وكان ما كتبه مقصودا له أن يكون معرفة مفيدة لا لهم، بل لأوروبا

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص140.

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص140.

ومؤسساتها المتنوعة القائمة بنشر المعرفة"[1]. وهذا المستشرق الذي حط رحاله في عالم الشرق لم يكن في نيته النهوض بهذا المضيف الرحب، والمرحاب، وإنما المهام محددة في جمع ما يمكن جمعه من آثار الشرق لدراسته، ومعرفة نقاط قوته، ومكامن العطب فيه،كي يتيسر استغلالها من أجلالغرب. فيتم تشريحها وإعطاء خريطة الطريق لإفساح المجال للقوة الإمبريالية، التي تحتاج إلى توضيح ، (دراسة العدو المراد محاربته، والسيطرة عليه) من أجل تسهيل احتلاله واحتوائه، "المعرفة مفيدة لا لهم بل لأوروبا "[2]، وقد يحوي النص الآتي عصارة النتائج التي وصلت إليها الحملة الاستشراقية، ومدى شراسة النصوص المتناولة لهذه المواضيع، التي لم تترك مجالا إلا توسعت فيه، ودرست الجزئيات والكليات، من زوايا متعددة إن لم نقل محيطة، وهذا ما جعل من العسير الخروج من بوتقة الكتابة، والبحث الغربي عن السكان الأصليين من أهل الشرق، "فالاستشراق من جهة أولى حصل على الشرق إلى أقصى درجة ممكنة من الحرفية والشمول، ومن جهة أخرى فقد دجن الاستشراق هذه المعرفة للغرب، مكررا إياها وناقلا لها عبر أنظمة ترميز مقننة، وتصنيفات وحالات من العينات، ومراجعات مرحلية، ومعاجم، وكتب ونحو، وتعليقات، وتحريرات، وترجمات، شكلت جميعها مصورة للشرق. وأعادت إنتاجه ماديا في الغرب من أجل الغرب...".[3]

والمشكل هو الليونة، والقابلية للتحويل من طرف الشرق، وهذا ما جعله طيعا يتم إنشاؤه حسب الطلب، وترويضه من أجل إشباع أغراض جهات أجنبية دخيلة. وذلك دون مقاومة من الشرق، أو صمود إلى درجة الحسرة، " وكان الشرق بإيجاز ، قابلا للتحويل من الشهادة الشخصية، والمشوهة أحيانا للرحالة، وللمقيمين الجسورين في الشرق، إلى تحديدات لا شخصية عبر أفواج كاملة من المشتغلين بالعلم"، وسيعاد تحويل الشرق، ويعاد تشكيل بنيته من حزم الثغرات التي يعود بها شيئا فشيئا المستكشفون، والحملات والبعثات، والجيوش

[1] الاستشراق، كمال أبو ديب، ص176.

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص181،ص182

[3] .الاستشراق، كمال أبو ديب، ص179

والتجار، إلى معنى إستشراقي معجماتي..،مقسم إلى مقصورات ومنصص، ومع أواسط القرن التاسع عشر كان الشرق قد أصبح كما قال دزرائيلي صنعة لا يستطيع فيها المرء أن يرمم الشرق ويعيد صنعه وحسب بل أن يرمم نفسه وأن يعيد صنعها كذلك "[1]، وإن أفضنا في تحليل المفهوم الشرقي عن الأوروبيين فنحن نريد بذلك تناول الموضوع من مختلف أبعاده والإحاطة بأهم الدراسات الاستشراقية التي عالجها إدوارد سعيد في نصه أو كتابه < الاستشراق> وكذا رؤية مختلف الأفكار المتعددة المصادر، فالمستشرقون إن كانوا يتفقون في الخطوط العريضة للمشروع محل البحث إلا أنهم ينفردون ببعض الخاصيات الذاتية فمنهم الموضوعي إلى حد ما –وهم قلة– ومنهم من يمعن في تفكيك الشرق والثقافة الشرقية وإعادة بنائها أو صياغتها أو إنشائها. وتكثر النصوص الأدبية من شعر ورواية ومسرحية والتي تحوي أو تطال عالم الشرق من حيث جغرافيته وتاريخه وشخصياته وشتى نواحي حياته حيث أمعن بعض أو كثير من الأدباء الغرب في تصوير الشخصية الشرقية (الغريب المدهش) خاصة إذا كانت هذه الشخصية من الشرق العربي الإسلامي... فكثيرا ما يصور هؤلاء الكتاب شخوصهم الروائية بأنهم منافقون ممثلون مخادعون أشرار يتظاهرون بالنزاهة... إلى غير ذلك من الصفات الدنيئة، وكتاب الاستشراق يحوي زخما من هذه النماذج التي ترسم شخصيات خرافية بأسماء مستعارة أولها مكانتها في الثقافة الشرقية".[2]

على غرار " صلاح الدين، ابن رشد، الحلاج، ابن سينا، وأخيرا شخصية الرسول الأعظم سيد البشرية محمد صل الله عليه وسلم" (ماهومت) كما يدعى في الثقافة الاستشراقية والغربية "، أو أحمد في بعض المصادر، ومما يدعوا إلى الاستغراب هو صناعة صور مشوهة عن المسلم من حيث الشعائر التعبدية التي يقدمها المؤلف في شكل خزعبلات أو ترانيم أشبه بتمتمات السحرة وطقوسهم. وأن المسلم منافق يتظاهر بالطهر والصلاة،وهو في الحقيقة "منتحل"انتحل صفته من الديانات السماوية السابقة، خاصة المسيحية، كأن المسلم مقلد أعمى للمسيحي، وهو في الوقت نفسه منافق، أي يتظاهر فقط بالالتزام. والتزامه بنظام الصلوات والشعائر الإسلامية، ولكنه لا يؤمن بها

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص182

[2] الاستشراق، كمال أبو ديب، ص176

حقا، لأنه يدرك أنها مجرد اقتباسات من الثقافات الغابرة ليس إلا، والمقتبس الأكبر- كما يدعون – هو محمد رسول الله –حاشاه–صلى الله عليه وسلم:" تمزيق الدراويش وتقطيعهم لأنفسهم، قسوة القضاة الوحشية، مزج الدين بالإباحية لدى المسلمين، إفراط الثبوت الجنسي..."[1].

ويأتي المستشرق "إدوارد وليم لين" بمقاربته الثقافية في إحدى رواياته ليصور لنا حالة الفوضى التي تطال المجتمع المصري و"..مناقشة الجانب الحميم للحياة البيئية، ووعليه فورا أن يقدم مسردا للزواج ومراسيمه، وكالعادة فإن المسرد يبدأ بملاحظة عامة أن يعزف المرء عن الزواج وقد بلغ عمرا ملائما وليس ثمة عائق حق، وهو في عرف المصريين شيء غير لائق، بل قد يكون مشينا "[2]، " وهكذا يسرد في مقطع طويل الضغوط التي يتعرض لها لكي يتزوج والتي يقاومها دون تردد... وأخيرا وبعد أن يعرض عليه صديق محلي حتى أن يقوم بترتيب زواج متعة له"[3].

ويسوق إدوارد سعيد نماذج أخرى من نصوص هؤلاء المستشرقين الذين يعنون بالتاريخ الإسلامي والحروب الصليبية والصراعات الطويلة – الغابرة – بين الغرب و العالم الشرقي تحت مختلف الرايات الدينية والاديولوجية

ليبين أن الهدف من تلك الخلافات لم تكن في حدود الضدية والصراع الحربي، وإنما كانت لها أبعاد أخرى أعمق وأوسع أفقا "وقد حابه المرء في كل مكان الشرقيين، عربا كانت حضارتهم، وديانتهم، ومسالكهم من الانحطاط، والبربرية، والضدية (للحضارة الأوروبية)، بحيث أنها استحقت الغزو من جديد"[4].

لقد اعتبر المستشرقون البربرية والضدية العربية مبررا للاحتلال من طرف الغرب، ثم أنهم يبرؤون هذا الاحتلال من عدوانيته وينعتونه بالعدالة "ولم تكن الحروب الصليبية في منظومة شاتوبريان، عدوانا بل كانت مقابلا مسيحيا

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص178

[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص179

[3] الاستشراق، المرجع السابق، ص179

[4] الاستشراق، المرجع السابق، ص186

عادلا لدخول عصر أوروبا"[1]، ثم يسوق إدوارد سعيد مقطعا نصيا من كتابه الأصلي يحمل في ثناياه الدلالات التي يتبناها المستشرقون الغرب لتبرير وتعليل دخول الأقدام الغربية في أرض المشرق ليس من باب إباحة الاحتلال ولكن من أجل وجوده والدفاع عنه، وادعاء الحتمية المقدسة للغزو الأوروبي لبلاد العرب.

" لم تدر الحروب الصليبية حول إنقاذ كنيسة القيامة وحسب، بل دارت حول معرفة الذي سينتصر على هذه الأرض: مذهب تعبدي هو عدو الحضارة، محبذ باطراد للجهل (وذلك هو الإسلام طبعا) وللطغيان، والعبودية، أو مذهب تعبدي أدى إلى أن يوقظ في البشر المعاصرين عبقرية الزمن الغابر الحكيم، وألغى العبودية الدنيئة " وينادى المستشرقون بالحرية الغربية المفقودة في الشرق، وضرورة تلقينها لهذا "المارق"، الذي ما يزال يعاني من طائلة الجهل والتخلف.

ولم تطأ أقدامه المعنى الحقيقي للتحضر والتحرر، لذلك بقي متعلقا في الرجعية والهمجية التي استدعت الحضور الغربي لملء الفراغ، والحد من الاضطرابات والصراعات الداخلية بين السكان الأصليين، لافتقارهم لقادة حكماء ودهاة يسيرون نظام حكم حياتهم المدنية والعسكرية."[2]

"أوروبا وهي تلقن الشرق معنى الحرية، وهي مفهوم آمن شاتوبريان وكل من جاء بعده بأن الشرقيين، وخصوصا المسلمين لا يعرفون شيئا عنه"[3]، ويقدم إدوارد سعيد نصا آخر يدعم به الفكرة التي يتبناها شاتوبريان ومن وافقه من المستشرقين و"عن الحرية لا يعرفون شيئا، من الاحتشام ليس لديهم شيء: القوة هي ربهم، وحين

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص186

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص187

[3] الاستشراق،، مرجع سابق، ص187

تمر بهم فترات طويلة لا يرون فيها فاتحين يطبقون عدالة السماء، فإنهم يبدون مثل جنود بلا قائد، مثل مواطنين دون مشرعين، مثل عائلة دون أب"[1]

هذه هي الصورة المتواترة عن "نحن" الأوروبيون و "هم" الذين هم في الجانب الشرقي من الأرض. هذه الجدلية التي تنص على الصراع وفرض التبعية الأبدية على "هم" وأرضهم وثروتهم. وبذلك تبارك بريطانيا العظمى وأتباعها من الأوروبيين – الإمبرياليين – وعلى رأسهم فرنسا هذه الحملة الطاغية.

إن العرب في المخيال الغربي " عيال بلا أب " يجب إعالتهم قبل أن تنفلت الأمور بينهم –داخليا– ويتحولوا إلى جبهات للصراع والخلاف الطائفي والقبلي، وحروب الحدود والنزعات المذهبية والعرقية. وهذا يتطلب –من منظور "نحن"– التدخل الأجنبي الحتمي، لفض النزاع وحل الأزمات حتى لا تتفاقم، وحتى لا تنعكس نتائجها على "نحن" لأن الحروب تتمخض عنها الأوبئة والآفات والنزوح السكاني والدمار واللااستقرار...

إضافة إلى أن الأرض الشرقية تفتح الشهية كما ينص بعض المستشرقين: " هذه الأرض العربية هي أرض المعجزات، كل شيء يزدهر هنا، وكل رجل ساذج أو متعصب يمكن أن يصبح بدوره نبيا "[2].

بهذه السخرية اللاذعة توصف الأرض العربية، التي تحوي(السذج والرجعيين والمتخلفين، و من جهة ثانية المتعصبين وأصحاب النزعات ،الاندفاعيين المتهورين)،الذين يتحكمون في زمام الأمور بغض النظر عن سوابقهم، أو جرائمهم.هكذا يتم تصوير الشرق بهذه الوضاعة والدناءة التي تدعوا للعجب وللأسف، ويرى المتلقي من بعيد أنه من الضروري – والحال هكذا – أن تتدخل الأيادي الأجنبية لإنقاذ الموقف ورد الأمور إلى نصابها "هذا النمط من الحكم محددا بهذه الطريقة ومؤسسا بوصفه حقا أوروبيا، سيتكون بشكل رئيسي من حق احتلال أرض أو

[1] الاستشراق،، مرجع سابق، ص187

[2] الاستشراق، المرجع السابق،ص192

أخرى، وكذلك الشواطئ من أجل تأسيس، إما مدن حرة هناك، أو مستعمرات أوروبية، مرافئ تجارية.."[1]، يتابع إدوارد سعيد لمقال لامارتين المستشرق المتأثر ب "شاتوبريان"، والذي يصور أن الحال مؤسف إلى نحو أن السكان الأصليين في تلك البلاد المتخلفة هم أنفسهم ينتظرون بشوق، أو يلتمسون من الأجانب، الوفود، قبل أن تحل بهم الكارثة، في ظل الصراعات والاضطرابات والفوضى العارمة التي تغشي بلدانهم "ولا يقف لامرتين عند هذا، بل إنه يتسامى إلى درجة أعلى حيث يتقلص الشرق الذي رآه منذ لحظة، وكان فيه منذ لحظة، إلى (أمم دون أرضّ، أوطان، حقوق، قوانين، أو أمن..تنتظر بقلق الملاذ الأمين)، للاحتلال الأوروبي"[2]. ثم يمتد العقل الفكري عند "لامرتين" إلى أغور من هذا بكثير فإذا كان المستشرقون قد عنوا بصناعة وإنشاء شرق جديد على أنقاض الشرق التقليدي –إذا صح القول–، فإن هذا الأخير يعمل على بث بعد جديد لمفهوم الاستشراق خارج عملية تعبيدوتطويع الطريق للاحتلال الامبريالي، وهذا البعد يتمثل في اقتلاع الشرق جملة، وبصفة نهائية، والخلفية الدافعةلذلك هي أن تكون رفضا قاطعا للثقافة الشرقية السابقة، أو اعتبار هذا الأخير مجرد تمهيد أو توطئة، يقود إلى النتيجة الحتمية محل الدراسة. وهذه الخلاصة هي رفض وجود الشرق والثقافة الشرقية أصلا. لأن القول بأن الشرق له تاريخ وماض وثقافة خاصة، هو بحد ذاته اعتراف خفي، أو نسبي بوجود كيان إسمه الشرق، قائم بذاته، بغض النظر عن سلبيات ونقائص هذه الذات. ولذلك فإن القول بعدمية الشرق، موضوع آخر "بين جميع الرؤى التي اختلقها الاستشراق للشرق ليس ثمة اختصار، حرفيا، كاملا كهذا الاختصار، فبالنسبة للامارتين شبكت الحجة إلى الشرق، لا اختراق الشرق فقط من قبل وعي متغطرس، بل البتر الفعلي، أيضا، لهذا الوعي نتيجة لارتقائه إلى نوع من السيطرة اللاشخصية والشاملة على الشرق"[3].

[1] الاستشراق، المرجع السابق،ص192

[2] الاستشراق، المرجع السابق،ص192

[3] الاستشراق، مرجع سابق، ص192-193

وهناك المستشرق "فلوبير" الذي يظهر في كتابات إدوارد سعيد زير نساء، ورجلا رومانسيا حتى الثمالة غرق في الغواني الشرقيات، وهو يصف مغامراته معهم بتفصيل ممل ومغر، حتى يضع الصورة التي يريد رسمها، أو نحتها للمرأة المصرية العربية المسلمة، وكأنه وجد ضالته العاطفية، أو الشهوانية، من خلال علاقاته التي نتجت عن كثرة أسفاره ورحلاته، " أما أكثر المشاهد احتفائية فإنها ترتبط (بكشك هانم)، وهي راقصة ومحظية مصرية شهيرة قابلها في وادي حلفا، وكان قد قرأ كتابات "لين" عن العالمات و الخول أو البنات، أو الشباب الراقصين على التوالي...،العربية تعني العالمة –إمرأة متفقهة–.وكان ذلك اللقب قد أطلق على منشدات الشعر المجيدات في المجتمع المصريالمحافظ،ومع منتصف القرن التاسع عشر، كان اللقب قد استخدم كنوع من الاسم المهني للراقصات اللواتي كن أيضا عاهرات، وكذلك كانت "كشك هانم"، التي شاهد فلوبر رقصتها (النحلة) قبل أن يضاجعها وكانت كشك دون شك النموذج المبدئي لعدد من شخصيات رواياته النسائية، وشهوانيتها المتفقهة، ولطفتها تبعا لفلوبر وخشونتها اللامبالية..."[1].

هذا الغرق والإفاضة في الوصف الدقيق للعلاقات الماجنة الشهوانية، يريد المستشرق من خلاله تسجيل صورة مصطنعة، أو من إنشائه الذاتي، لقذف المرأة المصرية، التي اختصرها الكاتب في كشك هانم، وقد لفق لها كل صفات الساقطات، " راقصة، عاهرة، الشهوانية"، وبالمقابل يذكر أن هذه المرأة كانت "عالمة"، أي متفقهة إضافة إلى أنها من الطبقة الاجتماعية المحافظة، "كان ذلك اللقب قد أطلق على منشدات الشعر المجيدات في المجتمع المصري". أي أصحاب العلم والفقه ينحدرون إلى العهر والرقص والشهرة الشهوانية ناهيك عن المتخلفين والطبقة السفلى أو الكادحة فحدث ولا حرج، ثم يذكر النص أن مفردة "عالمات"حدث له انزياح لغوي بعد مضي الوقت نجد ما كان يدل على الفقه والثقافة والأدب انحدرت دلالته إلى مستوى العهر والشهوانية والانحطاط الأخلاقي. وتبعا للقاعدة العامة للاستشراق الامبريالي، والتي تقول بدراسة عينة معزولة من المجتمع الشرقي كافية لتعميم

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص199

نتيجتها على كامل الشرق، فإن النساء من سكان البلاد العربية أصبحن محل تهمة لصيقة وجهت لهن جميعا بسبب أن عينة منهن كانت ساقطة، على حد قول الكاتب، فإنهن ساقطات، والمجتمع العربي تبعا لذلك يحوي الساقطات وأبناء الساقطات. هذا القول إن دل على شيء فإنما يدل على انحطاط فكر وأخلاق هذا النوع من الكتاب الغرب، وعدم أهليتهم سواء من الناحية العلمية، أو الشخصية، فلوبير صاحب النص يدقق في المشاهد التي ادعى أنها تتجمع بينه وبين "كشك هانم"، أي أنه بطريقة أو بأخرى كان شريكا وطرفا في هذا الفحش، إلا أنه يتباهى بذلك، ويذكر حتى المضاجعة بوصف غير أخلاقي، يستحي القارئ من الاطلاع عليه، ناهيك عن الناقد الذي يريد الرد أو دراسة النص لما يحمله من سفاهة مقززة. وتعتبر كشك هانم واحدة من سلسلة من النساء اللواتي حضرن في رواياته وأدبه –المفتقر إلى الأدب– ثم يفرق فلوبر مرة أخرى ليمعن في تحليل شخصية غريمته التي – كما ادعى– لم تكن تطلب شيئا من مال أو غير ذلك، ولكن كانت تقتصر على طلب النزوة بكل غرائزيةوحيوانية لا غير. كأنها جارية ذليلة تلاحق سيدها، وتمعن في إرضائه،فتقدم شرفها ونفسها قربانا تلتمس به اهتمامه، وعطفه"وقد أحب فلوبير فيها بشكل خاص أنها بدت وكأنها لا تطلب منه شيئا أبدا، بينما امتزجت الرائحة المثيرة للغثيان اللبق في سريرها بشكل ساحر مع عطر جلدها، الذي كان يقطر منه الصندل"[1]، ثم يضيف بعد كل هذا الغرق في الوصف والتصوير، خاتمة، جعل منها نتيجة، لا ترقى إلى النقاش، أن هذه المرأة الشرقية،لا تعدو أن تكون شيئا،وهي تدخل في خانة "غير العاقل"، وليس هناك من داع إلى استشارتها، أو إشراكها في أمر من الأمور، حتى تلك التي تخصها " المرأة الشرقية ليست أكثر من آلة، فهي لا تفرق بين رجل ورجل"[2] وهناك مقطع نصي في كتاب الاستشراق، يقدمه إدوارد سعيد حرفيا، كما كتب في المؤلف الأصلي حتى يدل على ما يرمي إليه فلوبير في مجمل تناوله للمرأة المصرية حيث يقول: " أما أنا فلم أكد أغمض عيني، كنت أراقب المخلوقة الجميلة نائمة (تشخر ورأسها على ذراعي، وقد انزلقت أصبعي الصغيرة تحت عقدها) ، وكانت ليلتي وهما، حلما

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص199

[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص199

متوترا لا نهائيا، ولذلك مكثت وفكرت بلياليي..،وفكرت بها أيضا، برقصتها، بصوتها وهي تغني أغنيات كانت بالنسبة إلى دون معنى، بل حتى دون كلمات يمكن تمييزها "[1]. وليس هناك من داع إلى إعادة تحليل هذا المقطع النصي الأصلي ما دمنا قد تطرقنا إلى تفصيلات مسبقة إلا من ناحية الموقع الذي جمع الغريمين، أي أن المحيط بدوره شارك في هذه القصة الرومانسية الصامتة، لأن المرأة –هنا– اكتفت بالتعبير الجسدي، والإغواء والإغراء، وليس هناك حوار، وسذاجة فكرها ومحدوديتها عوضتها بفيض من الانحراف الجسدي الأنثوي،" المرأة الشرقية هي مناسبة وفرحة لتأملات فلوبير، فهو مسحور باحتفائها الذاتي، بلا مبالاتها العاطفية..."[2].

والمكان المناسب لممارسة الحب هو ضفاف النيل، فقد ذكر فلوبر ذلك في روايته: " وقد احتل منزلها قرب مصب النيل "[3].

وفي مقطع آخر يشير فلوبر مرة ثانية إلى مكان اللقاء" كشك هانم وهي راقصة محظية مصرية قابلها في وادي حلفا.."[4]. ثم يذكر إدوارد سعيد أن فلوبير المستشرق الروائي لم تبرأ أعماله وكتاباته كلها، من بصمات الفاحشة الرذيلة والنزوات الجنسية، إذ كانت إحدى سيمات أعماله، وخصائص أسلوبه إلى حد الهوس:"في جميع رواياته، ربط فلوبير بين الشرق وبين هروبه، الاستيهام الجنسي..، الحريم الأميرات..، الراقصون والراقصات، الشباب..، والمراهم وما إلى ذلك..، الشرق وحرية الجنس المباح. إنه ليحسن بنا أن نقر بأن الجنس بالنسبة لأوروبا خلال القرن التاسع عشر بتبرجها المتزايد، كان قد تحول إلى عنصر مؤسساتي إلى درجة بعيدة..، فقد كان الشرق مكانا يذهب إليه المرء بحثا عن تجربة جنسية لا تنال في أوروبا.."[5] وهذا التصور في مجمله لم يختص به فلوبير استثناء،

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص199

[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص200

[3] الاستشراق، المرجع السابق، ص199

[4] الاستشراق، المرجع السابق، ص199

[5] الاستشراق، المرجع السابق، ص20

ولكنه كان ما يشبه الإيديولوجية -إذا صح التعبير- لجل المستشرقين الذين قصدوا الشرق، في محاولة للحصول على حاجاتهم من الرذائل، وهم يقرون علنا بذلك، بل يتسابقون في تصريحاتهم، وكل الشرق أصبح قبلة للرذيلة والفحش. ويذكرإدوارد سعيد بعض أسماء هؤلاء " فلوبير، نرفال، " دك القذر "، بيرتن، ولين... وكونراد وموم وعشرات غيرهم.."[1]. وملخص تجارب فلوبير في الشرق، هو صناعة رابطة وثيقة بين " الغريب المدهش " والشهوانية. "يتخلل لحمة تجارب الشرقية كلها، مثيرا أو مخيبا. ترابط يكاد يكون مطردا بين الشرق والجنس..، ما يزال الشرق يبدوا وكأنه يوحي لا بالعضوية فقط، بل بالوعد الجنسي (والتهديد) والحواسية التي لا تفي والرغبة التي لا حدود لها "[2]، هذه المقاطع من نصه الأدبي " إغواء القديس أنطوان "، يحاول فلوبر توصيل الرسائل المشفرة واستعمال طاقته وعبقريته كما يقول إدوارد سعيد - والترميز ليرسم كل ذلك في المخيال الغربي-. لأن الرسالة موجهة إلى أوروبا بالدرجة الأولى، أن السفور والإباحية الغربية ليست إلا علاقات بدائية، ومحاولات بريئة مقارنة

مع الفحش والرذيلة في المجتمع الشرقي منه. ويعمل هذا المستشرق على التسويق للمرأة المصرية التي تمثل مجتمعها

العربي المسلم."وبمرور الوقت أصبح " الجنس الشرقي "، سلعة تعادل في سوائيتها أي سلعة أخرى في المتناول ضمن الثقافة الجماهيرية، بحيث أن القراء والكتاب كانوا يستطيعون الحصول عليها إذا رغبوا دون حاجة إلى الذهاب إلى الشرق "[3]. والمستشرق يعلم أن هذا النوع من السلع أو المواضيع المكتوبة سواء دراسات أو نصوص روائية وما إلى ذلك ،تلقى رواجا ومقروئية كبيرين عند الأوروبيين، التواقين، إلى اكتشاف الآخر أو الباحثين عن النزوات والشذوذ، خاصة إذا تم معالجة هذه المواضيع بطريقة جذابة ومغرية ومشوقة، لأن الإنسان بطبعه يجري وراء المفقود. وساعد في هذه الحملة التشهيرية والتسويقية تطور وسائل الإعلام وتقدمها ووفرتها، وكذا المطابع ودور النشر والجرائد والمجلات. مما وسع انتشار مثل هذه الأعمال في الآفاق وبمختلف اللغات وطرق التناول " فقد كان

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص202

[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص200

[3] الاستشراق، مرجع سابق، ص203

عدد عظيم في النصوص ينتج، وكانت أهم الوكالات والمؤسسات المعنية بإشاعة هذه النصوص وانتشارها موجودة في كل مكان" وتسارعت مختلف الجهات والجبهات لتحصيل اكبر قدر ممكن من المعلومات ودراستها وكذلك التنسيق فيما بينها " وكان ثمة تبادل منظم للمعلومات "، واتفاق على ماهية المشكلات المطروحة وكذلك على المناسق الملائمة للبحث ولنتائج البحث"[1].

وذلك حتى يكون هناك نمط واحد من الدراسة متفق الأسس واضح للرؤية وإن اختلف المستشرقون في الجزئيات أو في درجات التفاوت الخبراتي والمعرفي في هذا المضمار، إلا أنهم في الأخير يتجهون إلى قبلة واحدة موحدة.لأنه وكما أسلفنا فإن المشروع الاستشراقي من منظورهم قضية محسومة الآفاق والأبعاد مسبقا ،كما يقول

فلوبير:

" كل إنسان سيلبس زيا موحدا"[2].وحتى وإن اختلفت المصادر والتجارب واللغات والمرجعيات ففي النهاية سيكون الشرق ممعنا في السوء، والغرب بالغا في الرقي والنزاهة، وربما الطهر والنقاء مع كل ما فيه من شذوذ وانحراف، لأن أهل الغرب أرادوا أن يكونوا كذلك.

ولو انتقلنا إلى رؤية أخرى عند المستشرق "كينغليك"مثلا، الذي يدعي أن العقل الشرقي، -إذا سمح له أن يسمى عقلا- لا يستطيع بحال من الأحول أن ينتج أدبا أو إبداعا، مهما اختلفت الفنون، لأن العقل الشرقي في مجمله واحد، وإذا قيل أنه تعدد، فلا يعدوأن يكون ذلك تكرارا لأصل لواحد لا غير. ولما تناول "كينغليك" رواية "ألف ليلة وليلة" وأمعن فيها بالدراسة أنكر وجحد في أن يكون هذا الإبداع عربيا أو شرقيا، لما فيه من جزالة ألفاظ،وسلاسة لغة، وعمق دلالي ينم عن رفعة كتابه، وإن ظهر (هذا العمل) بلا كاتب،فقد تبيّن أنه يبقى عملا أدبيا راقيا، وهذا ما دفع المستشرق إلى التشكيك في موارده وأصوله، رغم جهل "كينغليك" باللغات الشرقية، التي

2-الاستشراق، مرجع سابق، ص203 .

[2]الاستشراق، مرجع سابق، ص203

تمكنه من دراسة أسلوب كاتب النص، وتساعده على معرفة السرقات الأدبية في هذا المجال أو ذاك، إلا أن ذلك لم يشفع عنده، بل تجرأ على الثقافة العربية والإسلامية الأصيلة، وأنكر –بدافع الاحتقار– أن تكون للشرق أعمال ترقى إلى مستوى العالمية، وتنال رضا القراء خارج العالم الشرقي، أو داخله،" يخبرنا كينغليك، مثلا، بأن ألف ليلة وليلة من الحيوية والابتكار بحيث يستحيل أن يكون قد أبدعها ' مجرد شرقي هو، من حيث الإبداع، شيء ميت وجاف، مومياء عقلية '، ورغم أن "كينغليك" يعترف بابتهاج أنه لا يعرف أي لغة شرقية، فإن جهله لا يقيده عن أن يصدر تعميمات كاسحة عن الشرق، وثقافته، وعقليته، ومجتمعه...وهو مثل كثير من الرحالة الآخرين، أكثر اهتماما بإعادة صنع نفسه وصنع الشرق (ميت وجاف – مومياء عقلية) منه برؤية ما هو في متناول البصر "[1].

- **الاستشراق الكامن والظاهر:**

إن الخلفية التي ينطلق منها الاستشراق لا تكاد تكون –رغم اختلاف مشارب ومراجع المستشرقين وخلفيا تهم الفردية– واحدة، لا أكثر، فأصل واحد لفروع شتى، أو ما يعرف في التاريخ والثقافة العربية بأبناء العلات، أي أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة..، ولهذا فإن هدفهم واحد وإن تعددت سبل الوصول إليه وهذا ما يسميهسعيد"الاستشراق الكامن" أما الظاهر فهو خاصيات كل مستشرق على حدا. حسب ميولاتهم وتجاربهم وإمكانياتهم وحقول اختصاصهم. فهذا يعبر عن طريق الرواية الأدبية، والآخر يجسد أفكاره على الركح من خلال التمثيليات المسرحية، وذلك بالفلسفة أو السينما أو الرسم أو الموسيقى.. فالغاية تبرر الوسيلة وكل مستشرق تيسرت له وسيلة أو وسائل، لم يتوان عن استعمالها بكل ما أوتي،" في أعمال كتاب القرن التاسع عشر الذين درستهم في الفصل الثاني –من كتاب الاستشراق– يمكن تخصيص الفروق بين أفكار كاتب وآخر عن الشرق بأنها، حصريا، فروق ظاهرة، فروق في الشكل والأسلوب الشخصي، وهي نادرا ما كانت فروقا في المضمون، فلم

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص205 –

يمس أيا منهم انفصالية الشرق، بشذوذيته المميزة، وبتخلفه ولا مبالاته الصامتة، وبقابليته الأنثوية للاختراق، وبقابليته الكسولة للتطريق.."[1]. ويذكرسعيد أن هذا البناء الهلامي للمجتمع والكيان الشرقي يبدوا طيعا وطائعا للمد الامبريالي على اختلافه وهذا ما فتح الشهية للمستشرقين ليكتبوا عن شرق أنه يستنجد ويطلب من الأجنبي أن يغشاه "وذلك هو السبب في أن جميع الذين كتبوا عن الشرق من رينان إلى ماركس (من وجهة نظر عقائدية) أو من أكثر الباحثين صرامة (لين وساسي)، إلى أكثر الخيالات حيوية (فلوبير ونرفال). رأو الشرق موضعا يتطلب العناية الغربية، وإعادة البناء الغربية بل حتى الخلاص الغربي.."[2].

- **ثنائية التقدم والتخلف:**

لقد نعت الشرقيون بالتخلف والرجعية وأنهم قوم محكومون لا يمكنهم بحال من الأحوال تسيير ذواتهم أو بناء كيانهم خارج المباركة الغربية والعالم المتقدم، الذي يؤطر مشاريعهم الحياتية، وهذا الأمر يأتي ضرورة أو حتمية مفروغ منها. يعني أنه يسير بطريقة أوتوماتيكية –آلية– وهذا ما دعمته الفكرة "الداروينية" حول الأعراق وتصنيفاتها أو بالأحرى ترتيبها، "..أضيفت أفكار دروينية من الدرجة الثانية، بدا أنها تؤكد السريان العلمي لتقسيم العروق إلى متقدمة ومتخلفة أو أوروبية –آرية وشرقية– إفريقية.." [3]

ويستدل "سعيد"بنماذج شتى، نابعة من الرياء الغربي، والوهم المتجذر في نفسية هؤلاء المستشرقين والذي يروج لثقافة الاستعلاء على الآخر، وضرورة احتوائه وترويضه، بحكم تخلفه "هو" وبحكم تقدمهم "نحن"، وذلك من خلال دراسة رؤية أخرى داعمة للمشروع الامبريالي الجمعي"يطرح جون ويسلك، مثلا في كتابه (فصول في مبادئ

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص217

[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص217

[3] الاستشراق، المرجع السابق، ص218.

القانون الدرعي) 1894 منظومة تقول إن أقاليم الأرض المدعمة غير المتحضرة (وهي لفظة تحمل ثقل الافتراضات الشرقية إلى جانب افتراضات أخرى) ينبغي أن تلحق أو تحتل من قبل القوى المتقدمة وبطريقة مماثلة فإن أفكار كتاب مثل كارل بيترز، ليوبولد ديسوسيو، وتشارلس تمبل، تعتمد على ثنائية المتقدم والمتخلف التي أعتنقت ودعي إليها بقوة مركزية في استشراق القسم الأخير من القرن التاسع عشر"[1].ونلاحظ عبارة "تلحق" (بضم التاء وفتح الحاء) والإلحاق المقصود –بكل دلالاته– ينم عن شيئية الشرق،ذلك الكيان المتخلف الذي لا يملك من أمره شيئا، إلا أن يتهيأ ليكون أداة يتمإلحاقها بحيوب الغرب وجرابه. إذا تيسر لنا تصور ذلك في خضم هذه التعابير المحقرة والمستصغرة لهذا الشرق برمته،والذي تختصره الآلة الاستعمارية في تسمية " الملحق" ليس إلا.

"كان الشرقيون جنبا إلى جنب مع الشعوب الأخرى التي وصفت بأنها متخلفة، منحطة، غير متحضرة قاصرة عقليا، يعاينون ضمن إطار تألف من الحتمية الحيوية "البيولوجية" والتأنيب الأخلاقي السياسي، وربط الشرقي، وبهذه الصورة إلى عناصر في المجتمع الغربي (الجانحون، المجانين، النساء، الفقراء) بوصفهم جميعا يشتركون في هوية أفضل وصف لها هو أنها أجنبية، ونادرا ما رؤي الشرقيون أو نظر إليهم، بل نظر عبرهم، وحللوا كالمواطنين أو حتى كبشر بل كمشكلات تتطلب الحل أو لحصر ضمن حدود، أو الاحتلال – حيث بدأت القوى الاستعمارية تشتهي أراضيهم بشكل علني.."[2].

ولم يتوقف الأمر إلى هذا الحضيض في وصف الشرق، بل تعدى ذلك إلى أن أي شيء ينسب، أو يصف، أوله علاقة ما، مع الشرق، بأنه مقرف مقزز، مرفوض منحط تافه، وتابع مع كثير من التحفظات

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص218.

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص218.

والملاحظات،"والنقطة المشار إليها هنا هي أن مجرد تسمية شيء ما شرقيا شبكت حكما تقييما صادرا سلفا، وشبكت بالإشارة إلى الشعوب التي كانت تعيش في الإمبراطورية العثمانية المتفتحة برنامجا مضمنا للفعل "[1].

وأضاف "سعيد" بعد هذا التحليل مختصرا وافيا للمتطلب الغربي وأجمله في عبارة واحدة مفادها أنه: " ما دام الشرق ينتمي إلى عرق محكوم، فقد كان ينبغي له أن يحكم"[2].

ولا نقاش ولا حوار ولا إفاضة، وإنما هنالك أمر ينبغي أن يحصل بالمنظور الغربي.وهو التسليم بحتمية الأمر (ضرورة تبعية الشرق للغرب)،ولا جدوى من المماطلة والرفض لأن هذا الأمر قدر مقدور"لقد كان الأمر بهذه البساطة"[3].

– الصراع البريطاني الفرنسي على اقتسام الشرق:

يقول النبي محمد عليه الصلاة والسلام: "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.. غثاء كغثاء السيل.."[4]. لقد رأت فرنسا أنها تأخرت أو أن مبادرتها ورحلتها الاستعمارية في دول الشرق كانت محدودة مقارنة مع نظيرتها البريطانية، التي أخذت "حصة الأسد" فيبلاد الشرق، وهذا ما دفع فرنسا لسلوك مختلف السبل من أجل نيل حصص أخرى، على حساب منافستها بريطانيا.إنه الصراع غير المعلن، والذييبدو في زي التعاون والتنسيق، واقتسام الغنائم المنهوبة وثروات البلدان الشرقية، خاصة مصر، التي أخذت مجالا فسيحا في كتاب الاستشراق. ولعل إدوارد سعيد يعبر عن انتمائه لهذا الوطن الثاني(مصر) بعد فلسطين، والذي قضى فيه سنوات شبابه، وفتوته، قبل أن يرحل إلى أمريكا. وسعيد في هذا السياق يريد أن يبرز الصراع الخفي بين القوى الاحتلالية لامتلاك الأرض، والسيطرة الجيو–سياسية على أغلب البقاع، وبالخصوص جغرافيا الشرق، وكل من الدولتين

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص218.

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص218.

3–الاستشراق، المرجع السابق ص218.

4– حديث شريف عن أبي هريرة أخرجه أحمد في المسند (259/2) عن شبيل بن عوف عن ثوبان مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وعن أبي عبد السلام عن ثوبان مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أخرجه أبو داوود في سننه (210/2). والروياني في مسنده (ج2/134/25) من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر. والحديث صحيح .كما أكد على ذلك الشيخ ناصر الدين الألباني.

(فرنسا وبريطانيا) تصر على أنها تقوم بأعمال نبيلة، وتنشر الفضيلة، وتبني الحضارة في الكيان الشرقي.و قد أتى ذلك استجابة للطلبات الحثيثة التي وصلت إليها من سكان تلك البلدان. ولم تجد إلا أن تتدخل –من باب الإنسانية– لإنقاذ مثل تلك الشعوب. وهذه التضحية التي تقدمها لا تنتظر المقابل، إلا تأقلم هذه البلدان مع الحداثة والحضارة، التي جاءتهم من الغرب (هدية وهبة بدون مقابل). ولقد وصل بعض المستشرقين إلى أفكار شيطانية، تبرر الاحتلال والتوسع الامبريالي، وتعطيه مسوغات تبدو حضارية ومقنعة وربما محفزة أو ممتعة، "وقد طرح جغرافي بارز هو لارونسير لونوري منظومة تقول: إن قوة توسع العروق الأوروبية وأسبابه وعناصره وتأثيراته على المصائر البشرية ستشكل مادة دراسة جميلة للمؤرخين في المستقبل"[1].وتمخض عن ذلك أفكار تدعوا إلىإنتاج الشرق باعتباره شيئا، أو حقلا يجب استصلاحه والاستفادة من نتاجه المادي والمعنوي، " ومن أطروحاتكهذه نشأت الفكرة المعتنقة بشكل واسع عن الشرق باعتباره فضاء جغرافيا ينبغي أنيزرع ويحصد ويحرس"[2]هذه الجغرافيا من المنظور الغربي،لا العلمي، ولكن الاحتلالي. ونجد نمطية بارزة في هذه النصوص التي تتناول الشرق، حيث تلغي كل أشكال المقاومة، والكرامة للسكان الأصليين، وتتحدث عن ذلك العالم بأنه مجرد تابع، يجب أنيندرج في ملحقات الأوروبيين من غير مساواة له معهم. وإنما يكون تابعا وليس جزءا أو نظيرا. وقد أضاف مفكرون آخرون هذا النوع من الأفكار البشعة حيث يقول ليرو– بوالو:" إن مجتمعنا ما يستعمر حين يكون هو نفسه قد وصل درجة عالية من النضج والقوة، فهو ينجب، ويحمي، ويصنع مجتمعا جديدا في شروط جيدة من التطور ويصل به إلى الخصوبة."[3]. ويواصل هذا المفكر استرساله:" فالاستعمار هو القوة التوسعية لدى شعب ما، هو قدرته على إنتاج نفسه، هو اتساعه وتضاعفه عبر الفضاء، هو إخضاع الكون أو جزء هائل منه للغة ذلك الشعب وعاداته وأفكاره وقوانينه"[4]. هذا التحليل الخاص يسوغ للاحتلال أن يرتدي حلة المنقذ والمنتظر لإخراج الناس من

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص228.
[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص228.
[3] الاستشراق، المرجع السابق، ص229.
[4]الاستشراق، المرجع السابق، ص 229.

الظلمات إلى النور، أثناء عملياته الاستيطانية في الشرق،ومهما تغيرت المواقع والجغرافيا، فإن الشرقي واحد، في كل الحالات. فتجربة واحدة في مكان واحد وزمان واحد كافية لتعميم نتائجها على كل عالم الشرق، بأمصاره وأعصاره، من حيث ثقافته ودينه وعاداته وتقاليده، كما لا يقف"روبرتسن سميث" عند هذا الحد ولكنه يضيف انطلاقا من تأثره بالفوقية الغربية، التي خلقت عنده رؤية دونية لكل ما هو عربي إسلامي،أو شرقي بصورة أعم، إذ يقول:"إن المسافر العربي مختلف عنا، فجهد الانتقال من مكان إلى مكان بالنسبة إليه إزعاج صرف، وهو لا يشعر بمتعة في بذل الجهد (كما نشعر نحن)،ويتذمر من الجوع والتعب بكل قواه كما لا نفعل نحن، وليس في وسعك أن تقنع الشرقي أبدا حين تترجل عن راحلتك، قد تكون لديك رغبة أخرى سوى أن

تجلس القرفصاء على بساط فورا وتستريح تدخن وتشرب، فالعربي قليل التأثر بالمناظر الطبيعية (أما نحن فتأثرنا بها عميق)"[1]. ثم أن هناك ما وصف به الشرقي غير العربي . إذ أنه هو الآخر محدود وغير مؤهل، وربما تافه إلى درجة التهكم "إن الأرض لتفور بالقوة المتهافتة والذكاء غير المنظم، هل حدث أن تأملت أبدا حالة الصين؟ ثمة. تجد ملايين من الأدمغة السريعة التي تجمدها حرف تافهة، دون مسار موجه أو قوة دافعة، ولذلك فإن خلاصة جهودهم عقيمة، والعالم يقهقه ساخرا من الصين"[2]. إلى هذه الدرجة أو أكثر يتم تصوير السكان الأصليين، أو "الغريب المدهش". ومن جهة أخرى ينكر الأوروبيون انتساب أمثال هؤلاء إلى العرق الإنساني، ويرفضون ضمهم إلى قائمة البشر لتدني مستواهم في جميع الميادين، حتى كأنهم غير مؤهلين لبناء مجتمع قائم بذاته ومتحكم في زمام أموره، أي أنهم كائنات من نوع آخر قد يكون شبيها بالإنسان في البناء الشكلي إلى حد ما، ولكن التركيبة الدماغية محدودة وعقيمة وآلية،ولا تسير إلا عن طريق الأوامر التي يصدرها الإنسان (رجل الغرب). "لا يملكون سوى الأسمال التي يقفون عليها، ترى كيف يعيش الناس، وأكثر من ذلك، بأي سهولة يموتون، فإن من الصعب دائما أن تصدق أنك تسير بين كائنات بشرية... إن للبشر وجوها سمراء ، وإلى جانب ذلك فإن لهم عددا كبيرا

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص244.

[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص 256.

منها، هل هم حقا اللحم نفسه الذي هو أنت؟ هل لهم حتى أسماء؟ أم أنهم مجرد مادة سمراء لا متمايزة، أفراد بقدر النحل، أو حشرات المرجان أفراد؟. إنهم ينبعون من الأرض، يعرقون ويعانون الجوع لبضع سنوات ثم يغوصون عائدين إلى أكوام المقابر التي لا أسماء لها، دون أن يلحظ أحد أنهم ذهبوا، حتى القبور نفسها سرعان ما تنحل رجوعا إلى تراب"[1]. إدوارد سعيد انتقى بعناية بعض النصوص التي تمس مباشرة عالم الشرق على اختلافه الحقيقي، ونمطيته الاستشراقية الزائفة، التي لا تكاد تخدم حتى من كتبها، ناهيك عن المقروئية الغريبة المهتمةبدراسة مثل هذه النماذج وإن كان لها من صدى في تلك المجتمعات التي تزعم التحضر فعند ما تنطلي مثل هذه الأفكار الغثة على الأذهان الساذجة وإن كان لها شريحة واسعة من القراء فهذا دليل على نسبة السذاجة في أوروبا أو نسبة النفاق. إن رجل الشرق أصبح سلعة ومنتجا بكل ما يحتويه، أو يحوطه إلى درجة اللاعودة، على غرار المرأة لشرقية، سليلته وشريكة حياته ومجتمعه.. ، ولم يبق في الشرق شيء جامد أو متحرك، عاقل أو غير عاقل إلا ودخل في إطار الاستشراق والانحطاط والتبعية والانتحال والشهوانية والحيوانية والمحدودية والانهزامية والخيانة وكل ما هو خلاف الغرب المتحضر المتأنق المغرور. ويسير المستشرق ماسنيون من الأخير أي من النتائج ليعود أو يبرر الأسباب على طريقة المقولة الفلسفية للكاتب الايطالي نيكولو ميكيافيلي –صاحب كتاب الأمير– والمعتمدة من طرف المد الإمبريالي "الغاية تبرر الوسيلة" أو حتى يرسم صورة تبرز الاحتلال في هيئة المضطر والمنساق إنسانيا للحتمية التي تدفعه إلى عمله خارج حدوده وانتشاره في عالم أوسع جغرافيا ومختلف ثقافيا وحضاريا، وتنص هذه الحتمية على أن "الآخر"يحمل ثقافة عدائية انتقامية لها إبعاد توسعية على حساب الغرب مما اضطر الغرب عن طريق الاحتلال للحد من خطر هذا العدو المحدق والمتمثل في الشرق عموما والعالم الإسلامي بالخصوص، ويقول إدوارد سعيد متناولا آثار المستشرق ماسنيون " لقد اتخذ ماسنيون نقطة انطلاق لعمله، وجود الديانات الإبراهيمية الثلاث، التي كان الإسلام بينها ديانة إسماعيل، وحدانية شعب استثني من الوعد الإلهي لإسحاق. فالإسلام رغم ذلك، دين

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص 257.

مقاومة (للرب الأب، وللمسيح التجسد) يحتفظ رغم ذلك في داخله بالأسى الذي بدأ أولا بدموع هاجر، ولذلك فإن العربية لغة الدموع عينا، تماما كما أن مفهوم الجهاد بأكمله في الإسلام.. ذو بعد فكري هام، رسالته هي الحرب ضد المسيحية واليهودية، بوصفهما العدوين الخارجيين، وضد الهرطقة بوصفها العدو الداخلي"[1].ويريد ماسنيون أن يرسم صورة الإسلام مضادة لصورة المسيحية واليهودية وهذا التضادلا يقف عند العداوة الوجدانية، وإنما يترجم إلى حروب وصراعات واعتداءات وتجاوزات، وكل ما يحتويه الإسلام لا يخرج عن هذا الحقل وانطلاقا من هذه الفرضية، فإن الإمبريالية لا تحتاج إلى مبررات تسوغ وجودها في البلدان المحتلة، وتدافع

عن أحقيتها في نهب وامتلاك كل شيء وترويضه لصالح الغرب،وإنما الأمر يتعدى ذلك إلى تشجيع الاحتلال تحت طائلة الضرورة، والنتيجة المحتومة للغزو، وربما المباركة الإلهية التي ترافق خطوات هذا المد الاستعماري حيثما حل وتوسع، لا سيما إذا كانت الحملات الاحتلالية تحت غطاء الحروب الصليبية، أو نصرة المسيح، أو الصليب أو الرب... ولا يتوقف ماسنيون إلى هذا الحد، ولكن يضيف تحليلا فلسفيا، يدعي فيه أن يشرح ماهية الإسلام وبعده الروحاني معتمدا على التوجه الصوفي، ذو الطابع الانعزالي والزهدي، ويأخذ مسيرة الحلاج الذي يرى أنه شبيه بالمسيح في مواقفه وقد علق على أعواد المشانق كما أن المسيح قد صلب.. "ماسنيون آمن أن الإسلام وداخله كان قادرا على تلمس نمط من التيار المضاد، أصبحت رسالته الفكرية الرئيسية أن يدرسه متجسدا في الاسرارية الصوفية، وهي طريق إلى البركة الإلهية وكان الملمح الرئيسي للاسرارية طبعا طبيعتها الذاتية التي كانت نزعتها اللاعقلانية بل حتى غير قابلة للإيضاح والتعليل والتجربة البرهية للمشاركة في الإلهي، وهكذا كان عمل ماسنيون الفائق كله على الاسراريين محاولة لوصف رحلة الأرواح خروجا من الإجماع المقيد المفروض عليها من قبل

[1] الاستشراق، ص270.

الجماعة الإسلامية أو السنة.. ، وقد مال الاسراري العربي في رأي ماسنيون إلى الشهودية الأحدية، وكان النموذج المثالي لمسنيون هو الحلاج الذي سعى لتحرير نفسه خارج الجماعة السنية بالبحث عنه.."[1].

ويبدوا من خلال النص الأخير أن اللغة المستعملة والمعجم المصطلحاتي قد تم اختيارهما بعناية من طرف ماسنيون حتى يخلق نوعا من المصداقية ويبين بطريقة أو بأخرى أن الكاتب ملم بخفايا الموضوع محل الدراسة، مما يرسم صورة سوداوية غريبة ومدهشة عن الثقافة الإسلامية ككل، تعطي انطباعا بما يسميه المفكرون "الإسلاموفوبيا" فيرى القارئ لهذه النصوص ومثلها بأنه إذا اعتنق الإسلام فإنه يحكم على نفسه بدوامة من القيود التي لا سبب لها ولا نتائج ترجى من ورائها إلا الوهم والتفكير الماورائي والمرائي، فيخرجه هذا النمط من الطقوس الروحانية من عالم

الشهادة –وإن كان يعيش فيه–ويجعل منه ناسكا رهبانيا يطلب الروحانيات في رحلة غامضة مجهولة العواقب ومليئة بالأسرار كما يسميها ماسنيون في نصه: طريق إلى البركة الإلهية، في جو الذلتية المفرطة المتجردة من المنطق والعقل.ثم يقدم ماسنيون شخصية الحلاج كنموذج مثالي في الإنسان المسلم الذي بلغ ذروة الرقي الروحي إلى درجة أنه ساق نفسه إلى الشنقة – على طريقة المسيح المصلوب "في زعم النصارى"– من أجل التسويق لمذهبه، والدعوة إلى إتباعه.. ، وكان ماسنيون يريد أن يبرز أن المسيح أصبح ذا حيثية وصيت وأنصار من خلال التضحية بنفسه من أجل الدين المسيحي وكذلك بالموازاة والمناصفة فإن الحلاج –من دون كل المسلمين– وصل إلى هذه المرتبة من خلال تكرار تجربة المسيح عيسى عليه السلام –ولكن هذه المرة كانت في الدين الإسلامي. مما ترك صدى واسعا في الأوساط الشرقية، وربما الغربية أيضا. فكان نموذجا للتضحية والإقدام، وهذا الدفع الكبير الذي يقوم به ماسنيون لشخص الحلاج لم يكن تزكية له، أو تأثرا به، أو الدعوة لأتباعه، ولكن الخلفية الحقيقية هي إخماد صورة النبي محمد صل الله عليه وسلم. وكأن لسان حاله يقول: يجب أن يكون ممثل الإسلام هو الحلاج بدلا من محمد

[1] الاستشراق، ص271.

"صل الله عليه وسلم" لأنه (الحلاج) ضحى بحياته مثل المسيح عليه السلام، وأما محمد عليه الصلاة والسلام فلم يفعل.

" لقد كان الشرق في عرفه (ماسنيون) روحانيا ساميا قلبيا ووحدانيا بصورة جذرية... فقد أعاد بناء الإسلام ودافع عنه ضد أوروبا من جهة ، وضد سنيته الخاصة من جهة أخرى.. ويمثل حلاجه تلك الإرادة تمثيلا كاملا،

فالأهمية اللامتوازنة التي أسندها إليه تدل، أولا، على قرار الباحث أن يرفع أحد الشخصيات، فوق ثقافته المشكلة، وثانيا، على حقيقة أن الحلاج أصبح يمثل تحديا دائبا، بل، حتى مثيرا للمسيحي الغربي، الذي لم يكن الإيمان بالنسبة له يعني التضحية المتطرفة بالذات، التي كانها بالنسبة للصوفي، وفي أي من الحالتين، فقد كان ينتوى لحلاج ماسنيون أن يجسد حرفيا، أن يتقمص، قيما رفضها النظام العقائدي في الإسلام واعتبرها خروجا عليه"[1].

ويؤكد إدوارد سعيد من خلال تحليل نصوص ماسنيون فيما يتعلق بظاهرة الحلاج الذي رسمه هو، وليس الحلاج الرجل الصوفي المعروف في المجتمع الإسلامي، والذي أضفى عليه من تمائم القداسة والرفعة، ما عجز عنه غيره من مرتادي الإسلام –على حد قوله–ويريد ماسنيون أن يجعل من 'حلاجه' مثلا ورمزا بطوليا مشرفا للمسلمين كما كان المسيح كذلك بالنسبة للنصارى. وبين هذا أو ذاك يتم تغييب، إن لم نقل، إزالة صورة محمد عليه الصلاة والسلام، من المشهد الإسلامي، بحركة لبقة، تلفت الانتباه وتشد العواطف في المجتمع الشرقي بصورة عميقة إلى الحلاج، ليتشكل رابط ذهني بين الإسلام (كما يراه ماسنيون) والحلاج (كما صنعه ماسنيون كذلك) وهذا المنعطف الذي سطره ماسنيون، يزيد من رشاقة الانحراف إلى وجهة مجهولة، على أمل أن يسير وفق هذا النهج أولئك الشرقيون الواقعون ضحية للاستشراق –وللأسف حدث هذا إلى حد ما– والغربيون الذين يدفعهم فضول للمعرفة الشائهة، التي تنسجم مع الأفكار المسبقة عن الإسلام والمسلمين في أوروبا والعالم المسيحي، طمعا في القضاء على أي نداء،أو إيديولوجية، ممكن أن تخدم، أو تجامل الإسلام وذلك من المنظور الغربي والمسيحي،أو

[1] الاستشراق، ص274.

اللاشرقي، وربما حتى الشرقي –للأسف– " فالشرق كتمثيل في أوروبا، يشكل أو يفسد تشكيله –يشوه– بسبب من حساسية تصبح أكثر فأكثر تحديدا بإزاء منطقة جغرافية اسمها "الشرق"، والمستشرق إلى حد ما بعيد جدا، يزود مجتمعه بتمثيلات ، للشرق :

- تحمل طابعة المتميز الخاص.
- توضح تصوره لما يمكن للشرق أو ينبغي له أن يكون.
- تتحدى تحديا واعيا وجهة نظر إنسان آخر إلى الشرق.
- تزود الإنشاء الاستشراق بما يبدوا ... في أمس الحاجة إليه.
- تستجيب لمتطلبات معينة ثقافية ومهنية وقومية وسياسية واقتصادية تفرضها الحقبة التاريخية."[1]

يناقش إدوارد سعيد في النص الأخير حدة التعتيم وقوته، في التأثير على ذهنية القارئ الغربي، حتى تصد أمامه المنافذ للوصول إلى رؤية واضحة أو عادلة أو موضوعية، إلى موضوع اسمه الشرق. ويكتفي بالأدلة التي تبدو مقنعة ومنسجمة مع ذهنية هذا المتلقي الأوروبي، لأنه من باب أولى، يتلقى ثقافة من مرسل أوروبي، له تقريبا المرجعية نفسها، واللغة ذاتها في بعض الأحيان. لذلك فإن العملية التواصلية –على طريقة رومان ياكبسون في نظرية التواصل– تتم على هذا النحو.فالمستشرق يشبع فضول المتلقي من بني جنسه، من ناحية أنه لا يبادر للبحث هو شخصيا عن ماهية الشرق والعالم الشرقي، ولكنه يكتفي، أو يتم إشباعه ثقافيا، من خلال كتابات المستشرقين عن الشرق وخصائصه،والتي تصله كوجبات جاهزة دون عناء. لأن المستشرق هو الذي يتحمل هذا العناء نيابة عن كل اللاشرقيين من بني جنسه، هذا إذا توقف الأمر هنا، ولكن للأسف، وقد أسلفنا في مواضع كثيرة من هذا البحث أن المستشرقين هدفهم أبعد، وهو شرقنة الشرق لذاته،والذي يجب عليه –كما يريدون له– أن ينظر إلى نفسه من خلال مراياهم الشائهة، ولا يجرأ بعد ذلك أن يبحث عن نفسه في موضع آخر، خارج

[1] الاستشراق، ص275.

الرقابة الغربية. لأن ذلك جريمة، أو كما يرى الكثير منهم أن الشرق قاصر ولا يستطيع أن يحدد نفسه أو يفهمها دون الاستعانة بفهم الغرب "فإن المعرفة...هي ما تقوم بتوزيعه أو إعادة توزيعه الخصائص الخمس للتمثيل الاستشراقي التي أوردتها.."[1]

ويذكر إدوارد سعيد الهدف الخفي من دراسة الاستشراق من خلال رؤية المستشرق الفرنسي "جب" فيقول: "فالدراسات الاستشراقية ينبغي أن تعاين لا بوصفها نشاطات بحثية، بقدر ما هي أدوات للسياسة القومية بإزاء الأمم الحديثة الاستقلال، والتي قد تكون صعبة المراس، في عالم ما بعد الاستعمار.. ، فقد كان للمستشرق أن يكون دليل صانعي للسياسة، ورجال الأعمال، وجيل جديد من الدارسين.."[2]

ويذكر إدوارد سعيد المستشرقين ماسنيون وجب الفرنسيان، ويقارن بينهما في هذا السياق مشيرا إلى نقطة حساسة، وهي تقاسم المهام في دراسة الشرق، فالأول توغل في دراسة الظاهري أو الخارجي، أما الثاني كان باطنيا أو ماورائيا أكثر، وقد أمعن في هذا الاتجاه. وذلك حتى لا يبقى مجال إلا وكان محاطا بالدراسة، "لقد كان ماسنيون خارجيا إلى درجة يائسة، أما جب فكان داخليا... لكن كلا الرجلين بلغ ذروة الامتيازات والنفوذ في الاستشراق الفرنسي والأنجلو-أمريكي على التوالي"[3]. ويبرر التطفل الذي يدفع جب إلى الغوص في ماهية الإسلام لإعادة إنشائه أو إنتاجه، بأن الثقافة الإسلامية أصلا مستوردة، مأخوذة، مسلوبة، منتحلة، بشكل أو بآخر من الأصالة الغربية ،وتم التصرف فيها وترويضها، ثم تبنيها من طرف الإسلام. لذلك فإن الدارس الغربي إذا أتاح لنفسه أن يخوض في العلوم الإسلامية، فإن ذلك يدخل في إطار استخراج المعطيات المأخوذة سلفا من الغرب، أي استرجاعها وردها إلى أصلها، بعد تجريدها من مؤثرات الإسلام العالقة بها.

---

[1] الاستشراق، ص275.

[2] الاستشراق، ص275.

[3] الاستشراق، ص281.

يقول إدوارد سعيد في مفهوم خطاب "جب" حول هذا الموضوع: "فقد أخذ الغرب من الإسلام فقط تلك العناصر غير العلمية التي كان الإسلام اشتقها من الغرب أصلا". أما في استعارته للكثير من العلوم الإسلامية، فإن الغرب كان يتبع القانون الطبيعي الذي يجعل " العلوم الطبيعية والتقنوية (التكنولوجية) قابلة للانتقال دون حدود.."[1]. ومن ناحية ثانية فإن المبررات التي يقررها جب ويستند إليها، هي أن العلوم عابرة للأمكنة والأزمنة، وهي ميراث إنساني لا يمكن احتكاره. وهذا عندما يكون الباحث غربيا يأخذ ثقافة الشرق، يعني أن هذا المبرر يستخدم من مركزية واحدة، ويسير في اتجاه الغرب إلى الشرق فقط –وحبذا لو كانت هذه النظرية سائدة بحيث تفتح المجالات المعرفية التي يتقدم فيها أهل الغرب ليستفيد منها الشرق على أنها "قابلة للانتقال دون حدود"[2].

- **المرحلة الأخيرة:**

يختم إدوارد سعيد أطروحته بإبراز الدور الأمريكي في المرحلة –ما بعد الكولونيالية– وتراجع الهيمنة الامبريالية للامبراطوريتين البريطانية والفرنسية، في شكل مسرحية جماعية كل مرة يتقدم فيها ممثل، ليتراجع آخرون، في عمل تمثيلي تنسيقي محكم الإخراج. وذلك لخدمة الهدف العام للغرب، وهو إخضاع الشرق، وتدجينه، لصالح أوروبا، ثم لصالح أمريكا "ففرنسا وبريطانيا،لم تعودا تحتلان المسرح المركزي في السياسة الدولية، بل أزاحتهما السيادة (الإمبراطورية) الأمريكية عن محلهما، وتربط الآن شبكة هائلة من المصالح جميع أجزاء العالم المستعمر سابقا بالولايات المتحدة .."[3]. وعندما جاءت هذه الارتباطات خلقت معها قاموسا جديدا يتناسق مع الدور الجديد لهذا الإمبراطور الذي حل محل بريطانيا وفرنسا، فالمستشرق أصبح يدعى (الخبير الإقليمي أو الخبير بشؤون الشرق الأوسط). وفي هذه المرحلة يذكر سعيد الصراع العربي الإسرائيلي، الذي طغى على المشهد، وأن الرجل العربي هو سبب المأساة، والبؤرة السوداء، على خريطة المستقبل، والطموح الإسرائيلي في منطقة ما يسمى الشرق الأوسط

[1] الاستشراق، ص281.
[2] الاستشراق، ص285.
[3] الاستشراق، ص286.

الجديد ". وهكذا فإذا كان العربي يحتل مكانا يكفي لجذب الانتباه، فإنه يحتله كقيمة سلبية، فهو يعاين كمخرب لوجود إسرائيل والغرب، أوفي نظرة أخرى للشيء ذاته، كعقبة أمكن تجاوزها لخلق إسرائيل عام 1948"[1]. أي أصبح رمزا للخراب والشؤم في المنطقة، لذلك يتوجب إزاحته، أو إزالته، أو ترويضه، ليواكب المشروع الغربي في المنطقة، ولما يكتم إدوارد سعيد انتماءه إلى وطنه، الذي يظهر بقوة في دلالات عباراته... ، رغم أنه "خارج المكان" بجسده إلا أنه مساير للأحداث بشكل لصيق وفاحص" لقد عوينت فلسطين .. صحراء خالية تنتظر التفجر بالازدهار، وكان يفترض أن القلة من السكان، الذين كانوا فيها رحّلا لا وزن لهم، ولا حق فعليا،

فيالأرض وأنّهملذلك دونواقع ثقافي أو قومي، وهكذا فإن العربي يصور الآن ظلا يطارد اليهودي .. ، وفي ذلك الظل –مادام العرب واليهود ساميين شرقيين– يمكن أن يوضع كل ما يحسه الغربي من ريبة كامنة بإزاء الشرقي"[2].

يروي إدوارد سعيد المأساة الفلسطينية، لتكون آخر بصمة له في أطروحته الاستشراقية، وكيف أن هذه الأرض العربية الإسلامية الطاهرة، يغتصبها اليهود، ويرون أن سكانها الأصليين عالة عليهم فيها، ولا حق لهم في الملكية، وأصبحوا يشكلون هاجسا، وهستيريا مخيفة، ليس لليهود فحسب، ولكن للامبريالية الغربية ككل، لذلك يجب إزالتهم، لإرساء دعائم المشروع الصهيوني، الذي ينص على أن فلسطين ،كما تملي التوراة الحريفة في التراث اليهودي الديني، بأنها أرض الميعاد، التي وعدهم الله بها منذ زمن الرسول موسى النبي عليه السلام.

يقول إدوارد سعيد مواصلا كلامه عن العربي "في الأفلام والتلفاز يرتبط العربي إما بالفسق، أو بالغدر والخديعة المتعطشة للدحر. ويظهر منحلا ذا طاقة جنسية مفرطة، قديرا، دون شك، على المكيدة البارعة والمراوغة، لكنه جوهريا سادي، خؤون، منحط، تاجر رقيق، راكب جمال، صرّاف، وغد، متعدد الظلال. هذه بعض الأدوار التقليدية للعربي في السينما، وكثيرا ما يرى العربي القائد للصوص المغيرين، والقراصنة، والعصاة من السكان

[1] الاستشراق، ص286.

[2] الاستشراق، المرجع نفسه، ص286.

الأصليين. يزمجر في وجه البطل الغربي المأسور، والفتاة الشقراء، (وكلاهما مفعم بالصحة والعافية)، "رجالي سيقتلونكما لكنهم يحبون أن يتسلوا أولا، وينظر نظرة تنقط خبثا وشبقا.. ، وفي أشرطة الأخبار أو أشرطة الأخبار المصورة يظهر العرب دائما بأعداد ضخمة لا فردية، ولا خصائص أو تجارب شخصية، وتمثل معظم الصور الهيجان والبؤس الجماعيين، أو الإشارات والحركات اللاعقلانية (والشاذة حتى اليأس...) ، وخلف هذه الصور جميعا، يتربص خطر الجهاد المهدد، والعاقبة : الخوف من أن المسلمين (أو العرب) سوف يحتلون العالم"[1].

هذا التصوير الإعلامي الذي يسوقه إلينا –سعيد– ليختزل به الصورة العامة للمشهد الشرقي، أو الإسلامي والعربي. مشهد بائس إلى درجة اليأس، وانسداد قاتم يخلق دافعا مرعبا، –لا مناص منه– هو جهاد الغرب للدفاع عن نفسه من الخطر الشرقي المحدق.وفي هذا الصدد تعمل وسائل الإعلام، وهي القنوات الأكثر تأثيرا في العالم على رسم هذه الصورة الشائهة للشرقي، ومن ناحية أخرى غياب هذا الموضوع في النصوص الأدبية الأمريكية التي يرى إدوارد سعيد أنه تم تعويضه بالعلوم الاجتماعية الأخرى، حيث الأدب له لغته الراقية، وعباراته البليغة، إضافة إلى الخيال. مما جعل الأمريكيين الخبيرين بشؤون الشرق الأوسط، يعكفون على دراسة "الاستشراق" بمعزل عن الأدب الذي كان حاضرا بقوة في فترة الاحتلال الامبريالي لفرنسا وبريطانيا، في المناطق الشرقية، وهذا الأدب الذي يتجسد عبر الرواية الكولونيالية، والشعر، كما ذكرنا سابقا مقطعا للشاعر فيكتور هيجو يمدح فيه حملة نابليون بونابارت على مصر"إن أحد الجوانب الباهرة للعلوم الاجتماعية الأمريكية بالشرق هو تجنبه المطلق للأدب، فبوسعك أن تقرأ أكداسا من الكتابة الخبيرة من الشرق الأدنى، دون أن تلقى إشارة واحدة إلى الأدب. ذلك أن ما يبدوا أكثر أهمية بكثير في عرف الخبير المناطقي هي "الحقائق"، التي ربما كان النص الأدبي يشكل قلقلة لها. فالنص الأدبي يتحدث، مباشرة نوعا، عن واقع حي، ومصدر قوته لا كونه عربيا،أو فرنسيا أو انجليزيا، بل إن قوته

1– الاستشراق، المرجع السابق، ص287

[2]الاستشراق، المرجع السابق،ص290، ص291.

لتكمن في قوة الكلمات وحيويتها.. "[1]. وهذا الاتجاه في عزل الأدب عن الدراسة الاستشراقية الحديثة للدوائر الأمريكية الباحثة هو مسار جديد واتجاه شاذ"ويمثل غياب الأدب والموقف الضعيف نسبيا لفقه اللغة في الدراسات الأمريكية المعاصرة للشرق الأدنى على شذوذية سلوكية جديدة في الاستشراق. حيث يجسد استخدامي نفسه للفظة في الواقع شذوذا عن القياس. ذلك أنه ليس ثمة إلا القليل فيما يقوم به الآن الخبراء الجامعيون بالشرق الأدنى مما يشبه الاستشراق التقليدي من النوع الذي انتهى مع جب وماسنيون"[2].

هذا ما يتعلق بالأدب، أما التاريخ فحدث ولا حرج. حيث يتناول سعيد أبحاث المؤرخ لويس برنارد، التي تهتم بقضية الشرق الأوسط، وبالتحديد الموضوع الفلسطيني الإسرائيلي، والذي يظهر في نصوصه على أنه 'حق مشروع لليهود' أخذ الأرض من أولئك البرابرة، المعقوفي الأنوف، والذين لا ينتسبون إلى التحضر. ويبرر الحملات الصهيونية على القدس والمجازر والتوسع الاستيطاني، دون الإشارة ولو لمرة واحدة إلى حق الفلسطينيين، وسياسة الترهيب التي يعانونها، من الجيش الصهيوني. إضافة على بناء المستوطنات ونهب الممتلكات وقتل الأبرياء. أما قضية الانتفاضة والمقاومة فهي في عرفهم تمرد وبربرية وحشية، وربما إرهاب ضد السكان "الساميين"من اليهود والصهاينة. كما أن لويس يصف مفردات الإثارة الجنسية، والغريزة الحيوانية، كلما تناول موضوع يخص العرب. يقول سعيد عنه " فهو مثلا يردد الدعوى العربية ضد الصهيونية (مستخدما اللغة السائرة للقوميين العرب) دون أن يذكر في الوقت نفسه –في أي مكان وفي أي من كتاباته– أنه كان ثمة غزو صهيوني واستعمار لفلسطين على الرغم التعارض مع السكان الأصليين العرب، وما من إسرائيلي ينكر ذلك، لكن لويس المؤرخ المستشرق يسقطه من كلامه، وهو يتحدث عن غياب الديمقراطية في الشرق الأوسط، باستثناء إسرائيل، دون أن يذكر مرة تعليمات الدفاع الطارئة، التي تستخدمها إسرائيل لحكم العرب، وليس لديه ما يقوله كذلك عن (الاعتقال الوقائي) للعرب في إسرائيل، أو العشرات من المستعمرات غير القانونية في الضفة الغربية، وغزة، المحتلتين عسكريا. أو عن فقدان

[1] الاستشراق، المرجع السابق، ص291.

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص 316.

العرب لحقوق الإنسان، وأولها حق الهجرة في فلسطين سابقا. وبدلا هذا كله فإن لويس يسمح لنفسه بحرية الباحث في أن يقول إن "الإمبريالية والصهيونية (فيما يتعلق بالعرب) كانتا مألوفتين لزمن طويل، تحت اسميهما القديمين المسيحيين واليهود"[1].هذا التحيز الظاهر والمعلن إنما يصدر عن نفس مليئة بالعنصرية، والهمجية، والحقد التاريخي الدفين، الذي يحمل في ثناياه انتصارات المسلمين في مختلف الحروب الصليبية، على غرار معركة حطين بقيادة الناصر صلاح الدين الأيوبي.

ويتحدث إدوارد سعيد عن البرامج التعليمية ذات الموروثات أو الخلفيات الغربية سواء من ناحية المنهج المقرر، أو مادة التدريس. حيث تبقى هذه الأدوات رهن التعليمات الاستشراقية، وليتها كانت تمد الشرق بالتطور والثقافة والتكنولوجيا الغربية ربما لهان الأمر، ولكن المؤسف إلى درجة اليأس، أن الاستشراق على هذا النحو أمعن في تحطيم الهويات، من خلال تسميم البرامج التعليمية والتربوية، حتى أصبحت مرعبة متعبة مرهقة مملة، تحتويها ركاكة مطبقة،وحتى من ناحية المؤطرين الذين هم في غالب الأحيان –على حد قول إدوارد سعيد– لم يكونوا أكفاء بالقدر الذي يتيح، أو يسمح لهم، بمزاولة هذه المهن التعليمية. فالتعليم أصبح تعتيم، وكون إدوارد سعيد أستاذ محاضر، ولد من رحم هذه المهنة، ودرس في أكبر الجامعات، وتنقل بين العوالم الغربية والشرقية. أدرك الفوارق والمسافة الكبيرة بين تعليم "هم" وتعليم "نا". "والجزء الوحيد من الشرق الذي أستطيع أن أتحدث عنه بشيء من المعرفة المباشرة. يمكن اعتبار التلاؤم المتبادل بين الطبقة المفكرة والامبريالية الجديدة، أحد الانتصارات الخاصة للاستشراق، فالعالم العربي اليوم كوكب تابع، فكريا، سياسيا، وثقافيا للولايات المتحدة. وليس هذا في ذاته بشيء يدعو إلى الرثاء، غير أن الشكل المحدد بعلاقة التكوكبية نفسه يدعو إلى ذلك، خذ بعين الاعتبار أولا أن الجامعات في العالم العربي تدار بشكل عام تبعا لنسق ما، موروث عن، أو مفروض مباشرة، من قبل قوة مستعمرة سابقة. وتجعل الظروف الجديدة واقعيات المنهج الدراسي قبيحة حتى الرعب تقريبا: صفوف يحتشد فيها مئات

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص 316.

الطلبة، جهاز تدريب مدرب تدريبا سيئا، ومرهق بالعمل، ويتلقى رواتب سيئة، تعيينات سياسية، الغياب شبه المطلق للأبحاث المتقدمة ولسائل البحث العلمي. والأهم من ذلك الافتقار إلى مكتبة واحدة لائقة في المنطقة بأسرها .."[1]. وبعد هذا النص يتحدث إدوارد سعيد على حجم النزوح الطلابي إلى دول الغرب، وعلى رأسها الولايات المتحدة، أي أن زبدة هذه المجتمعات ستكون في يد الدول الإمبريالية، تستفيد من خبراتها، أو تسعى بشكل مباشر إلى تأطيرها، وتكوينها حسب المزاج الغربي، أوالاستشراقي.

وفي مجمل الحالات، الغرب يجني الثمار، والشرق يجني الدمار.فإما أن يصبح العالم الشرقي بدون قادة، وطبقة راقية تسيره، وإما أن يقوده طلبته الذين تخرجوا من جامعات أمريكا وفرنسا وبريطانيا .. ، وأصبحوا ينظرون إلى مجتمعاتهم الأصلية نظرة دونية، مستقاة من الخلفية الثقافية، التي تأثروا بها في فترة مكوثهم هناك، أو ما يسمى بالصدمة الحضارية، التي ليس بوسعهم مقاومتها. فيستسلمون، ويفرغون من الداخل، ثم يمتلؤون بشكل، أو بآخر بالزخم ، أو الغزو الثقافي الغربي والغريب. إضافة إلى أنهم يجدون أنفسهم غرباء في مجتمع متحضر وكبير، ويقومون بالالتحاق بالركب عن طريقة تقليد ومحاكاة هذه المجتمعات شكلا ومضمونا. إلى درجة التنكر للأصول والاحتشام بها.. ، والمشكل أن الغرب، وإن كان قد سبق في هذا العصر المجتمع الشرقي بمراحل عديدة، في مختلف الميادين والحقول، فإنه ما ينفك يدرس التحولات والمستجدات في عالم الشرق، ويعمل على إمساك دفة قيادتها ليوجهها حسب مزاجه وأهدافه،والتي هي للأسف تعمل على ترقيته، على حساب تحطيم الشرق، اقتصاديا بالدرجة الأولى،وسياسيا وثقافيا بدرجات متفاوتة. حسب المخطط الإمبريالي، أو ما بعد الإمبريالي الأمريكي. ولكن للأسف ليس هناك ردة فعل شرقية، أو عربية جدية، ضد هذا التيار. وكأن المجتمع الإفريقي والآسيوي في غياب تام، عن مجريات الواقع المحيط "وإنها لصدمة موقظة أن نجد على سبيل المثال، أنه فيما توجد عشرات من المنظمات لدراسة الشرق العربي والإسلامي في الولايات المتحدة، فليس ثمة مؤسسة واحدة في الشرق لدراسة

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص319.

الولايات المتحدة وهي أعظم المؤثرات الاقتصادية والسياسية إطلاقا في المنطقة. وأسوأ من هذا لا يكاد يكون ثمة من معهد ذي مكانة حتى متواضعة في الشرق مكرس لدراسة الشرق نفسه"[1].

أما من الناحية الاقتصادية فرغم أن الدول العربية –التي يتخذ منها إدوارد سعيد مجاله الدراسي بحكم الدراية والمعرفة بها– فهي دول منتجة إذ أنه 65 % من احتياط النفط العالمي موجود في أعماق شبه الجزيرة العربية

والتي أصبح يطلق عليها الشرق الأوسط فإن الولايات المتحدة الأمريكية USA تجعل من هذه المنطقة سوقا كبيرا لمختلف منتجاتها على أنها تستورد النفط بأثمان زهيدة. إضافة إلى اليد العاملة الرخيصة التي يتم تشغيلها هناك لخدمة المتطلب الأمريكي،"طغيان الاستهلاكية في الشرق، فالعالم العربي أو الإسلامي عامة عالق في صنارة السوق الغربي. وما من أحد يحتاج إلى التذكير بأن النفط، المورد الأعظم للمنطقة، قد امتص امتصاصا كاملا ضمن اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية.. ، وقد جعل هذا من أثرياء النفط العرب عمليا مستهلكين هائلين للصادرات الأمريكية. والنقطة التي أثيرها هي أن العلاقة وحيدة الاتجاه. تمثل فيها الولايات المتحدة زبونا مختارا لعدد ضئيل جدا من المنتجات (النفط، اليد العاملة) ويمثل العرب مستهلكين شديدي التنوع لعدد هائل من منتجات الولايات المتحدة المادية والعقائدية " [2]، وهذا كان له انعكاس على الذهنية والشخصية العربية حتى غدا العربي يرى نفسه من مرآة السينما والإعلام الغربي هو ذلك اللص المعتوه الأحمق الشاذ والساذج على طريقة أفلام هوليود وهنا تكمن المأساة في رؤية المرء نفسه من منظور الآخر الشائه والتأثر بهذه الرؤية إلى درجة مسايرتها من أجل معرفة نفسه أكثر من خلال الأفلام والأعلام والكتب الاستشراقية"كان لهذا عواقب كثيرة ثمة عملية تسوية هائلة للذوق في المنطقة، متجسدة لا في الترانز ستوارت، والجينز الزرقاء، والكوكاكولا فحسب، بل كذلك في الصورة الثقافية للشرق التي توفرها وسائل الإعلام الأمريكية، وتستهلكها دون تفكير جماهير التلفاز الضخمة. وليست المفارقة

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص321.

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص321.

الضدية المتجسدة في أن يعتبر العربي نفسه عربيا، من النمط الذي تنتجه وتسوقه هوليوود سوى النتيجة الأكثر بساطة لما أشير إليه .. وهناك نتيجة أخرى ... طبقة من المتعلمين يوجههم تشكلهم الفكري نحو إرضاء حاجات السوق "[1].

وهذه الطبقة المثقفة تشكل فئة الانتهازيين والبراغماتيين الذين هم مستعدون لبيع أفكارهم والمتاجرة بها خارج نطاق القيم والمبادئ وروح الانتماء العرقي أو العقدي والثقافي فهم مولعون بالماديات، وهدفهم الأساس هو تغطية حاجاتهم الاقتصادية، دون مراعاة الجو السياسي والثقافي الذي يحيط بهم، على طريقة : "الغاية تبرر الوسيلة " وثمة تعزيز قوي جدا لهذا في التبادل الاقتصادي، والسياسي، والاجتماعي : الشرق الحديث، بإيجاز يشارك في شرقنة نفسه"[1].وذلك كما وضح سعيد في مختلف المجالات، أن الشرقيؤكد ذلك من خلال تبعيته للغرب، واحتقاره لنفسه والحكم عليها سلبا، ورؤيتها بعيون الاستشراق الإمبريالي، كل هذا الاسترسال الذي ضمه كتاب الاستشراق في مئات من الصفحات يفضي بالكاتب إدوارد سعيد لأن يختتم بحثه هذا، بطرح عدة تساؤلات،حتى لا يترك للقارئ ضحية للشتات الفكري، أو التعصب و العدائية، أو الضدية للاستشراق والمستشرقين، وهذا التساؤل:" ما البديل عن الاستشراق؟"[2].

هل هو الاستغراب أم القطيعة والانغلاق داخل قوقعة الثقافة المحلية، ثم ما دور وهدف الكتاب؟ يقول إدوارد سعيد مجيبا : "لقد كان مشروعي وصف نظام معين من الأفكار. لا إزاحة النظام، وإحلال نظام آخر جديد محله،.. إن الاستشراق كما وصفت خصائصه في هذه الدراسة. وما من مهرب لأحد من التعامل مع الانقسام إلى شمال/جنوب، إن لم يكن غرب/شرق، من يملكون ومن لا يملكون، الإمبريالي/المناهض للإمبريالية : الأبيض/ الملون.

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص322.

[2] الاستشراق، مرجع سابق، ص322.

وليس بوسعنا أن نتجاوز هذه الانقسامات بالتظاهر بأنها غير موجودة،بل على العكس. فإن الاستشراق المعاصر يعلمنا الكثير عن عدم الأمانة الفكرية، الناتج من المراءاة بهذا الخصوص، والذي تكون نتيجته زيادة الانقسامات حدة وتوترا، وجعلها أثيمة، ودائمة في آن واحد"[1].

إذن أساس الدراسة الاستشراقية التي بثها الغرب الامبريالي ، هو الصراع والشقاق وتوسيع الهوة بين الغرب والشرق. وهذه الفوضى كلها من إنشاء الغرب، وليس للشرق فيها أمر، إلا الانصياع، وفق المسلك التي يريد الغرب أن يدفعهإليه، بسبب أنه من إنتاجه، ونشأ أصلا لخدمته وسعادته، على حساب إمكانياته المحلية، ثرواته، وثقافته. ثم يطلق إدوارد سعيد تحذيره الأخير في نهاية بحثه على شكل توجيه، وتأطير للقارئ حتى لا تكون له ردة فعل مخيبة أو سلبية، نتيجة للنفور من الاستشراق، الذي قد يدفع للاستغراب، وإنشاء غرب، كما فعل المستشرقون في عملياتهم لإنشاء شرق حسب ما يريدون "وإذا كان لهذا الكتاب من فائدة في المستقبل، فسيكون ذلك له بوصفه إسهاما متواضعا في طرح هذا التحدي، وبوصفه تحذيرا من أنظمة فكرية كالاستشراق، وإنشاءات القوة، والاختلافات العقائدية –وكلها أصفاد من سبك العقل وصياغته– يمكن أن تضع وتطبق وتحرس بسهولة مفرطة، وفوق كل شيء فإني آمل أن أكون قد أظهرت لقارئي، أن الجواب على الاستشراق ليس الاستغراب، فلن يجد شرقي سابق العزاء في فكرة أنه بعد أن كان هو نفسه شرقيا، فثمة –احتمال قوي جدا– بأن يقوم بدراسة "شرقيين" جدد. أو غربيين من صنع يديه، وإن كان لمعرفة الاستشراق من معنى فإنه ليكمن في كونها تذكيرا بالانحلال الإغوائي للمعرفة. أي معرفة، وفي أي مكان وفي كل زمان"[2].

ويختم إدوارد سعيد كتابه، بهذا المقطع الأخير محذرا من التأثير السلبي لكتابات المستشرقين ومؤلفاتهم. ويمكننا أن نستقرئ نصوصه الكثيفة، وليس ذلك بالأمر اليسير في ظل الترجمة الخاصة لكمال أبو ديب، والتي تحوي مناعة

[1] الاستشراق، مرجع سابق، ص324.

[2] الاستشراق، المرجع السابق، ص325.

مستعصية على البوح، بكل الدلالات. وتستدعي من القارئ أن يتداولها مرارا، حتى يستخرج منها –حسب قدرته – مغزى النص الأصلي، أو على الأقل يقترب من ذلك. ومن توجيهات إدوارد سعيد التي ركزّ عليها في نهاية كتابه وهي تجنب ردة الفعل السلبية، على التأثير الاستشراقي، بإلغاء المؤلفات الاستشراقية، أو مقاطعتها، أو حتى القيام بعمل عكسي، والمتمثل في الاستغراب، أي محاولة بناء خطاب غربي، انتقاما للاستشراق.

وفي هذا الصدد يقول أبو الحسن الندوي في مقال له :"إن الرد على التأثير السلبي لكتابات المستشرقين يجب أن يقوم على الدراسة والتقصي، والابتعاد عن ردود الفعل السلبية الآنية. ولتجنب التأثير السلبي لكتابات المستشرقين، يتوجب على الباحثين العرب أن يقدموا للقارئ، والمتلقي، المعلومات الدقيقة والأكيدة عن الاستشراق، مع مراعاة الجوانب المحمودة، التي يمتاز بها بعض المستشرقين، ويجب أن تكون دراساتهم جيدة، وتمتاز بسعة الأفق، وبعد النظر، وعمق الدراسة، وأصالة التثبت، والتأكد من المصادر وصحتها واستدلالها، وأن تكون حاملة لجميع نواحي الإتقان والصحة، بعيدة عن الأخطاء والنواقص العلمية "[1].

2- أبو الحسن الندوي : مقالات وبحوث حول الاستشراق، ترجمة وتحقيق سيد عبد الماجد الغوري، دار إبن كثير، سلسلة من تراث العلامة الندوي (دمشق – 01-01-2012).

الفصل الثاني

تجربة إدوارد سعيد النقدية

- تمهيد
- نقد الاستشراق وتفكيك أنساقه
- الخلفية الثقافية لإدوارد سعيد
- العالم والنص والناقد (النقد الدنيوي)
- الأنسنية والنقد الديمقراطي
- المثقف والسلطة
- الثقافة والامبريالية
- الثقافة والامبريالية والأدب الكولونيالي
- آداب ما بعد الكولونيالية
- إدوارد سعيد موسيقيا

تمهيد:

إن تجربة إدوارد سعيد لا يمكن حصرها في مجرد بحث أو مخطوط ندلي من خلاله بأننا قد استوفينا حضنا من الدراسة الجادة لأعماله .. ، ولكن نحاول في هذا العمل أن نبرز الأهم، أو مجموعة مهمة من الدراسات والأساليب والمناهج والفلسفات التي كانت بصماتها تظهر في كتابات إدوارد فتميزها، إذ أن التزاوج بين الأدب والفلسفة يمكنه أن يخلق نصوصا متوازنة، وبين اتجاهين أو أكثر في آن واحد ... ، وهذا ما نلمسه في أعمال سعيد، وأكثر من ذلك، عمقه الدراسي واقتداره على تشخيص الحالات المستعصية، واستعانته بعدة حقول علمية في ذلك، كالتاريخ، الأدب، علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا. و رغم أن العصر الحديث هو عصر التخصصات إلا أن سعيدا كان مستوعبا لكثير منها في آن واحد، ويظهر ذلك من خلال أعماله التي يعمل على دراستها من عدة أبعاد، حتى ليبدوا هذا البحث عميقا وكثيفا ومركزا. فلا تكاد تجد ثغرة أو منفذا يمكنك الولوج منه، أو سده. وهذا يدل على الخلفية المعرفية والاقتدار والكفاءة والموسوعية. ونحن بهذا التعليل لا نبالغ في شيء ولكن شهادة الأعداء من المستشرقين المتعصبين والكتاب والإعلاميين الغرب، تقر بهذا، قبل شهادة الأصدقاء. إضافة إلى جرأة سعيد في فضح الحقائق المخبأة عن قصد، ومحاربة التعتيم والنظرة العنصرية والفوقية الغربية تجاه المجتمع الشرقي، (الموطن الأصلي لسعيد) . "هؤلاء الذين كانوا منتجين على الدوام، والمحرومين في نفس الوقت، هؤلاء الذين كانوا يمنحون الطعام دائما، وكانوا جياعا دائما. تلك الجموع الإنسانية العظيمة التي قطعت الطريق على مدى تطور التاريخ، من أجل اكتشاف قيمتها، واكتشاف حقوقها الإنسانية " [1].وأستدرك فأقول أن الجموع الشرقية العظيمة هي التي دفعت الضريبة الكبرى من أجل الحياة الكريمة من بين تلك الجموع الإنسانية .. ومن حق سعيد وهو ابن

[1]- الدكتور علي تقي الدين شريعتي، بناء الذات الثورية. ترجمة: الدكتور إبراهيم دسوقي شتا، دار الأمير، بيروت- لبنان، ط.1، 2005، ص26.

المجتمع الشرقي ، كما يقر بذلك في كتابه :- خارج المكان - أن يعيش المأساة التي تكابدها الجموع العظيمة التي وصفها علي تقي الدين شريعته بقوله :"الجموع التي ليس لها إلا العمل والجوع وليس لها إلى أن تركب"[1].

وإن كان إدوارد سعيد قد قضى الشطر الأكبر من حياته (خارج المكان) على حد وصفه، فإن خروجه زاده التصاقا بقضيته، ودفاعا عنها، وتخطيا لكل الحواجز والعقبات من أجل إيصال رسائله إلى الظالمين والمظلومين كل حسب موقفه كل حسب موقفه وموضعه. ولا أدل على ذلك من تلك الصورة المشهورة الملتقطة له من جنوب لبنان عند الحدود مع الأراضي الفلسطينية المحتلة من طرف العدو الصهيوني. إنه تعبير وجداني عن الانتماء العميق، رغم وحشة البعد الجغرافي أو المكاني، إلا أنه يفضي بقرب الصلة، التي تم قطعها يوما ما، بفعل الظروف الاجتماعية العائلية، كما يظهر ذلك في كتابه -خارج المكان- وكثيرا ما كان يتحدث عن ذلك الصراع الداخلي بين كونه أمريكيا أو فلسطينيا، واستمر هذا الصراع إلى أن تحول هاجسا يقض مضجعه كل ليلة." إنه من الملائم أن أقول لقرائي العرب أن فلسطين، رغم أنها لا تذكر مرارا، تؤدي دورا تأسيسيا هاما في تفكيري بالعلاقة بين الثقافة والامبريالية"[2]. ودائما فيما يخص صراع الهوية عند سعيد يقول:" لقد امتلكني هذا الشعور المقلق بتعدد الهويات ومعظمها متضارب طوال حياتي، ورافقته ذاكرة حادة، أي كنت أتمنى، وبشكل محموم، لو أنّنا جميعا عرب كاملون أو أوروبيون كاملون أو مصريون كاملون، أو أمريكيون كاملون "[3]، ويتجلى الانتماء في كل كتاباته وهو الذي انقلب على الشكلية النصية (الشكلانية) ونظرية موت المؤلف، ودراسة النص، خارج سياقاته ومؤثراته، وخلفياته. أي الدراسة النسقية المحضة. واتجه لتأييد السياق التي تمخض عنه النص، وعدم جدوى دلالاته إذا تم اقتطاعها من السياق التاريخي والاجتماعي والنفسي "لا يمكن أن ينفلت تماما من التأثيرات التكوينية لانتمائه العرقي وتنشئته الدينية، ويجب بالتأكيد أن يمتد الأفق النقدي إلى ما بعد قيود الرابطة العرقية والعائلية. ولكن لا يمكن للناقد أن يقف كليا خارج هذه القيود أو أن يخلع هذه القيود كما تخلع الثعابين جلدها ولذلك فالنقد مستحيل دون وجود تضامن مع مجتمع ما "[4]، إذ الكاتب مهما كان موضوعيا في طرحه لا تخلوا عباراته من الإدلاء عن خلفيته، وسعيد لا يجد حرجا في ذلك، لأنه هو الذي يقر ويجهر بهذا، ولا يتوانى عن الإشارة تصريحا وتلميحا عن مكنوناته، ودفاعه عن القضية المقدسة، التي وكل نفسه لحملها وتحملها ، فاضحا سموم الاستشراق

[1]- المرجع نفسه، ص26.

[2]- الثقافة والإمبريالية، ص11.

[3]- إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة: فواز الطرابلسي، دار الآداب، بيروت- لبنان، ط.1، 2000، ص26.

[4]- وليام هارت: إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية للثقافة، ص29-30.

بكل منهجية علمية ولغة أدبية راقية وبليغة، وهو الذي تخرج من أرقى الجامعات، وكان في حياته أستاذا محاضرا في مختلف أنحاء العالم، مما وسع نظرته للحياة، إذ أنه راقب ودرس الغرب عن كثب قبل أن يتخصص في دراسة أعمال المستشرقين ثم مواجهتهم بحقائق عن تجاوزات ومخالفات ارتكبوها عن عمد خدمة للمد الغربي الامبريالي

في منطقة الشرق الذي ينتمي إليه ويتبناه "إنه من القلائل إن لم يكن الوحيد الذي خاطب الغرب بلغته ومنهجه العلمي الحديث، فكشف الغطاء عما يتخفى تحت قناع الثقافة، والدراسة العلمية من مواقف سياسية لا ترمي إلا إلى تحقيق مطامع أو مصالح مادية صرفة. وبهذا ساهم في توطيد الهيكل الحالي لما يسمى "النقد الثقافي"، وهو يربط بين الأدب بصفة عامة، وبين النزعات البشرية المنحطة التي يدينها الغربيون بألسنتهم ويؤيدونها بقلوبهم وأفعالهم ، مثل العنصرية والتعصب الفكري"[1]، ولعل هذا الانتماء الوطيد مع الأرض –المكان، هو الذي خدم النقد الثقافي عند إدوارد سعيد، وطعم أفكاره، وصقل رؤيته، وكان له الموجه، "لا يمكن أن تنتج معرفة منقطعة عن جذورها المزروعة في عمق مادية التاريخ وجغرافيا المكان، وأن المعرفة الأدبية، أو أية معرفة أخرى لا يمكن رؤيتها كشيء مجرد، بل كشيء منبثق من حاجة وجودية، تختلط فيها السياسة بالاجتماع"[2]، إذن هذه هي القاعدة الخلفية، والمنطلق لأعمال إدوارد سعيد التي تتضمن الاستشراق أو تدعمه من مختلف جوانبه ولواحقه، حتى ليقال أن كتاب الاستشراق هو الكتاب المؤسس لمرحلة ما بعد الكولونيالية وفضح ثقافة الاحتواء الإمبريالية، وإبراز عيوبها الخارجة من رحمها، وقوة الحجة، مع الحفاظ على الرقي اللغوي والدلالي، وتكسير صنم المركزية الغربية ولغة الفوقية، التي تملي على الآخر كيف يكون وفق المشيئة والذوق الأوروبي " لقد صدر إدوارد سعيد في رؤيته النقدية وعمله المعرفي عن تصور يرفض النظريات الأصولية في فهم الأدب والتاريخ، أي تلك التي ترى الأصل الغربي مصدر إشعاع يغمر بضيائه الثقافات الأخرى "[3].

[1]- إدوارد سعيد – الاستشراق– ترجمة محمد عناني. رؤية للتوزيع والنشر، ط.1، 2006، ص18. المقدمة.

[2]- موريس أبو ناصر – التنويري إشكالاته ودلالاته، ص213.

[3]- فخري صالح. إدوارد سعيد دراسة وترجمات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 2009، ص17.

لقد كان إدوارد سعيد قاسيا في نقده، والموقف والظروف المحيطة تقتضي أن يكون كذلك، ردا على الهجوم الهمجي للمستشرقين على التراث الشرقي و الإسلامي بالخصوص. ذلك أنهم أوغلوا في صناعة شرق لا أساس

له إلا في مخيالهم السقيم، والخطاب الاستشراقي الموجهة إلى طرفين : الجانب الغربي القارئ للثقافة الشرقية الذي سيحمل رؤية سوداوية من مختلف النواحي عن الشرق، و الجانب المحلي – السكان الأصليين – الذين هم محل الدراسة وموضوعها. فإما أن يحبطوا وينهزموا أمام هذا الخطاب، أو يشرقنوا أفكارهم، وينظروا إلى ذواتهم من خلال كتابات الاستشراق، وكلاهما شر. وربما يقع ما يحذر منه سعيد أن يلجأ قارئ الاستشراق إلى البحث عن ردة فعل، وتكون إما بالقطيعة مع هذه المواضيع وعدم تناولها جملة وتفصيلا، وإما يقع ما يسمى " الاستغراب"، أي تكوين خطاب يمشي في الخط العكسي للاستشراق، كردة فعل انتقامية. والعنف الذي يسوقه إدوارد سعيد في كتاباته خاصة "الاستشراق" يسعى إلى تكسير القوالب التي صنعها الغرب من أجل خلق اختلال في شخصية المتلقي الشرقي للاستشراق" فإن إحدى مهمات المثقف هي بذل الجهد لتهشيم الآراء المقولبة والمقولات التصغيرية، التي تحد كثيرا من الفكر الإنساني، والاتصال الفكري"[1]. ومن ذلك يريد أن يحرر قارئه من التأثير الثقافي السلبي للاستشراق ويخرجه من رباط التبعية وتصديق الأوهام التي تملى عليه من مختلف القنوات، وبشتى الأشكال، والتي يتعمد الغرب رسمها عن الشرق. وهي ليست قدرا محتوما ينساق الشرق إليه مرغما، للاستكانة تحت وطأته. وعن هذه الرؤية يقول عبد الله العروي: "نقول إن الغرب ممثلا في كبار مفكريه، يرى أن الإسلام دينا شرقيا قبليا طبيعيا، ما يميزه بالأساس هو العبودية والاستسلام والتوكل. كل شيء فيه يعزى للخالق ولا شيء فيه ينسب حقا وفعلا للإنسان. يقولون أيضا (أي مفكروا الغرب) إن الإسلام دين الفطرة لكنهم يفهمون من الكلمة ما سبق ذكره.."[2].

[1]- إدوارد سعيد، صور المثقف، تعريب غسان غصن، دار النهار، بيروت– لبنان، 1996، ص13.

[2]- عبد الله العروي، مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط.2، 1997، ص37.

وإن كان الاستشراق يمس جميع جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع الشرقي، فإن الجانب الديني الذي يطال الإسلام، هو الوتر الحساس الذي يعزف عليه المستشرقون الغرب، لأن الإسلام

دين حصين فإنهم يحاولون تفكيكه من الداخل دون جدوى، ولذلك يرسمون عنه هذه الصور القائمة والمنفرة والكاذبة، مما ينعكس، كما يقول سعيد، على الأذهان المحدودة التي تفتقر إلى الصقل. فإذا تأثر القراء بهذا البهتان فذلك يكون نذير شؤم لا على الثقافة المحلية فقط ولكن على رؤية الناس لها من المنظور الغربي، ويكون الأثر هو الانحراف الفكري والانسياق وراء المعالم التي وضعها الغرب لتوجيه الشرق. فبدل أن يكون أهل الشرق هم حماة الإسلام والثقافة الشرقية، فإنهم يطعنون فيها ويفسدونها من حيث يريدون إصلاحها. من خلال ترديد هذه الدسائس الدخيلة التي "ما أنزل الله بها من سلطان"[1]. ويقدم الأديب 'دوستو ييفيسكي' تصويرا لهذه الحالة أو الوضعية الخطيرة فيقول :" أنا إنسان، لأنني أكذب، ولئن يكذب المرء بطريقته الشخصية، فذلك يكاد يكون خيرا من ترديد حقيقة لقنه إياها غيره، أنت في الحالة الأولى إنسان، أما في الحالة الثانية ببغاء لا أكثر.. ، نحن جميعا بغير استثناء سواء في ميدان العلم أو الثقافة أو الفكر أو العبقرية الخالقة، أو المثل الأعلى، أو الرغبات أو الليبرالية، أو العقل أو التجربة. مازلنا في صفوف الإعدادية..، نحب أن نعيش على حساب عقل وأفكار الآخرين، تعودنا على ذلك .. ، أليست هذه هي الحقيقة ؟ "[2]. ولو أن حال، من يذكرهم الكاتب، هم من يرددون "الحقيقة" فينعتهم بالبغاء، فكيف بمن يرددون الأباطيل والأوهام؟، وهل يمكن تصنيفهم أو تشبيههم؟. وبالمقابل لهذا فإن الصدق والصراحة تقتضي الجرأة، حتى في الأمور الخاصة والمحرجة، كما يقول إدوارد سعيد في كتابه "خارج المكان"، والذي يسرد فيه سيرته الذاتية بإطناب وبإسهام كبيرين، وأحيانا يتطرق إلى دقائق الأمور وصغارها، من أجل تقديم صورة كاملة عن ذاته، دون عقدة أو تعقيد. والدافع، كما أسلفنا، إحساسه بضيق النفس الذي استقاه

[1]- سورة يوسف من الآية 40

[2]- ميخاييلوفيتش فيدور دوستو ييفسكي – الجريمة والعقاب – الجزء الأول، اقتباس حميد بوحبيب، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2012، ص248.

من الوضع الاجتماعي والسياسي لوطنه الأصلي "فلسطين". في ظل الممارسة الصهيونية العدوانية، وهذا الإحساس بأنه مطارد وغريب وشريد بين دول العالم، خاصة عندما عاد إلى القدس بعد عقود من غيابه، وقد

قابلته شرطة الحدود اليهود بأسئلة، وهم يفحصون جواز سفره الأمريكي: متى كان تاريخ خروجه من القدس؟ . وكان دائما، كما أفصح في كتابه (خارج المكان)، يجيب حسب ما يقتضي الموقف، لأن الوضع لا يسمح للصدام معهم ، وإلا سيتم إبعاده .

وهو يتردد بين أحياء القدس، زار مسقط رأسه، وأماكن كثيرة تذكره بصباه. ولم يفته أن يدون ذلك كله، ويضيفه إلى مؤلفه، وقد ذكر المترجم فواز طرابلسي ذلك في مقدمته لكتاب "خارج المكان"[1]، لادوارد سعيد.

[1]- إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة: فواز الطرابلسي، دار الآداب، بيروت- لبنان، ط1، 2000، المقدمة .

نقد الخطاب الاستشراقي وتفكيك أنساقه

لقد أمعن إدوارد سعيد في مواجهة الثقافة الغربية التي تعمل على بناء خطاب استشراقي لإعادة صياغة الشرق حسب الطلب، والطلب هو التهيئة للاحتلال والتبعية ونهب الثروات، "والقابلية للاستعمار" –كما يسميها المفكر مالك بن نبي. فكان كتاب الاستشراق الذي ترجمه "محمد عناني" بمثابة نقطة تحول في الخطاب ما بعد الكولونيالية. واعتمد سعيد على اقتداره اللغوي الضليع وسعة معرفته، وموسوعيته على تفكيك وتحليل هذا الخطاب، والتغلغل في أعماق دلالاته واستقرائه، من أجل الكشف عن خباياه وسبر أغواره. وكانت هذه التجربة النقدية لإدوارد سعيد قد طالت عدة جوانب معرفية من مؤلفات المستشرقين الفلسفية والأدبية وحتى الفنية منها على غرار استعمال بعض التراكيب، والتسميات المستعارة من عالم الموسيقى، وقد كان سعيد موسيقيا بارعا وذواقا للفن، وقد برز هذا الذوق الفني في عمله النقدي بشكله ومضمونه وحسه، فعبارة :"القراءة الطباقية " هي إحدى الاستعارات الموسيقية التي أدرجها إدوارد سعيد في دراساته النقدية، وأعطاها مكانة جديدة وخاصة موازاة لتلك المكانة السابقة، التي كانت تحظى بها في حدود عالم الموسيقى، إضافة إلى توسعه في النقد الأدبي. فلم يعد أسير الحدود النقدية المتعارف عليها، إذ أن مواضيعه في مضمونها تطال حقول معرفية متنوعة ومختلفة، على غرار الفلسفة، الأدب و النقد، الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع .. ، وهو متمرس على حسن توظيف هذه المعارف المختلفة، وجعلها منسجمة متناسقة في وعائه النقدي الموحد. حتى تغدوا هذه الفوارق مكملة بعضها البعض، لخدمة البناء الكلي للنصوص السعيدية (نسبة إليه)، وليس أدل على ذلك من عرض المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، في مقال كتبه الدكتور محمد بن عبود وعبد العزيز السعود، جاء فيه: " إن كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق) زيادة على تحليله للمنهج الاستشراقي يعكس فهما عميقا وإدراكيا لميدان الاستشراق . كما يتجلى عند الكاتب، من خلال إشاراته إلى عدد مهم من المستشرقين، وفضلا عن ذلك، المؤلف له إطلاع واسع على تاريخ العلوم الإنسانية، والتطورات التي مست مناهج هذه العلوم، ما سهل عليه تقييم وانتقاد الاستشراق في إطاره

العام. ثم إن أصله الشرقي مكنه أيضا من كشف وتحليل الشرق ومقابلته مع حديث المستشرقين. فالكتاب يحتوي على مختارات واقتباسات من أبرز المستشرقين (فرنسيين وبريطانيين) ، لا تنجو من نقده، أو نقد المصادر التي أخذت منها "[1]، وهو-سعيد- لا يتوانى عن ذكر حالته في مختلف المواضع، وجذوره المقطوعة من بلاد الشرق والمزروعة كيفما اتفق في عالم الغرب -أمريكا-، وهذا إن كانت له سلبيات انعكست على معنويات إدوارد سعيد، وقد ظهر ذلك جليا في كتاباته. إلا أن هذه الحالة الممزقة، أو الموزعة بين عالمين، جعلته ملما بالموضوع الاستشراقي من مختلف جوانبه، بل نستطيع أن نقول أو نصف وضعه أنه كان خادما "للاستشراق"، ذلك الكتاب الذي أحدث ضجة وثورة ثقافية، وهز الكيان الغربي من دعائمه وفي عقر داره، ولولا هذه الوضعية الاجتماعية لإدوارد سعيد المتشابكة والمضطربة، والتي تشبه ما يسمى في لغة الرياضيات:"حالة عدم التعيين"، لما تمكن من إخراج مؤلفه بهذا العمق والتفصيل والحذاقة، ولولا ذلك لمر مرور الكرام، ولأغفل الكثير مما يتوجب عليه ذكره وإقراره خدمة للحقيقة، وإخلاصا لأفكاره، التي دفع حياته للدفاع عنها، وقد تعرض لتهديدات، وبقي وفيا لتوجهه حتى خرج من الدنيا، وكان بعد موته أكثر حياة وأكثر حضورا. فكان كتابه القاعدة الأساس لعدة دراسات في دول الغرب، وكذا دول العالم الثالث. ولا نبالغ إن قلنا أن كثيرا من الكتاب الهنود سبقوا الكتاب العرب في الدراسة والاستفادة من أعمال سعيد، الذي يرد على صاحبي العرض المغربيين الدكتور أمحمد بن عبود وعبد العزيز السعود قائلا: " إن جزءا من مشكلتي هنا، بأبسط طريقة، وعلى مستوى شخصي، أنني منفي، فلا جذور لي في الأساس كشخص. لقد كان عملي كفلسطيني يتركز على كفاح سياسي ملموس، حاولت المساهمة فيه بكتاب أصدرته حديثا حول فلسطين ، وتحدثت فيه، كما فعلت في كتاب (الاستشراق) إلى، وحول، ومن داخل النظام الغربي، ذلك أنني بكل أسف، موجود هناك. إنني أدرس في جامعة أمريكية، وطلابي في الأدب الإنجليزي، غربيون دون استثناء (فكم من العرب اليوم، الذين يأتون إلى الغرب مهتمين بدراسة الأمور التي

[1]- د.أمحمد بن عبود وعبد العزيز السعود، عرض حول كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد 65. 1981م، ص14.

أدرسها، وأكتب عنها؟. إن عددهم قليل ويعتبرني البعض من طلائل النضال في سبيل القضايا العربية والفلسطينية ضد الإمبريالية في قلب الغرب . هنا مكمن قوتي وفي الوقت نفسه تلك حدودي إني متعطش للتعاون مع الإخوان والأخوات المثقفين في العالم العربي، ولكن لا ألحق إلا القليل، ولقد أخذت رسالتك لعقد من هذا الربط"[1]. وإن كانت هذه رسالة مقتضبة فإنها تحمل من الدلالات ما تجعلنا نتوقف، ونحيل أي موقف من مواقف إدوارد سعيد إلى الظروف الاجتماعية والثقافية التي يعيشها، والغربة عن الوطن التي أورثته حالة صراع وبحث عن الأنا الممزق في وحشة المكان وشتات الهوية ..!

ولإدوارد سعيد فضل السبق في تفكيك فخ الاستشراق الذي كان سيستمر إلى مدة أطول وينشر سمومه – حسب تعبير أنور الجندي في كتابه سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية – فإن كتاب الاستشراق كشف أحابيل اللعبة وعجل في رحيلها وهو ما اضطر المستشرقين وممثلي الغرب الإمبرياليين لإعادة النظر في مشروعهم الاستشراقي، الذي لم يترك له سعيد فرصة أخذ نفس أو الانفلات، .. ولكن كان له بالمرصاد بحيث احتوى الموضوع ببراعة منقطة النظير، وقام بتفكيكه وتحليله من مختلف الزوايا، مستعينا بالخلفية المعرفية والتجربة الاجتماعية في العالمين الشرقي ثم الغربي، ما مكنه من توجيه ضربة قاصمة للاستشراق الإمبريالي، وأهم نقاط قوته ومخططاته، وأساليب تناوله الشرق، والمصادر والمراجع التي يعتمدها من أجل المراوغة واللعب على أذقان محدودي المعارف من أهل الغرب، حتى يأخذوا أفكارا ويكوّنوا صورا قاتمة في أذهانهم عن الشرق ومن أهل الشرق حتى يتشرقنوا ويعرفوا أنفسهم من خلال المنظور الغربي فيستسلموا للمؤثرات السلبية للاستشراق فيهزموا ليكونوا ضحية هذه المؤثرات وحتى يسهل احتواؤهم واستغلالهم لصالح الغرب وضد أنفسهم وقراءة أو قراءات لسعيد للمشروع الاستشراقي الذي يعتبر الجانب الروحي للمشروع الاستعماري أخذت عدة أبعاد فنظرته كانت من زوايا واسعة ومتعددة حتى أن كثيرا من الكتاب عسر عليهم الرد على هذا الكتاب الذي أحدث صخبا وصدم الكبرياء الغربي

[1]- عرض حول كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، المصدر نفسه، ص15 – 16.

من حيث لم يحتسب .

"ولسعيد عموما، قراءات ما بعد بنيوية وماركسية وقراءات في مجال الدراسات الإقليمية (شرق أوسطية وآسيوية) وكلها تتمحور إلى حد بعيد حول الاستشراق"[1]، ولم تكن البنيوية والاتجاه الشكلاني الروسي ليخدم المشروع السعيدي الذي يعتمد على الخلفية الثقافية للنص التي استمدت الدلالات اللغوية منها حياتها، فلا يمكن بحال من الاحوال، سبر أغوار عمل كتابي، بدون العودة الجادة إلى الظروف التي هيأت لولادته، فنظرية موت المؤلف تعزل النص عن سياقاته وبالتالي يصبح مجرد ترف ونسق لغوي يتمثل بالأسلوب والبلاغة .. أو كلاهما ويتوقف الأمر عند هذا الحد . ولكن إذا أمكن الوصول إلى خلفية النص الاجتماعية التاريخية وحتى النفسية للكاتب، وسعيد خير دليل، فستكون النتائج مثمرة وحقيقية، وهذا ما حصل، وانتهت التمثيلية المسماة الاستشراق. ولا دل على ذلك من الصيحة الشهيرة التي أطلقها فرانز فانون قبل وفاته: "هيا أيها الرفقاء لقد انتهت اللعبة الأوروبية، ولا بد من البحث عن شيء آخر"[2]، كأنه عند إحساسه باقتراب رحيله ترك وصيته لورثته من أجل تغيير معالم الخطة وتكتيكاتها، على أمل أن لا يظهر إدوارد سعيد آخر، وقد جاء في كتاب (شهوة المعرفة : المستشرقون وأعداؤهم للكاتب روبارت أروين مايلي: '..الكتاب (يقصد الاستشراق) الذي يصعب فيه التعريف بين البحث الملخص والأخطاء وإساءة الفهم المتعمدة، كتاب سعيد يصلح أن يكون رواية، لأنه مليء بالأشرار والعالم الخيالي الغني بالصور .. الأمر لا يتعلق بمادة الكتاب ولا تحليله لظاهرة الاستشراق بقدر ما انساق الطلاب المثقفون وأشباه المثقفين لكتاب معاد للصهيونية .. ولأن إدوارد سعيد كتب الكتاب وفي داخله ذلك الجرح بالخيانة التي تعرض لها شعبه الفلسطيني على يد بريطانيا، وضمن فهم سعيد للاستشراق كخطاب ثقافي فالمستشرقون لعبوا دورا في ضياع فلسطين، هكذا يقر سعيد، وينتقده روبرت أروين وهو يدرك حق الإدراك أنه مهزوم يتدارك ما يمكن ليخفف وطء الصدمة (السعيدية) على العالم الغربي –بالخصوص الإمبريالي– وكثيرا ما

[1]- وليام د.هارت، إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية والثقافية. ترجمة قصي أنور الذيبان، هيئة أبوا ظبي للثقافة والتراث، 2011، ص09.

[2]- يحي بن وليد. استشراق إدوارد سعيد في المغرب. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. الرباط. المغرب، ص07.

عيب على سعيد عدم تناوله للاستشراق الألماني مثلا، فكان رده أن كتابه ليس تاريخا أو تدوينا لأعلام الاستشراق ومدارسه، وإنما هو وصف لحقائق الاستشراق التابع للدول الاستعمارية المتمثلة في الإمبراطورية الفرنسية والبريطانية. وقد أجاب سعيد في هذا الصدد بأن الاستشراق الألماني لا يخدم مشروع بحثه، لذلك لم تلتفت إليه كثيرا ووضع ثقله لمواجهة الكتاب الغرب من فرنسا وبريطانيا، حتى يبرز العلاقة بين المثقف والسلطة، ويؤكد الوثاق بين "الثقافة والإمبريالية"، وأن الإمبريالية هي القائد أم الاستشراق، فهو عملية استكشاف للمناطق التي تنوي الدول الاستعمارية احتلالها على بصيرة بمعطياتها الثقافية والاجتماعية والسياسية والعسكرية لأن العدو المكشوف كما يقولون "نصف مهزوم" ناهيك عن سياسة الكيل بمكيالين التي تدعيها هذه الدول الإمبراطورية " عندما نلاحظ أن الولايات المتحدة تزود إسرائيل بكل دبابة وطائرة وصاروخ تستخدمه الآن تقريبا . ويزداد التناقض بين الإعلان النبيل بشأن دعم الولايات المتحدة لحقوق الإنسان وبين دعمها الفعلي للقمع"[1].

وقد حمل الاستشراق السعيدي خطابا قويا وقف في وجه الاستدمار، وفضح السياسات القمعية الممنهجة الهادفة إلى احتواء وإبادة وتدجين المجتمع الشرقي، وكأن هذا الكتاب حمل صرخة مئات الملايين من المقهورين والمستضعفين في الأرض، وضحايا التعسف الإمبريالي في حق أقطار المعمورة، خاصة من جانبها الشرقي حيث تكثر المستعمرات والحكومات الاستبدادية، التي يعتبرها إدوارد سعيد ربيبة الاستعمار التي تسهر على إنجاح مشروعه من خلال فتح الأبواب له لنهب الثروات بأثمان زهيدة ورالمقابل تحكم الخناق على الشعوب ماديا ومعنويا.

فكان الاستشراق هو الكتاب الذي تكلم نيابة عن كل المحرومين المهجرين، وصاحب الكتاب منهم، وهذه الحالة يعبر عنها الكاتب الهندي (**خاترجي بارثا**) قائلا :" سأذكر دائما يوم قرأت الاستشراق .. كان الاستشراق في نظري .. أنا المنحذر من كفاح ناجح ضد الاستعمار (في الهند). كتابا يتكلم عن الأشياء التي شعرت بمعرفتي لها

[1] - إدوارد سعيد، القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي، مجلة الابتسامة، مؤسسة الدراست الفلسطينية، بيروت – لبنان، ط.1، 1980، ص10

خلال فترة طويلة . ولم أجد اللغة المناسبة للتعبير عنها بوضوح . وعلى غرار الكتب العظيمة كان الكتاب يقول لي ما أردت قوله دائما "[1]. لو اعتبرنا أن النصوص يمكن استنطاقها بمعزل عن سياقاتها لما ربط الكاتب الهندي (بارثا خاترجي) موضوع النص بواقعه الشخصي وواقع مجتمعه ولم كانت هذه النصوص تحدث وقعا مختلفا عن نصوص أخرى محدودة الأفق .. ولكانت كل المواضيع لا تعدوا أن تكون زخرفة بلاغية ونسق جمالي من الألفاظ المنتقاة بغرض إشباع حس فني وأدبي ليس إلا . ومن هذا المنطلق يقول الكاتب **إسماعيل مهنانة:** " في نظر (سعيد) لا سبيل لنقد الثقافة الغربية ومركزياتها المختلفة إلا لإعادة وربط النقد بالعالم بعد أن عمدت النظريات الشكلانية والبنيوية إلى تجريد النصوص من ارتباطها بالتاريخ باسم النزعة النصية وباسم الموضوعية العلمية التي أريد حسب سعيد دائما تجنب النقد من التورط في القضايا التي تمس الوقائع السياسية للمجتمع والانغلاق داخل عوالم النص"[2]، في مقدمة كتاب "خارج المكان".

يذكر سعيد أنه تأثر بالكاتب "كونراد" الذي كتب عن سيرته الذاتية ومغامراته وسفرياته بلغته الأم أي البولونية أو السلافية وكذلك يكتب بالفرنسية أو الإنجليزية التي تعتبر لغته الثالثة، ورغم ذلك برع فيها واستطاع أن يصنع أسلوبا خاصا ومؤثرا وسع شريحة قرائه .. وعلى هذا النحو ارتأى إدوارد سعيد أن يدون سيرته الذاتية ولكن الأشكال في حالة سعيد أن لغته الأم (العربية) تمازجت مع لغته الثالثة الإنجليزية – مع أن يتقن الفرنسية والألمانية – حتى أصبحت كلاهما (أي العربية والإنجليزية) اللغة الأم عند سعيد مما خلق بذاته صراعا تنافسيا انعكس على هويته وانتمائه ككل وظل هذا الصراع يلاحقه في كامل حياته ولم تنتصر جهة على أخرى واحتدم الصراع ولكن ذلك لم يمنع "سعيد" من الانتصار للجانب المظلوم (عالم الشرق) ويقول عن تجربته في كتاب (خارج المكان) "في حالتي أنا . فالفارق بين الإنجليزية والعربية يتخذ شكل توتر حاد غير محسوم بين عالمين مختلفين كليا بل متعادلين : العالم الذي تنتمي إليه عائلتي وتاريخي وبيئتي وذاتي الأولية الحميمية –وهي كلها عربية – من جهة، وعالم تربيتي

[1]- خاترجي بارثا، 1992، ص194، نقلا عن :"إدوارد سعيد ونقاده" للكاتبة ليك غاندي (الفصل 04) من الكتاب، ص53.

[2]- إسماعيل مهنانة – إدوارد سعيد، الهجنة السرد الغطاء الإمبراطوري، ص54.

الكولونيالي، وأذواقي وحساسيتي المكتسبة، ومجمل حياتي المهنية معلما وكاتبا من جهة أخرى"[1]. ثم يتحدث سعيد عن الصراع الداخلي للهويتين الأصلية الفطرية والمكتسبة، التي قطعت معه الشوط الأكبر من حياته "لم يعفني لهذا النزاع منه يوما واحدا، ولم أحظ بلحظة راحة واحدة من ضغط واحدة من هاتين اللغتين على الأخرى ولا نعمت مرة بشعور من التناغم بين ماهيتي على صعيد أول وصيرورتي على صعيد آخر . وهكذا فالكتابة عندي فعل استذكار وهي إذا ذاك. فعل نسيان. أو هي عملية استبدال اللغة القديمة باللغة الجديدة "[2]. ويقصد بالاستذكار والنسيان أنه كلما حاول استعمال لغة من لغاته الأم أي العربية والإنجليزية تراجعت اللغة الأخرى بفعل ضغط لغة الكتابة الثانية المستعملة في هذا الحين وكذلك يأتي الدور على هذه اللغة لتتراجع أمام ضغط اللغة الأولى وتكون هي الرائد في هذا الموقف إلى حين. وهذا ما صرح به "سعيد" بكل ألم، وأسهب في التفصيل عن ذلك، في لغة نقدية تنم عن مراس طويل لكليهما، و توحي بخلفية ثقافية مخضرمة، وهو التركيب المزجي بين ثقافتين وحضارتين وهويتين ولغتين، ولم تخل هذه التعابير عما يختلج بداخله من النقد الثقافي بل هي ضاربة في صلبه وناشئة من معينه، فهو يربط بين الحياة الاجتماعية ومؤثراتها على الحياة الثقافية، لأن التضارب في الحقيقة كان في الواقع والظروف التي فرضت عليه –مع عائلته– أن يخلي المكان وينتقل من فلسطين إلى أمريكا وهذا ما أكسبه ثقافة جديدة، بدأت بطول الأعوام تضرب بجذورها في ذاته مزاحمة ثقافته الأصيلة. فالإنسان ابن بيئته،كما يقال، وسعيد عاش في بيئتين متناقضتين إلى درجة انعكاس هذا التناقض على ذاته ويظهر ذلك في مقولته:" لقد ساورني شعور عظيم بالارتياب عندما أقدمت على تأليف هذا الكتاب (خارج المكان) عن حياتي المبكرة .. إذ أدركت أنني مقدم على عمل متناقض جذريا . هو إعادة بناء عالم في مصطلحات عالم آخر، كان لي أن أستخدم اللغة الإنجليزية، لكن كان عليّ أن أستذكر التجارب وأعبر عنها بالعربية، طبعا . كان من العبث إنكار التغاير والتباغض الكاملين بين هذين العالمين . ولكن لا يعقل أن يكونا منفصلين أحدهما عن الآخر كأنما نتيجة لعملية بتر

[1]- إدوارد سعيد، خارج المكان، ص8، المقدمة.

[2]- إدوارد سعيد، خارج المكان، ص8، المقدمة.

جراحية، ماداما قد تعايشا سنوات وسنوات داخل شخص واحد . والأحرى أنهما كانا جسمين متوازيين، بل توأمين. يتحسس واحدهما ايدولوجيا وروحانيا كل عنصر غريب يتعذر استيعابه عند الآخر وينفعل إزاءه. لقد اختبرت دوما ذلك الشعور بالغربة، فلا تمنيت كليا من السيطرة على حياتي العربية في اللغة الإنجليزية. هكذا طغى على كتاباتي كم من الانزياحات والتغيرات والضياع والتشوه، ولكنني كنت مدركا في الأقل لكل ذلك وقد حاولت استظهاره في مؤلفاتي "[1]، ويبدو أن هذا التضارب بين اللغتين هو أحد أسباب صعوبة ترجمة مؤلفات سعيد إلى العربية.

ويقول إدوارد في كتابه (الثقافة والإمبريالية) والذي اعتبره الجزء الثاني للاستشراق والمكمل له والمجيب على كثير من التساؤلات التي طرحها في كتابه الأول: "ولقد حاولت .. أن أظهر أدبا ونقدا جديدين قد بزغا منذ المرحلة العظيمة لفكفكة الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية. للمرة الأولى يصبح الأفارقة والآسيويين عربا وغير عرب – الذين كانوا موضوعا لعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) الغربي . وللسرديات الغربية . والنظريات التاريخية والتكهنات اللغوية الغربية، وكانوا في النصوص الثقافية الدليل السلبي على شتى أنواع الأفكار حول الشعوب غير الأوروبية الأقل تطورا التي ظلت "جواهرها" ثابتة رغم التاريخ –خلاقين لآدابهم وتواريخهم الخاصة– كما يصبحون أيضا قراء ناقدين لسجل المحفوظات الغربي"[2].

- الخلفية الثقافية لإدوارد سعيد:

لم يعدُ إدوارد سعيد أن يكون حلقة من دوامة الصراع الثقافي بين الحاكم والمحكوم، من خلال تأثره بالمفكرين الثوريين والثائرين، الذين سبقوه زمنيا، واختلفوا معه من حيث النشأة والمكان. ولكن الموضوع الذي وحدهم هو حرية الفكر، والصراع الثقافي الطباقي –كما يسميه سعيد–، أو الجدلي كما يراه الفلاسفة، والذي يثير نقاطا تم

[1]- إدوارد سعيد، خارج المكان، ص8، المقدمة.

[2]- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص9، المقدمة.

تغييبها من مسرح الأحداث رغم جوهريتها، ووجوب إبرازها، من أجل استرجاع التوازن الفكري، وكذا الاجتماعي للشرائح الشعبية العريضة، المحكومة بإيديولوجيات امبريالية تسلطية، تسعى لاستنزاف المجتمعات الكادحة، توفيرا لرفاهية الطبقات الحاكمة والجاثمة على الصدور. وينطلق سعيد من خارج المركزية الغربية مستعملا آلياتها ضدها، غير متأثر بالتيار الغربي الساعي إلى شرقنة الشرق وتدجينه لمصلحته، ومستندا في ذلك على الرصيد المعرفي لبعض المفكرين والكتاب السالفين، الذين لهم فضل السبق في هذا المجال، وفي تقديم رؤية ممنهجة وحرة تواجه سياسة التعتيم، وثقافة الخنوع والانصياع من دون مقاومة، وتقوم بحوار حقيقي مع السلطة. ومن هؤلاء المفكرين ميشيل فوكو الذي ركزت فلسفته على:"التجارب الإنسانية والثقافية في التاريخ، وحللتها وفقا لعلاقات المعرفة والسلطة، وبينت كيفية تشكل الذات الحديثة في علاقاتها بالحقيقة، متميزة بخطابها النقدي التاريخي جاعلة وظيفتها النقدية عملية سياسية تهدف إلى التغيير والتحويل"[1]. فالنظرة العامة لهذا الفكر هي أن الثقافة السلطوية والتسلطية هي التي تدخلت وشاركت بشكل كبير في صناعة الوعي الاجتماعي وقولبته حسب المتطلبات التي تقتضيها علاقة الحاكم بالمحكوم. وهي لا تخرج عن هذا الحيز، لأن المثقف الحر والواعي يمثل حجرة عثرة أمام الأطماع السلطوية، وسياسات الهيمنة، وما حمله الاستشراق من فكر زائف ومشوش، إلا دليل مادي على حجم الجهود الغربية، الساعية إلى خنق الشرق من مختلف الجهات، ومحاصرته بالكامل، من أجل قتل روح المبادرة والمواجهة للرقي الثقافي والحضاري، وبث روح الاستسلام، تمهيدا لتلقين ثقافة 'الشرقنة'، والتبعية للمركزية الغربية. يقول ميشيل فوكو: "السلطة إجمالا قائمة في كل خطاب نقوم به، حتى لو كان يصدر من موقع خارج السلطة، فهي منغمسة في التاريخ متجذرة في أعماقه بل ربما أن التاريخ ليس إلا السلطة ذاتها، وقد تحولت بفعل التطور إلى خطاب يدعي العلمية والبراءة"[2].

[1]- الزواوي بخورة- ما بعد الحداثة والتنوير – موقف الأنطولوجيا النقدية – دراسة نقديه – دار الطليعة – بيروت ط1،2009،ص118.

[2]- عمر أوكان، النص والسلطة، إفريقيا الشرق، ط1، 1994، ص13

و يقر إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق بهذا الأمر متبنيا رأي ميشيل فوكو وطرحه، إذ يقول: "بشتى أشكالها السياسية والعسكرية والمالية وحتى العلمية.ـ تحدد نوع المعرفة واتجاهاتها، كما أن المعرفة لازمة لقيام السلطة واستمراريتها"[1].

ويضيف سعيد تأكيدا على هذا الأمر المتداخل لدرجة الانصهار والاندماج، والذي يشمل الأدب وسياقاته المشاركة في تحديد خطابه: "إن قراءة الأدب خارج سياقه السياسي، وأصوله في سبيل الإعجاب الجمالي لا تكون سوى قراءة خاطئة، وغير مكتملة..، ويؤكد سعيد أن مواقف كهذه تتجاهل التفاعل الحيوي بين الجمالية والسلطة"[2].

وهذا المسعى يأتي في سبيل التأكيد على القوالب الجاهزة للثقافة السلطوية، التي تسعى إلى فرضها القوى الكبرى على الشرائح الاجتماعية التي أنتجت ما يمسيه المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي 'بالمثقف العضوي'، وهو ذلك : "المثقف الذي تكون علاقته مع الطبقة الثورية ينبوع تفكير مشترك، فليس هو ذلك النرجسي الفرداني المحلق على أجنحة الفكر الحر.. ، والذي يقيم علاقة مضببة أو سرية مع الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها"[3].

ولكن سعيد له رؤية مخالفة خارجة عن النمطية والمنتجات الجاهزة والأعراف المتوارثة والمتواترة عن الانهزاميين المتملقين. ولكنه يشرح نظرته الواعية في كتابه تمثيلات المثقف فيقول: "من المهام المنوطة بالمثقف أو المفكر أن يحاول تحطيم القوالب والأنماط الثابتة، و التعميمات الاختزالية التي تفرض قيود شديدة على الفكر الانساني، وعلى التواصل ما بين البشر"[4].

---

[1]- عمر أركان ، النص والسلطة، أفريقيا الشرق، ط 1994،1،ص13.

[2]- إدوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة،ترجمة نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت لبنان، ط2008،1، ص20

[3] - عمار بلحسن، في الأدب والايديولوجي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1984، ص 53،ص54.

[4]- ميجان الرويلي، سعيد البازغي ، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي ، ط1، 2000، ص.118

ويستند سعيد في إيديولوجيته على غرامشي الذي يرى فيه المثل الأصلح، والقدوة التي تمثل المثقف المؤمن بأفكاره، والمستعد للتضحية من أجل ذلك:"ويستدعي سعيد شخصية غرامشي للتشديد على حاجة المثقف لمناوءة أي ممارسة سلطوية، فضلا عن حاجته للإلمام باستراتيجيات الهيمنة المتعلقة بأسطوريات الكبت"[1]. وتقول شيلي واليا صاحبة كتاب إدوارد سعيد وكتابة التاريخ مؤكدة على الرابط الوثيق بين إدوارد سعيد وأنطونيو غرامشي إلى درجة الانسجام الكامل:" ترتبط كتابات سعيد بالمؤثرات الغرامشية ارتباطا متصلا في زمن اشتهر بانسحاب يساريي ما بعد الحداثة من المواقع الماركسية، وتبرز نظرية غرامشي بتطبيقاتها عند سعيد المسائل المتعلقة بالسيطرة الاجتماعية، وعملية الهدم التي تحدث بصورة مطردة، لمقاومة أي مفاهيم قارة حول السلوك الثقافي "[2].

ويضيف سعيد موضحا سياسة الهيمنة، التي تناولها أستاذه ميشيل فوكو، والمعاناة التي كابدها دفاعا عن أفكاره ومبادئه، والتي أوصلته إلى زنزانة السجن، بعد أن أصبح يسبب انزعاجا للسلطة، وقد أثمرت فترة سجنه ورسخت في ذهنه ثقافة المقاومة التي ورثها كوكبة من المفكرين والفلاسفة بعده، على غرار ادوارد سعيد الذي صاغ مدوناته وأبرزها الاستشراق انطلاقا من هذه الخلفية الرامية إلى التحرر الفكري والثقافي من تأثير السلطة وبثها لفكر الانصياع والانقياد، والحدود المتاحة. وإن كانت السياسة إحدى المصوغات الثلاث التي تؤكد عليها السلطة من أجل احتواء الحركة الثقافية في المجتمع وتقويضها. وهذا ما يجعل الدافع إلى كسر القيود المعنوية قبل المادية المحسوسة.

وبناء على هذا يسعى إدوارد سعيد إلى توسيع نطاق الثقافة المقاومة إلى درجة العالمية مع كسر معوقات المركزية الغربية والتمرد عليها. هذه المركزية التي تنظر إلى المحيط من زاوية حادة انطلاقا من ايديولوجية المهيمنة التي تلتحف

[1]- شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ترجمة وتقديم أحمد خريس وناصر أبو الهيجا، أزمنة للنشر والتوزيع،ط1،عمان الأردن،2007،ص38.
[2]- المرجع نفسه ص 38.

رداء العولمة يقول جابر عصفور: "إن مفهوم العالمية عند الغرب لا يحمل هموم الثقافات المغايرة للمركز الأوربي، فيظل منتسبا إلى ثقافته وحدها، ويستحق مساءلة كاشفة عن هذا المنظور"[1].

ولا يهم بعد ذلك الانعكاسات السلبية على المجتمعات خارج المركزية التي تتبناها القوى الغربية في إطار المشروع الأمبريالي الذي انبثق عنه خطاب السيطرة والانتهازية وهو:"خطاب تلتحم فيه القوة المهيمنة بالمعرفة والنتاج الثقافي"[2].

وقد انبثق عنه الخطاب الذي يسير في اتجاه طباقي جدلي، حيث كلما صعّد الطرف الامبريالي السلطوي نبراته الخطابية، كلما تلقى حجاجية الخطاب المقاوم، الذي يسير في الاتجاه المعاكس لهذا التيار. وفي ظل هذا التضارب تنشأ ثقافة المقاومة، التي لا يمكن بحال من الأحوال تجريدها من السياقات والظروف المحيطة:"الثقافات بالغة التداخل ومضمون كل منها يتفاعل تفاعلا بالغا مع غيرهما إلى درجة يمتنع فيها التقاء العنصري لثقافة ما ويستعصي معهما إجراء جراحات لفصل بعضهما عن بعض، وهي جراحات أيديولوجية في معظم الأحوال مثل جراحة ما يسمى –الشرق––عن ما يسمى –الغرب–"[3] .

كما يقول الدكتور سعيد يقطين، مبرزا العلاقة الوطيدة – التداخلية بين الثقافة والخلفية السلطوية: "إنه لا يمكن إفراغ العمل الثقافي من أي مدلول سياسي"[4].

وهذا المعطى الأخير يشمل مختلف الفنون الفكرية والثقافية والفلسفية والأدبية, لأن الأدب الذي هو محور دراستنا ليس إلا امتدادا لمعارف أخرى وهو سليلها ولذلك فإن: قراءة الأدب خارج سياقه السياسي وأصوله في سبيل الإعجاب الجمالي لا تكون سوى خاطئة وغير مكتملة.

[1]- جابر عصفور. الهوية الثقافي والنقد الأدبي. دار الشروق،الهيئة المصرية للكتاب. ط1- 2010، ص 389
[2]- ميجان الرويلي و سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي ،ط2000،1،ص118
[3]- ادوارد سعيد، المثقف والسلطة- ترجمة محمد عناني, رؤية للنشر والتوزيع ط1,2006. ص21
[4]- الأدب، المؤسسة، السلطة – المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء، المغرب ط1 2000. ص48

ويؤكد سعيد أن:"مواقف كهذه تتجاهل التفاعل الحيوي بين الجمالية والسلطة"[1].

ولم يكن النقد هو الآخر إلا دراسة للأدب، وتقويما وتقييما له من شتى الزوايا والرؤى، ولذلك فإن: "النظرية النقدية ،كما هو معلوم، ظاهرة فكرية. وهذا ما أدى إلى خلق خطاب نقدي خاص تحول مع مرور الوقت إلى عقيدة عالمية بفعل الهيمنة، وهو خطاب يرسم صورة للآخر من أجل تمييز الذات الأنا الغربية"[2].

وهذا ما يعود بنا إلى نقطة البداية ومفهوم المركزية الغربية الذي يرى نفسه المحرك والموقف لكل هذه الأحداث، حسب مشيئته و مصلحته،. وقد نتج عن ذلك ما أسماه النقاد آداب ما بعد الكولونيالية والذي يسمى كذلك – كتابات الرد–، لأن هذا الزخم الأدبي في مرحلة ما بعد الاستعمار أثمر أعمالا مشحونة بالمعطى الغربي، الذي لم يترك المجال للآداب المحلية لتتجرد من الترسبات الثقافية من مخلفات الكولونيالية، كما تجردت – إلى حد ما من التبعية السياسية والعسكرية التي كانت تطوقها لعقود طويلة. وهذا الصراع الثقافي بين ثقافة التمرد المحلية /الشرقية، وثقافة الهيمنة الكولونيالية، والتي تطاولت إلى درجة تكاد تدلي علنا أنه لا آداب محلية خارج سياق الهيمنة الغربية، وما أزم الأمر أن جل الكتابات –ما بعد الكولونيالية– تتضمن بالتصريح، أو التلميح تعليمات الكولونيالية، وقد تكون هنالك أسباب عدة، منها أن المثقف المحلي –أصلا– كان محصورا جغرافيا وتاريخيا واجتماعيا– داخل البرنامج السياسي والثقافي للاستعمار الذي أحكم الطوق، ومنع تسرب الفكر التحرري إلى حظيرته الاستعمارية المتمثلة في الشرق. ولكن نستدرك في هذا المقام ونقول أن كتابات الرد جاءت لتمحو آثار الأدب العربي التي تحمل مفهوم الهيمنة، أما الجانب الموضوعي الذي يتعامل مع الثقافة المحلية كندّ أو –آخر– أجنبي، فهو ضروري في العملية النقدية، لأن قياس الذات يكون بالمقارنة مع الآخر المختلف "يرى سعيد أن الثقافات مكونة من خطابات مختلفة ومتغايرة العناصر، بل ومتناقضة. فلا تعود هي ذاتها بمعنى ما، إلا بمقدار ما تكون ليست ذاتها"[3].

[1]- ادوارد سعيد. السلطة والسياسة والثقافة، ص20
[2]- ادوارد سعيد السلطة والسياسة والثقافة ص 20
[3]- ثائر ديب. أدب ما بعد الكولونيالية- مجلة بناة للأجيال ، العدد 53خريف 2004 ص 104

والتفكير الانطوائي الانعزالي أو العدواني تجاه الغريب والناتج عن –أزمة الهوية– التي ورثها الشرق، انطبعت في النصوص الأدبية، "فثمة إحساس بالذات والهوية كان ساريا، وفاعلا، إلى أن بتره الانزياح والانخلاع، الناجمان عن الاستعمار والاسترقاق والهجرة. ولعل ذلك الإحساس قد بتر أيضا من خلال تسويد صفحة الثقافة الوطنية أو المحلية"[1].

إذن الدراسة النقدية التي لم تتحرر من تبعية القيود التي ما زالت تطوق النصوص الأدبية. ومنه يمكن الإشارة إلى أن دراسة الثقافة المحلية في فترة ما بعد الاستعمار مرهون بالإلمام بالثقافة الكولونيالية، "فما بعد الكولولنيالية لا تعني مخاصمة الكولونيالية، وإنما تعني الوعي بالثقافات الأخرى. بالهويات، الاتجاهات والكتابات التي أريد لها أن تندثر، أو تنطمس، لتعود ثانية إلى الظهور بصفتها الأخرى، أي على أساس أنها –كتابات الرد– القادمة من المستعمرات. حاملة معها هويتها و تنقيباتها في خطاب المركز"[2]. وموجة التحرر في القرن الماضي أعقبتها أو تمخضت عنها الحاجة الملحة للدراسات ما بعد الكولونيالية والتي تهدف إلى:

- تحرير الشعوب من الهيمنة بمختلف أنواعها السياسية والثقافية والاجتماعية.
- إبراز التباينات المختلفة في لغات وثقافات وسياسات وتواريخ الشعوب قصد إعادة الاعتبار للهامش.
- تقويض الرؤية الاستبدادية الغربية
- العناية بالنتاجات وبالنصوص والقيم والمفاهيم، التي ساهمت مرحلة الاستعمار في ظهورها، سواء كانت مؤيدة للامبريالية، أو معارضة لها.
- رصد العلاقات بين الأنا والآخر/الشرق والغرب

[1]- ادوارد سعيد. تأملات حول المنفى. ترجمة ثائر ديب. دار الآداب. ط1 بيروت 204 ص 19

[2]- أحمد عارف. مقال: التجربة النقدية عند ادوارد سعيد- قراءات في المتجر النقدي ما بعد الكولونيالي- مجلة أبعاد مختبر الابعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية في الجزائر. جامعة وهران. العدد 7. 31 ديسمبر 2018.

رصد العلاقة القائمة بين الثقافة والسلطة"[1].

- **العالم والنص والناقد – (النقد الدنيوي)** :

من خلال أطروحته النقدية يعمل إدوارد سعيد على وضع أسس النقد ومقارباته على أرضية دنيوية محضة خارج أي مؤثرات ماورائية، تتعلق بالميتافيزيقا، أو اللاهوت، أو علم الأديان. وإن النقد بكل ثقله يضع أحماله على أرضية الواقع، ومن خلال المؤثرات والظروف والأحداث في هذا العالم الوجودي المحسوس، وانطلاقا من هذا المعطى، ينادي إدوارد سعيد بدنيوية النقد، حيث بقول مبرزا الحقل الذي يعيش فيه –النقد الدنيوي– الذي تبناه في إطار دراسة النصوص:"..فموقفي هو القول بأن النصوص دنيوية، وهي أحداث إلى حد ما، وهي فوق هذا وذاك، قسط من العالم الاجتماعي والحياة البشرية، وقسط بالتأكيد من اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها وفسرتها، حتى حين يبدو عليها التنكر لذلك كله"[2].

فما دامت النصوص تستمد حياتها ونشاطها من خلال الظروف الدنيوية لهذا العالم، فإن ذلك يدلي بتبعيتها لهذه الظروف التي شاركت في ولادتها وإنتاجها أو إنشائها. وعلى حد تعبير سعيد:"فالنصوص لها طرق في الوجود، بحيث أنها في أسمى شكلها، تبقى دائما فريسة الوقوع في شراك الظرف والزمان والمكان والمجتمع، وباختصار فهي في الدنيا، ولذلك فإنها دنيوية"[3].

أي أنها في الأخير لا تستطيع التجرد من العالم المحسوس، لأن معطياتها أصلا مستمدة منه، ومعتمدة عليه، وكأن إدوارد سعيد يريد أن يقول أن أصل النصوص، هي في الغالب، أحداث واقعية، تم ترجمتها إلى لغة مكتوبة، وأضاف إليها كتّابها انطباعاتهم الخاصة، وعبروا عنها بلغة راقية، مع مراعاة دور الأسلوبية والبلاغة في هذا الإنشاء،

[1]- سلايمية. يمينة. عنوان المقال: الخطاب ما بعد الكولونيالي في كتابات ميشيل فوكو- جامعة باجي مختار عنابة، مجلة البحوث والدراسات الانسانية ص 50.

[2]- ادوارد سعيد –العالم. النص والناقد ترجمة عبد الكريم محفوظ منشورات اتحاد الكتاب العرب. د . ط- دمشق 2000 ص11

[3]- ادوارد سعيد –العالم. النص والناقد ص66

أو الخطاب. وبذلك يصبح النص في نظره: "يحمل أيديولوجيا أو أيديولوجيات سياسية أو سياسات، فالعالم أولا، ثم النص، ثم الناقد. ولهذا، فالفصل بين الأدب والسياسة —عند سعيد– مرفوض، رغم اعترافه بالخصوصيات العامة للأدب"[1] .

وليست السياسة إلا تلك الأحداث والتفاعلات بين عناصر المجتمع الواحد (شعب/سلطة) أو بين المجتمعات مع بعضها البعض مثلما حدث مع المجتمع الشرقي، ومحاولة السيطرة عليه من طرف الغرب، والصراع في هذه الحالة يكون أوسع، ويقتضي آليات دراسة مختلفة المشارب، ومتعددة الإيديولوجيات. وفي هذا الصدد يواصل سعيد مؤكدا على خلفية النصوص التي تتحكم فيه: (النص نتاج ثقافي متعلق بأنظمة السلطة الخارجية عنه، والداخلة فيه، وعبر سلطته التمثيلية، فإنه يتحدث عن العالم المحيط به. ولو كانت النصوص متعلقة بفهم التاريخ (الحقيقي) فكيف لها أن تنفصل عن عالمي الزمان والمكان، واللحظة التاريخية التي ترتبط بها؟. فالدنيوية إذن موجودة في النص، بالقدر الذي يتواجد فيه النص في العالم)[2] .

ويمكن القول أن النص هو امتداد مجرد للعالم داخل عالم اللغة، أو هو انعكاس له. وأستدرك فأقول أن ذاتية الكاتب تشارك بقسط محدود، أو واسع في عملية الانعكاس هذه. ولن يكون النص ترجمة جافة للعالم, ولو حدث ذلك، فلا يمكن أن يكون النص إبداعا. ولكن تتجلى اللمسة الإبداعية من خلال جماليات التصوير، وخلق نصوص تتفاعل مضامينها مع السياقات المؤثرة، منها التاريخية والاجتماعية والنفسية والجمالية. ويأتي دور النقد ليبرز القيمة الفنية لهذا العمل أو ذاك، ومدى انسجامها مع الذوق العام للمقروئية، وحجم الصدى الذي تركته، والأثر الأدبي لذلك، مقارنة مع نصوص أخرى، أو قياسا على أساسيات النقد ومقوماته التي تضبط البنى والدلالات لأعمال الكتابة، مخلفة انطباعات سلبية أو إيجابية أو نسبية، بين هذا وذاك. والمهم من هذا كله ليس قبول النصوص بالكامل، ولكن مجرد القيام بالعملية النقدية لنص ما، هو اعتراف النقد مبدئيا بأهمية هذا العمل،

[1]- عز الدين مناصرة. في التناص المقارن ص281
[2]- شيلي والي. ادوارد سعيد وكتابة التاريخ ص58

من خلال حمله لموضوعات قابلة للدراسة والتمحيص. خاصة إذا كانت تعكس معاناة وأحمال وأحلام الجماهير الشعبية، في مواجهة التعسف والقهر والاستعباد المادي والمعنوي. لذلك يضع سعيدا اهتمامه على مثل هذه المواضيع التي تمس أكبر الشرائح الاجتماعية خاصة في العالم الشرقي الذي ينتمي إليه، وقد بذل فيه صباه وفتوته. وانطلاقا من فكر ميشيل فوكو الذي يراه سعيدا داعما لأطروحته المناهضة للسلطة المتعسفة، يرسم سعيد الخطوط العريضة لمشروعه الثقافي النقدي:"إن وجهة نظر فوكو هي حقيقة الكتابة نفسها، هي قلب منهجي لعلاقة القوة بين الحاكم والمحكوم إلى مجرد كلمات مكتوبة. بيد أن الكتابة سبيل من سبل إخفاء المادية المروعة لإنتاج المحكوم"[1]

ويبدو هذا النقد شديد اللهجة عندما يواجه القوى المتسلطة، ويرفض سعيد العيش في الفرضيات والمثاليات التي تمثل أقنعة لتزييف الواقع، من خلال دفع الشعوب إلى استهلاك ثقافة الخرافات، والهروب من الواقع والخوف والنفاق، ولكن يقف موقف الناقد الواعي، والمدرك لخبايا الوضع السائد والمهيمن، كما تقول عنه الكاتبة شيلي واليا: "يترافق نقده الأدبي دوما مع تجربة السياسة الشخصية، ومع موقفه المعارض الراديكالي العميق، الذي يسعى إلى مواجهة السلطة بقول الحقيقة"[2].

كما يقول سعيد موضحا هذا الموقف الذي يجب أن يقفه الناقد والنقد: "إن النقد بشكه في المفاهيم التجميعية، وبسخطه على الأمور المجسدة، ونفوره من النقابات والمصالح الخاصة، والقطاعات ذات الصيغة الأمبريالية، من تعويد الفكر على السير على الصراط المستقيم، يكون أقرب ما يكون إلى نفسه"[3]، أي عندما يكون النقد صريحا، وموضوعيا وحريصا ومتجردا من كل قيود التبعية للآخر، أي حرا. كما يضيف سعيد: "يجب أن يرى نفسه مشجعا للحياة، ومعارضا بحكم تكوينه لأي شكل من أشكال الهيمنة، والطغيان، والظلم."[4]

[1]- العالم والنص والناقد ص 90
[2]- شيلي واليا – ادوارد سعيد وكتابة التاريخ ص 13-14
[3]- العالم والنص والناقد ص 57
[4]- المرجع نفسه ص57

وهنا يؤكد سعيد على علاقة الناقد بنقده، فشخصيته ومبادؤه وثوابته ترافق سيرورة نقده، وتؤطره وتوجهه. وانطلاقا من هذا، فإن سعيد يؤكد على دنيوية نقده، ليكون على اتصال مباشر بعالم الوجود، على خلاف من انتقدهم في كتابه من الكتاب الذين يؤثرون التوجه الروحي البعيد عن مجريات الواقع، يقول: (فأنا أتفحص العالم الدنيوي لا الروحاني، الذي تحدث فيه النصوص، والذي يلعب فيه بعض الكتاب المعنيين، من أمثال "سويفت وكونراد وهوبكينز وفانون"، دور القدوة، لاهتمامهم بتفصيل الوجود اليومي، المعروف باسم الوضع والحدث، وتنظيم السلطة)[1]. والعالم الدنيوي كما يصفه سعيد هو: (جوهر كينونته..، والعالم الذي نعيش فيه يجب أن يعاش ويجرب ويفهم في دنيويته لا في آخرته، وأن الأدب وكل أشكال النشاط الانساني منخرطة في هذه الدنيوية).[2] التي تحدث عنها سعيد بإطناب، والنصوص المكتوبة، فيقول:(إن كل مقالة من هذا الكتاب تؤكد على الترابط بين النصوص والوقائع الوجودية للحياة البشرية، والمجتمعات والأحداث، فالوقائع المتعلقة بالسلطة والقوة هي التي تجعل من النصوص أمرا ممكنا.. ، ولذلك أقترح أن تكون هذه الوقائع مثار اهتمام للنقد والوعي النقدي)[3]

والواقع الذي يعيشه سعيد في المنفى، والواقع الذي يعيشه في وطنه، في فسطين (المجتمع الشرقي) ، في خضم الصراعات مع العدوان الاسرائيلي، ومع القوى الأمبريالية المتمثلة في أمريكا، وحرارة الاحتكاك الطباقي بين فعل الهيمنة، وردة فعل الثقافة المقاومة، أنتج وعيا نقديا ناضجا يعكس هذا الاحتدام الموجود في دنيا الواقع إلى النصوص المكتوبة، ويؤسس نقدا دنيويا متجردا من الماورائيات، ومتفاعلا مع المحسوس من الدلالات، إلى درجة أنه يسير بالموازاة مع الوقائع. كلما كان هنالك ثراء نقدي يواجه ثقافة الهيمنة، ويستنطقها حتى يبدو أن النقد الدنيوي هو ترجمة لأحداث الواقع. يقول سعيد في كتابه –العالم والنص والناقد–:

[1] - العالم والنص والناقد ص 52
[2]- الثقافة والامبريالية ص 19
[3]- العالم والنص والناقد ص12

(النقد دنيوي، وفي الدنيا ما دام يقاوم التمركز الأحادي الجانب، وهو المفهوم الذي أدرك —سعيد– أنه يعمل بالتعاون مع التشريف العرقي، والمفهوم الذي يبيح لثقافة أن تتقنع هي نفسها بقناع السلطان الخاص، الذي تتحلى به بعض القيم على غيرها من القيم الأخرى، ويتأتى هذا نتيجة لصراع يوفر للثقافة تلك الهيمنة التي تخفى على الدوام تقريبا، جانبها المظلم)[1].

.

[1]- العالم. النص والناقد ص60

- الأنسنية والنقد الديمقراطي:

يعتبر هذا المؤلف هو آخر ما أنتج إدوارد سعيد بعد مسار ثقافي وعلمي حافل بالمؤلفات في شتى التخصصات، ولو أننا نضع تركيزنا على الجانب الأدبي والنقدي في أعماله، والذي يتميز بالتمرد، وكسر القوالب المستهلكة، التي وفدت على المجتمع الشرقي، أو أمليت عليه. ، وما زال يعاني من تبعاتها في شتى المجالات، وقبل كل شيء نسعى إلى تعاريف لمفهوم الأنسنية عند ادوارد سعيد، الذي يقول:

"الأنسنية إلى حد بعيد حركة مقاومة للأفكار المسبقة وهي تعارض كل أنواع الكليشيهات واللغات غير الفاكرة"[1]. حتى تخرج الذهنية —خاصة الشرقية– من القولبة والتبعية لأن هذه القوالب كما يكرر سعيد في جل مؤلفاته، خاضعة للمركزية الغربية، أي أن هذه القوالب والقيود، بما أنها وافدة من الغرب، فإنها لا تخدم إلا النهم الغربي، أما الشخصية الشرقية فلها خصوصياتها وميزاتها المحلية المنسجمة مع البيئة الشرقية بمختلف عاداتها، وأعرافها فإذا ما تم حبسها داخل أطر نستطيع تسميتها "امبريالية استعمارية"، فإن ذلك سيقتل روح المبادرة، وأي طاقة إبداعية ستنساق مع التيار الغربي، الذي حدد لها المسار مسبقا، من خلال التأثير الثقافي المتمثل في الاستشراق. ولذلك فإن الممارسة الانسانوية تتجه نحو الكارثة:"في دراستنا كما في العلوم الاجتماعية —غالبا ما يكون اللب في تلك النماذج التقليدية "المركزية الغربية"، وهي مشكلة مقلقة شديدة الأذية للممارسة الانسانوية في الولايات المتحدة، لا لسبب إلا لأن مثل هذا التشويه لوقائعنا الاجتماعية، والتاريخية تودي بنا الآن إلى الكارثة."[2]. وانطلاقا من المركزية الغربية لنشر الثقافات فإن الإسلام لم يسلم هو الآخر من النقد، لأنه محسوب على المجتمع الشرقي الذي هو محل الانتقاد من طرف المركز —أوروبا– لذلك لم تكن الديانات الأخرى خاصة المسيحية محل نقد لأنها تتمركز بالخصوص في المجتمع الغربي، لذلك توجب عدم الإشارة إليها، وتسليط الضوء على الثقافة الإسلامية واللغة العربية، التي هي أداة النصوص الدينية والكتاب المقدس الإسلامي —القرآن– وهذا ما يهدد المشروع الانسانوي

[1]- ادوارد سعيد، الأنسنية والنقد الديمقراطي ، ترجمة فواز الطرابلسي،دار الآداب، بيروت لبنان ، 2005،ص64
[2]- المرجع نفسه 73ص

لأن المد العنصري تجاه الشرق يقمع دعاة الإنسانية، والمشترك الثقافي والسلام العالمي. والمشكل أن التشويه الذي طرأ على صورة الإسلام من المنظور الغربي أثمر العنصرية الحاقدة التي تدعي أن الإسلام دين عدائي يشجع على الحروب والعنف والعنصرية: ولعل الحماسة الدينية أخطر مل يهدد المشروع الانسانوي طالما أنها في طبيعتها كلية العداء للعلمانية والديمقراطية.. أكثر أشكال اللاإنسانية تزمتا وأشدها انغلاقا على النقاش إطلاقا: إن الإسلام دين عنيف وغير متسامح بطبيعته وشديد الميل إلى الأصولية المخبلة والارهاب الانتحاري. ثم أنه لا عدّ للخبراء والمبشرين الذين يكررون الحثالة ذاتها يساعدهم ويحرضهم مستشرقون.. (إن من علامات البؤس الفكري والانساني لأزمتنا هذه أن يكون لمثل هذه الدعاية المفضوحة (بالمعنى الحرفي للكلمة)هذا الانتشار الواسع والأفدح من ذلك أنها مستمرة دون أدنى إشارة إلى المسيحية واليهودية والهندوسية)[1]. هذه العنصرية تنعكس على الخطاب الكولونيالي المنحاز الذي يرى أن الإسلام –دين الشرقيين– يحمل جينات الإرهاب والعنصرية والعنف. وبالمقابل يتغاضى عن الأديان الأخرى. ويقول آلان بلوم في هذا السياق: (لن أسمح أن يقال أن شيئا أو إنسانا يفقد صفته الإنسانية ويسقط من الحساب نهائيا لمجرد أنه ليس من أهلنا أو لأنه ينتمي إلى تراث مختلف عن تراثنا. أو أنه صادر عن مسارات إنتاج مختلفة عن مسارات الإنتاج عندنا)[2] .

وهنالك من المفكرين والكتاب الغرب من ظل أسير العنصرية بكل ما تحمله الكلمة من دلالات، ولا يفكر، أو يتعامل إلا وفق المنظور والمركزية الغربية، إلى درجة أن ذلك انعكس على ثقافته وكتاباته. ويسوق سعيد مثالا على ذلك: (أسوأ التأويلات الداروينية، إن بعض البشر يستحق الجهل والفقر والمرض، وفقا لأحكام حرية التجارة فيما بشر آخرون، تستطاع قولبتهم بواسطة برامج المصانع الفكرية وسياساتها، لتحويلهم إلى نخب جديدة)[3].

[1]- الأنسنية والنقد الديمقراطي ص 72
[2]- الأنسنية والنقد الديمقراطي ص 48
[3]- الأنسنية والنقد الديمقراطي ص 42

هذه النظرة تنم عن مدى تجذر الخطاب العنصري في الدراسة الغربية للشرق، وثقافة الاستعلاء على الآخر، وإبراز الأنا. وهذا انحراف خطير في المسار الأنسني حسب سعيد الذي يستدل بمقولة –ليوسبيتزر– في تعريف الأنسني: (الأنسني هو من يؤمن بقوة العقل البشري، على سبر أغوار العقل البشري)[1].

ويعقب سعيد على ذلك قائلا: (لاحظ أن سبيتزر لا يقول العقل الأوروبي) ولا يكتفي بالحديث عن –القانون الغربي– إنه يتحدث عن العقل البشري وحسب)[2].

يعني دون الرجوع الى المركزية الغربية في مناقشة الطرح الأنسني، ولو أن الثقافات متعدية للحدود ومتداخلة، و تقتات من بعضها البعض، ولا يمكن أن تنتج ثقافة ما إلا من خلال التفاعل الأنسني في شتى مجالاته (الثقافات حتى في عوالم السياسة والدين المتنازع عليها بحدة، كائنات متداخلة لا يمكن تفكيكها إلا ببترها وتشويهها. لذا لا نريد أن نسمع أي حديث عن صدام الحضارات أو نزاع الثقافات لأنه أشنع أنواع البنى القائمة على –نحن– ضدهم –هم– ونتيجتها الصافية دوما افتقار الرؤية وتضييقها، ولا يكون ذلك لصالح التنوير وتقدم المعرفة إلا فيما ندر)[3]. فعملية التثاقف تمر عبر مسار معقد ومتداخل، ولكن ذلك لا يعني ضرورة عملية الصراع من أجل إنتاج ثقافة ما، ولكن التفاعل الذي يقصده سعيد هو التكامل، وليس التصادم الذي يدعو إليه كثير من دعاة الميز العنصري من الغرب، وذلك لأن المجتمع الأوروبي في موقع القوة، مما ينتج عن صراعه مع الشرق –كما يرى الغرب– الهيمنة والتسلط، والتمثيل القسري للشعوب المستضعفة لمصلحة الامبريالية.

وسعيد في نصه ينتقد هذه النظرة ويركز على مصطلح –صراع الحضارات– الذي يتم الترويج له، بأسلوب غير بريء في كثير من المحافل الدولية .

[1]- الأنسنية والنقد الديمقراطي ص46
[2]- الأنسنية والنقد الديمقراطي ص 47
3- الأنسنية والنقد الديمقراطي ص73

(لقد بات واضحا على نحو مقلق أن العالم وضع في خضم حرب ايديولوجية لم تكن الحرب العالمية غير طور من أطوارها، إننا نتعارك حول أفكار ومثل، وفيما نحن نتعارك ندرك أكثر فأكثر أن ما يؤمن به الإنسان هو ماهيته، وهو عمله)[1].

يشير سعيد إلى الخلفية، التي زودت الغرب بالدافعية إلى احتواء العالم الشرقي، والعمل على طمس مرجعيته وثقافته المحلية انطلاقا من اللغة، مرورا بالدين، ووصولا إلى السياسة. وهي المحرك للحدث، خصوصا، وأن عالم الشرق يفتقر في كينونته إلى هذه الحركية، وقد انطبع بالجمود الذي ورثه —قسرا– عن الاستعمار. ولهذا فإن الناتج هو تلقي الشرقنة على طريق الوجبات الجاهزة المستوردة من وراء البحار. ولا داعي –كما يزيد سعيد– إلى نكران فوائد الثقافات الوافدة. إلا أن المشكل في التعامل معها بموضوعية وعلمية، من أجل تحرير الفكر النقدي في مجتمعاتنا :(عندما يتحرر النقد في مجتمعاتنا من ضيق الأفق، فيقوم على دراسة التقاليد والمفاهيم العائدة إلى ثقافات أخرى، إذ ذاك يتفتح على موارد لن تتوافر طالما التركيز حميم ومغلق. من هنا ف —الآخر– هو إذن المصدر الوحيد لفهم —الذات على نحو أفضل، وأعمق نقدا.)[2] .

ولا مناص من التأثير والتأثر وقياس مستوى الذات في ميزان الغير لأن (كل ثقافة أينما كانت، تمر عبر مسار طويل من تعريف الذات وامتحان الذات وتحليل الذات بالنسبة إلى الحاضر والماضي معا)[3].

لذلك ينطلق سعيد من تحرير الذات، وفهمها بوعي ودراية، حتى يتسنى موضعتها في هذا العالم، وإظهارها بهوية مميزة تختلف عن الآخر، وإن كانت تتفاعل معه لتحديد نفسها، وتجديدها حسب الحداثة والعصرنة. ويحذر سعيد من الوقوع في فخ النفور من التعاطي مع الغرب والانغلاق الذاتي يقول سعيد: (عثرت على اعتراض مذهل يسود هنا وهناك بين أساتذة الأدب في الولايات المتحدة مفاده أنه مثلما يوجد تمييز جنسي، وتمييز عمري، وعنصرية، كذلك يوجد أمر مستنكر يسمى—القرائية– أي قراءة منظور إليها بجدية وسذاجة بالغتين، بحيث تصير مثلبة

[1]- الأنسنة والنقد الديمقراطي ص 54 ص 55
[2]- الأنسنية والنقد الديمقراطي ص 10 ص11
[3]- الأنسنية والنقد الديمقراطي ص 42

خطيرة، لذا يستمر هذا المنطق محذرا المرء أن لا يأخذ بالقراءة، طالما من يقرأ بعناية فائقة، هو من ظللته بنى القوة والسلطة)[1]. وهذا الرابط المعنوي بين القراءة والتبعية للسلطة والهيمنة أمر مؤسف للغاية، تنبثق عنه حدود فكرية تدعو إلى محاصرة الذات ومنعها من القراءة، خاصة إذا ارتبطت النصوص بالثقافة الغربية. يحدث ذلك في ظل شراهة ونهم القراء والكتاب الغرب المنشغلين، أو المختصين بالدراسات الشرقية. كما يشير سعيد والذي يلخص رؤيته في هذا المقطع النصي:(يبدو لي أن علينا البدء بتحرير أنفسنا بوعي وتصميم، من جملة مركبة من المواقف المرتبطة لا بالمركزية الأوربية وحسب، وإنما بمسألة الهوية أيضا. تلك التي لم تعد بالإمكان احتمالها داخل الفكر الأنسني كما كان الأمر قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها).وكذلك (يتعين على الأنسنيين أن يستلهموا الأدب والفكر والفن في زماننا الحاضر، والاعتراف بشيء من الجزع، أن أساسيات الهوية أو النظام التعليمي المؤسس على أفكار القومية لا يزالان كامنين في صلب معظم أفعالنا، على الرغم من تغير حدود الأبحاث ومواضيعها)[2] .

[1]- الأنسنية والنقد الديمقراطي ص 82
[2]- الأنسنية والنقد الديمقراطي ص 77

- **المثقف والسلطة :**

من المهم أن نشير في بداية خوضنا لهذا الموضوع الذي هو في الحقيقة امتداد لما سبق من دراسات إدوارد سعيد أو نستطيع القول أنه حجر الزاوية في كل ما درس . إذ الجدلية السرمدية القائمة بين المثقف والسلطة والمتمثلة في الصراع الحقيقي بينهما تكون محورا هاما. وليست بمنأى عن موضوع الاستشراق، لأن المثقف الذي واجه السلطة الاستعمارية ويواجه بعد الحقبة المسماة "ما بعد الكولونيالية " والسلطة الاستبدادية التي هي بطريقة أو بأخرى امتداد، لما قبل الكولونيالية، في ثوب محلي، أي الإمبريالية السابقة، والمتمثلة في الاحتلال البريطاني والفرنسي، ثم الأمريكي، الذي ظهر مؤخرا في الصورة، بعد تراجع تكتيكي لنظيريه، والذي هيمن على الوضع بشكل مباشر كما يظهر في العراق، ودول أخرى. فمن جهة أن الشعوب الشرقية –كما يرى سعيد– أخذت استقلالا صوريا !، مشروطا بتمرير المشروع الإمبريالي، والكولونيالي الجديد، ولا دل على ذلك من العبارات المستعملة مثل "شرق أوسط جديد" أو "خارطة الطريق". ومجال النقد الثقافي من أوسع الحقول المعرفية الذي يدرس الخلفية السياقية التي أطرت وأثرت في النص حتى يصدر بشكل أو بآخر حسب الطلب ولن يكون أبدا خارج السياق التاريخي أو الاجتماعي أو حتى النفسي لكاتب النص. وجاء في الفصل الأول من البحث الموسومة بـ " المثقف والسلطة عند إدوارد سعيد " ما يلي: " ولعل من أهم موضوعات النقد الثقافي هي تلك التي تتعلق بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة .. فعلاقة المثقف بالسلطة غالبا ما تكون محفوفة بالمخاطر . خاصة إذا صدرت عن تصور يرى أن المثقف ينتظم في علاقة توتر مزمنة مع السلطة . لأن هذا التصور يقوم على علاقة ضدية، طرفها السلطة بمفهومها التنفيذي الإجرائي وطرفها الثاني المثقف، الذي يتعرض لجملة من الاكراهات، التي لها غاية أساسية وهي: إقصاء دوره بوصفه مرجعية تسهم في تعميق وعي المجتمع بنفسه في حقبة تاريخية معينة"[1]. ومن جهة أخرى فإن المثقف

[1]- المثقف والسلطة عند إدوارد سعيد، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة من إعداد الطالبة بن خده نعيمة، قسم الفلسفة جامعة وهران، 2012، ص15.

المثالي يتحين الفرص لنشر الوعي في مجتمعه، حتى لا تكون هناك تجاوزات. وفي ظل هذا الصراع تتمخض علاقات جد متوترة ينتج عنها من طرف السلطة إجراءات وقائية. أي منع المثقف من إيقاظ الشعور الجمعي، والوعي العام لشعوب تحت طائلة الاستبداد أو الاستعمار. وبالمقابل فإن هذه الضغوطات الممارسة على المثقف لها دور إيجابي هو صقل موهبته وتبصره عن كثب بمواطن العطب، وسياسات التعتيم، وأساليب التجهيل، وثقافة الخوف، التي تملى على الشعوب المستضعفة. ويعرف ابن خلدون المثقف بطريقة خاصة فيقول:" أعلم أن السيف والقلم وكلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره – إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة من القلم . لأن القلم هنا خادم فقط ومنفذ للحكم السلطاني، وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها، بعض الشيء، عن السيف لأنه قد تمهد أمره، ولم يبق همه إلا في تحميل ثمرات الملك، والقلم هو المعين له في ذلك "[1]. وكان إدوارد سعيد صريحا منذ البداية، سواء مع السلطة الاستعمارية الاستبدادية أو أثناء مخاطبة الشعوب، وحتى مع نفسه: " إن الكتابة الصريحة في الذات نادرة في تراثنا، وإني لآمل أن يسهم هذا الكتاب في تنمية هذا التقليد –يقصد كتاب : خارج المكان"[2]. ويتمرد سعيد على الاتجاه البنيوي الذي يدفن آلياته في إطار النص، متبرئا من الخلفيات والمناخات التي أنتجته "فقد رفض سعيد تصورات منظري ما بعد البنيوية الذين يرفضون مقاربة لعلاقة النص بالعالم، مفضلين الاهتمام بالتدخل النصي"[3]. إذ يجب، في البداية، أن تستكشف الدوافع الكامنة خلف هذا المنتوج النصي الموجه إلى الشعوب بجدية لمفهوم السلطة. سواء من حيث الطريقة التي تنتقل بها السلطة، تاريخيا وظرفيا، من الدولة إلى المجتمع المشبع بالسلطة، أو العودة إلى العمل الفعلي للثقافة، ودور المثقفين والمؤسسات والأجهزة الاجتماعية "[4].

[1]- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، الفصل 35، في التفاوت وفي مراتب السيف والقلم في الدول، المكتبة العصرية ، د.ط، بيروت، 2002، ص236.

[2]- إدوارد سعيد، خارج المكان، ترجمة فواز الطرابلسي، دار الآداب، ط.1، بيروت، 2000، ص12.

[3]- المثقف والسلطة عند إدوارد سعيد، مذكرة تخرج، ص54.

[4]- فخري صالح ، إدوارد سعيد دراسات وترجمات، ص20 – 21.

سعيد يؤكد على وجود خطة واعية وقصدية في سيطرة الغرب على الشرق فالحكومات والأفراد ليسوا ببساطة عوامل خاملة في هذه الاستراتيجيات"[1]، ومن هذا المنطلق يرفض سعيد تبرأت السلطة من قصدية السيطرة والاحتواء المهيمن على المجتمع، ولهذا يوكل للمثقف مهام مصارحة السلطة وقول الحقيقة، فيما يخص حريات المجتمع وحقوقه الملقاة على عاتق هذه السلطة. ولو أن هذا الموقف المثالي يقل وقوعه في المجتمع ومع هذه القلة لا يجب –كما يريد سعيد– الاستسلام أو الانصهار في الأنماط التي تفرضها السلطة على المجتمع لتنتج بذلك ما يسميه غرامشي "مثقفين عضويين" يتبعون إملاءات السلطة ومن جهة أخرى يتحركون وفق برنامج معين يحصرهم عمليا وفكريا. فهذا النمط من المثقفين يرفضه إدوارد سعيد ويقدم النموذج العملي للمثقف المسؤول الذي يعي مسؤولية النشاط الموكل له:"ولما كان المثقف عادة ما يسبق عصره بأفكاره التي غالبا ما تكون صادمة لكل الثوابت واليقينيات، صار من المحتم أن يكون مجدفا ضد كل التيارات، وهو ما يجعل من فكره ضربا واضحا من ضروب المقاومة لكل ما هو سائد"[2]، وتعمل السلطة على شراء الذمم، أو تكتيم الأفواه، على أمل تمرير مشروع السيطرة والاحتواء. وفي هذا الصدد يقول إدوارد سعيد عن نفسه :" أعتقد أن ما يريدونه هو صمتي، وهو ما لن يحدث أبدا، إلا إذا مت"[3]، ويضيف مبرزا حقيقة دور المثقف في خضم هذا المعترك الحاسم بين سلطة متسلطة وشعب مشتت متضارب القرارات، وربما متناقض لعدم وجود معالم في طريقه نحو نيل حريته وحقوقه، فيقول:" إن دور المثقف هو أن يعارض "[4]. والمعارضة في هذا الصدد لم تنطلق من فراغ أو عشوائية أو طلب الفوضى، ولا من باب "خالف تعرف"، ولكن الواقع المعيش في المجتمعات الشرقية يدفع إلى ذلك.

ولا مناص من أن تجريد الأمور من الشوائب التي علقت بها –ليس من مجرد الصدفة– ولكن ذلك من أجل

[1]- شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ترجمة وتقديم خريس وناصر أبو الهيجاء، دار أزمنة للنشر والتوزيع، ط.1، عمان، 2007، ص34-35.

[2]- محمد الهادي كشت – مجلة تمثيلات المثقف المقاوم –صور المثقف في فكر إدوارد سعيد، العدد الخامس، نيسان – أفريل، 2018، ص218.

[3]- نفس المرجع، ص81.

[4]- إدوارد سعيد، الثقافة والمقاومة، حوار مع دفيد بارساميان، علاء الدين أبو زية (مترجما) بيروت، دار الآداب، 2006، ص81.

إخماد بريقها ولمعانها، وصرف الأنظار عنها، بعد دسها في أرشيف -إن لم نقل رميها في أدراج المهملات- موسوم بـ " قضايا أكل عليها الدهر وشرب ". ومنه يجد المستشرقون المجال خصبا لملء الفراغ، وتلقين المجتمعات الشرقية بالخصوص، ثقافات حسب الطلب، تعمل على تجريد الهويات من محوياتها الأصلية، لتكون طيعة، تتماشى -ضد نفسها- مع قانون السيطرة، والهيمنة السلطوية، والامبريالية الاستعمارية. ولم تكن السلطة -من منظور إدوارد سعيد- إلا امتدادا، بشكل من الأشكال، للمشروع الغربي في الشرق، لأن القوى الاستعمارية لم تسحب بساطها من بلاد الشرق إلا بعد أن مكنت لأتباعها من المرتزقة المحليين. لتسييس الحكم بالمنظور الغربي، وهذا يعني استمرار الهيمنة الاستعمارية بأياد محلية متشبعة بثقافة الغرب، وذلك لديمومة التبعية بأي شكل من الأشكال، وتغيير رداء التبعية لا يحل المشكل، ولكن يطيل عمره، ويفاقم الوضع الداخلي لبلدان الشرق، لمصلحة القوى المعادية. وهنا يظهر دور المثقف كما يقول "سعيد"، ذلك المثقف الواعي، الذي يقدر المسؤولية الملقاة على كاهله :"المثقف فرد، وهب قدرة لتقديم وتجسيد، وتبيين رسالة، أو رؤية، أو موقف، أو فلسفة، أو رأي إلى جمهور ولأجله"[1]، ويواصل سعيد مبرزا الدور المنوط بالمثقف المسؤول : "وهذا الدور له مخاطره أيضا، ولا يمكن للمرء أن يلعبه دون الشعور بأن مهمته هي طرح الأسئلة المربكة علنا، ومواجهة التزمت والجمود (لا توليدها)، وأن يكون إمرءا لا تستطيع الحكومات، أو الشركات الكبرى احتواءه بسهولة، والذي مبرر وجوده، هو أن يمثل هؤلاء الناس، والقضايا التي نسيت بشكل روتيني، أو كنست تحت البساط"[2]، والتاريخ يعلمنا أن السلطة القمعية هي بشكل أو بآخر امتداد واستمرار لسلطة القوى الكبرى ليس إلا ! ، وربما في أحايين كثيرة هي تمرير للمشروع الإمبريالي، وطريقة جديدة لتجسيده. وقد نجحت إلى حد الإبداع في هذا!، والسبب بسيط لأن الأيادي الموكلة بمثل هذه المهام، محلية، أو بالتقريب، وهي على وعي كبير بتفاصيل، وجزئيات، وخصوصيات مجتمعاتنا. ومن هذا المنطلق

[1]- إدوارد سعيد، الآلهة التي تفشل دائما، ص24.

[2]- المرجع نفسه ص 24.

فإنها أدرى بأساليب تقويض وتدجين الشعوب، التي تقع تحت سلطانها دون أن تكون هذه الشعوب قد شاركت في تنصيب هذه السلطات على رأسها. والمثل السائد أن الحاجة أم الاختراع، ومن هذا الضغط المتسلط والجاثم على صدر الشعوب ينبثق أنواع من المثقفين، ويهمنا في هذا الصدد أن نبرز المثقف "الحقيقي" كما يسميه سعيد :" المثقفون الحقيقيون لا يكونون في أفضل حالاتهم إلا عندما تحركهم عاطفة ميتافيزيقية ومبادئ نزيهة للعدالة والحقيقة، ويشجبون الفساد ويدافعون عن الضعفاء ويتحدون السلطة غير الشرعية والجائرة"[1]، وذلك انطلاقا من كون هذا النوع من المثقفين أرسى مبادئه على قاعدة صلبة وراسخة متناغمة مع هويته الأصيلة . يقول سعيد: "المثقفين، أنهم بدقة هؤلاء الأشخاص الذين لا يمكن التنبؤ بسلوكهم العام، ولا إخضاعه لشعار ما، أو خط حزب مبدئي قويم، أو عقيدة ثابتة"[2]. ويجتهد سعيد –هو نفسه– أن يكون من هذه النخبة من المثقفين الحقيقيين، متمردا بذلك على الثقافات المبتدعة من طرف القوى التسلطية العالمية، أو مندوبيها على رأس حكومات البلدان الشرقية، مع استثناءات قليلة أو نسبية. ويكون بذلك سعيد قد عرض نفسه لكثير من الانتقادات والتهديدات، وحملات الدعاية التي تسعى لتشويه صورته في الغرب والشرق "قام باحث مجهول اسمه جاستس رايد فاينر بكتابة مقالة بمجلة كومنتري الأمريكية 1988 تصفه بـ"بروفسور الإرهاب" وأنه مجرد نازي"[3]. مع ذلك يسير إدوارد سعيد وفق الخط الذي رسمه لحياته دون الانشغال أو الاهتمام بما يحاك له. وفي كتاب القلم والسيف –حوارات مع دافيد بارساميان– ويذكر سعيد هذا الموضوع قائلا ومجيبا عن سؤال طرحه عليه محاوره دافيد بارساميان، بخصوص تأمين نفسه من المخاطر التي قد تنجر عن مواقفه المعادية للسيطرة الإمبريالية على الشرق، فيقول : "لا أفكر بالأمر كثيرا.. ، إذا تابعت التفكير في أي مشكلة من هذا النوع، فإن الأسوأ يكون قد حصل، عن طريق جعلك عاجزا عن العمل. ،.إنه لأصعب على أولئك الناس مما هو عليك ..، أعتقد أن الأمر

[1] - إدوارد سعيد، الآلهة التي تفشل دائما – ترجمة حسام الدين خضور – التكوين للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، 2003،ص19.

[2]- المرجع نفسه ص08.

[3]- خارج المكان، مرجع سابق، ص358.

الأساس هو أن تستمر في طريقك، وتذكر أن ما تفعله وتقوله يعني أكثر بكثير من كونك آمنا أولا "[1].

[1]- إدوارد سعيد، القلم والسيف، حوارات مع دافيد بارساميان، ترجمة توفيق الأسدي، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق – برامكة، ط.1، 1988، ص09.

- **الثقافة والإمبريالية:**

إن محور الدراسة في هذا البحث المتعلق بالثقافة والامبريالية هو الصراع بين قوة الهيمنة المتمثلة في الامبريالية، وما تحمله من خطاب استعماري استشراقي تعمل على بثه في جغرافيا الشرق، والثقافة المقاومة لهذا الامتداد الاحتلالي والتي تناضل من أجل تحرير الفكر المحلي، وإقامة دعائم للثقافة الأصيلة، عن طريق صد الغزو الفكري الغربي، وتفكيك شيفراته من أجل استئصال آثاره السلبية، ومخلفاته من معين الثقافة الأصيلة. وهذا الصراع المتمثل في المد والجزر بين الثقافة المقاومة والسياسة المهيمنة خلق جوا ثقافيا جدليا أو طباقيا، كما يحلو لسعيد أن يسميه، لأن: (القراءة الطباقية يجب أن تدخل في حساباتنا كلتا العمليتين، العملية الإمبريالية وعملية المقاومة لها، ويمكن أن يتم ذلك بتوسيع قراءتنا للنصوص، لتشمل ما تم إقصاؤه ذات يوم بالقوة)[1]. وبين هذا الجدال تنشأ نصوص وثقافات متشبعة وناضجة ومهيأة للنقد، بما أنها تأثرت وتشبعت من موارد متعددة ومتضاربة ناتجة عن ثقافة القوة، وفي مواجهتها قوة الثقافة، وهذا لا يعني أن قوة الثقافة هي استجابة آلية لثقافة القوة، أو انعكاس لها، أو ردة فعل لا إرادية. وإنما هي البديل المنطقي الذي يتم وفق أطر معينة ومحددة من أجل فرض الذات المستلبة من طرف الآخر. وهذا الطرح من المنظور العام، فكل الميادين تأثرت بهذه العملية، وما ثبت على الكل هو بصيغة أعمق يصح إسقاطه على الجزء وإثباته به، فما يصح أن يقال عن الثقافة، هو بصورة أوجب يصح على الأدب والنقد، الذي هو موضوع الدراسة: "المقاومة بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد ردة فعل على الإمبريالية، فهي نهج بديل في تصور التاريخ البشري. إنه لذو أهمية خاصة أن نرى إلى أي مدى يقوم هذا النهج البديل في إعادة التصور على تحطيم الحواجز –القائمة– بين الثقافات الحواضرية، وتخريب السرديات الأوربية عن الشرق وأفريقيا، واستبدالها بأسلوب سردي جديد، أكثر لعبا وأشد قوة، تشكل مكونا رئيسيا في هذه العملية"[2].

[1]- الثقافة والامبريالي ص 135.
[2]- الثقافة والامبريالية ص274.

يكون السياق دائما اللاعب الرئيس في التناول السردي سواء الكولونيالي –خطاب السلطة– أو ما بعد الكولونيالي –خطاب آثار السلطة–، ذلك الخطاب الذي يظهر بقوة في أعمال ميشيل فوكو، ولكن من زاوية أنه خطاب مسيطر إلى درجة أن لا مجال لمقاومته من طرف المجتمعات المقهورة. إنه بحق اقتدار الغرب الإمبريالي على التأثير الخطابي لفرض ثقافة التبعية. ويجدر بالذكر أن الخطاب يشمل مختلف مجالات الحياة الشرقية وتفاصيلها، حتى ليبدو في الظاهر أنه محتو لكل الحياة، هناك، في حياة الآخر. إلا أن سعيدا ينطلق من 'ميشيل فوكو' ليصل إلى ذاته المقاومة، فهو يحلل ويتبنى مفهوم الخطاب الفوكوي، من أجل فهم آليات نشاطه النقدي والفلسفي، ولا يتوقف عند هذا الحد، ولكنه يتجاوز ذلك إلى خلق الدافعية للمقاومة، وإمكانية الخروج من أسر هذا الخطاب: "المشكلة التي لدى سعيد، هو إحساس متردد، بأنه مبهور بالطريقة التي تعمل بها السلطة، أكثر مما هو ملتزم بالمحاولة في تغيير علاقات السلطة في المجتمع. إن مفهوم فوكو للسلطة كونها شيء يعمل في كل مستوى اجتماعي لا يفسح مجالا للمقاومة.. أما هدف سعيد فعلى العكس، ليس أن يقع في الفخ، بل أن يبين ما هو كامن، كي يقاوم من جديد [1]".

أي أن فوكو التزم بجانب واحد من العملية الطباقية، وهو دافع القوى الإمبريالية إلى درجة السيطرة، دون أن يكمل، أو يهتم بالجانب المقابل الذي يمكنه أن يكون مقاوما لهذه الحركية. وبالمقابل يعمل سعيد على تحقيق مفهوم "الطباقية" في عمليته النقدية وقد ظهر ذلك جليا في أعماله. فهو إضافة إلى خطاب فوكو أضاف خطابا آخر مضادا، وفي ظل هذا الصراع يتمخض النقد الثقافي، والثقافة المقاومة، وقد كتب سعيد مؤلفا موسوما بـــ: "وضع تنامي الإمبريالية من حيث المدى والعمق، وتنامت أيضا المقاومة في المستعمرات نفسها، وكما حدث في أوروبا أن التراكم الكوني الذي ضم الأقاليم المستعمرة إلى اقتصاد السوق العالمية، قد كان مدعما ومؤزرا من قبل ثقافة منحت الامبراطورية رخصة عقائدية، فقد حدث في الفضاء الإمبريالي ما وراء البحار أن المقاومة السياسية

[1]- بيل أشكروفت ،بال أهواليا، إدوارد سعيد مفارقة الهوية، ترجمة سهيل نجم، نينوى للدراسات والنشر، دمشق، دار الكتاب العربي القاهرة،2002 ص 95.

والاقتصادية والعسكرية الهائلة كانت تدفعها إلى الأمام، وتفعمها ثقافة مقاومة استفزازية ومتعدية فاعلة، ولقد كانت هذه ثقافة ذات تراث عريق من التكاملية والقوة في ذاتها، وبصورة مستقلة، ولم تكن ببساطة استجابة منفعلة متأخرة للامبريالية الغربية"[1].

ويجلو بوضوح أثر الصراع الامبريالي، والمقاوم في سرديات أدباء الغرب التي نتجت أساسا انطلاقا من اعتمادها على تصوير الواقع من منظور غربي، مركزي، في أغلب الأعمال "تشكل سرديات العبيد المحلية والسير الذاتية الروحية، ومذكرات السجون، حركة طباقية لتواريخ القوى الغربية الشاهقة، ولإنشاءاتها الرسمية، ولوجهة نظرها الكلية الرؤية"[2]. وفي اللغة التي هي الوسيلة والأداة اجتهد هؤلاء المستشرقون، والأدباء الغرب في تطويعها، وأقلمتها مع مشروعهم الاستعماري، فظهرت هنالك مصطلحات جديدة، ومفردات خاصة بهذا الحقل الدراسي، الذي لا ننكر أن له جوانب موضوعية، ولكن أغلب أهدافه وتوجهاته، وإن كانت ثقافية، إلا أن الغرض منها أساسي. ولأن الثقافة هي حياة اللغة، فإن هذه الأخيرة تستمد حياتها ووجودها وحركيتها في مساحة الثقافة، "إن مفهوم اللغة مفهوم مركزي، لكن في غياب ممارسة ثقافية قومية من الشعارات إلى النشرات والصحف، من الحكايات الشعبية والأبطال الشعبيين إلى الشعر الملحمي والروايات والمسرحيات، تظل اللغة خاملة، فالثقافة القومية تقوم بتنظيم الذاكرة الجماعية، وتعزيزها، والحفاظ عليها،كما يحدث حين تستعاد الهزائم المبكرة في قصص المقاومة الأفريقية"[3].

ويظهر هذا المفهوم أو الدور العام للغة عندما يتم شحنها بمعطيات ثقافية. ولو قمنا بدراسة وتفكيك الأدوات اللغوية في ظل السياق الثقافي الامبريالي لوجدنا أنها اتبعت ايديولوجيا معينة، بعد أن تم تلقينها وتزويدها بأدوات واصطلاحات وترميزات وأيقونات جديدة أو خاصة بهذا الحقل، مما وجهها إلى نحو معين لخدمة ايديولوجيات

[1]- الثقافة والامبريالية ص280
[2]- الثقافة والامبريالية ص273-274
[3]- الثقافة والأمبريالية ص 273

مدروسة سلفا، في سبيل الوصول إلى نتائج. ومهما كانت هذه النتائج، فإن دورها الموكول لها هو دعم المشروع الاستيطاني، وبالمقابل محاولة أو العمل على إجهاض مشروع المقاومة: "لقد قامت هذه الثقافة المتمركزة أوربيا دون هوادة بترميز وتقنين الثقافة المتمركزة أوربيا، ولحظ كل شيء يتعلق بالعالم غير الأوربي، أو الأطرافي وفعلت ذلك بقدر بلغ من الإتقان والتفصيل أنه لم يترك إلا القليل من الأشياء دون مساس، وإلا حفنة من الثقافات دون دراسة، وإلا بضعة من الشعوب، وبقاع دون استيلاء"[1].

يجرنا هذا النص الأخير إلى مفهوم الهيمنة والمتعلقة أساسا بنظرية أنطونيو غرامشي، وقد استفاد منه سعيد لتعرية الخطاب الكولونيالي، الذي ينص على تبعية الشرق للغرب، ويطرح سعيد في كتابه (الثقافة والأمبريالية) نظريته التي تشمل مجال دراسته في هذه الأطروحة: "النظرية التي أقدمها في هذا الكتاب هي أن الثقافة قد أدت دورا هاما جدا، لا غنى عنه بحق، فلقد كانت تقبع في السويداء من الثقافة الأوربية إبان العقود العديدة من التوسع الامبريالي، تمركزية أوربية، لا رادع لها، ولا هوادة فيها. ولقد قامت هذه التمركزية بمراكمة للتجارب والأراضي والشعوب، والتواريخ ودراستها وتصنيفها للتمحيص والتحقق، وأتاحت –بتعبير كالدر- لرجال أعمال أوربيين – القوة- على أن يخططوا ويكيدوا بجلال، لكنها فوق كل شيء، أخضعتها وألحقتها بها عن طريق نفي هويتها _ إلا كشكل من الوجود أدنى مرتبة من الثقافة، بل نفيها من فكرة أوربا البيضاء المسيحية عينها. وينبغي أن تعاين هذه العملية الثقافية بوصفها نقطة طباق (كاونتريوينت) حيوية، مفعمة، ومنشطة للآلة الاقتصادية والسياسية، الكامنة في المركز المادي من الأمبريالية"[2].

وحتى العملية التعليمية التي كانت تتم تحت إشراف ومباركة السلطات الاستيطانية، لم تسلم من هذه الأيديولوجيا، وإنما تم شرقنتها هي الأخرى _إن صح التعبير_، فكانت البرامج الدراسية _دائما_ ترفع من شأن الثقافة الغربية المتمثلة بشكل كبير في القوى الاستعمارية الفرنسية والبريطانية. ويتم ذلك بلغة الاستعمار، وعلى

[1]- الثقافة والامبريالية ص280.
[2]- الثقافة والامبريالية ص279ص280.

حساب لغة السكان الأصليين : "إذا كان أحد أغراض التعليم الاستعماري إعلاء شأن فرنسا وبريطانيا، وترويجه فإن ذلك التعليم ذاته حط من شأن التاريخ الأصلاني، وهكذا فقد كانت ثمة دائما بالنسبة للأصلاني: انجلترات والفرنسات، كمستودعات قصية لـ _الكلمة_ رغم الوشائج التي تطورت بين الأصلاني والرجل الأبيض خلال سنوات التعاون المثمر"[1]. وهذا ما ولد في كثير من الحالات ثقافة اليأس والخضوع والتبعية التي يشير إليها سعيد في كتابه الاستشراق ويقدم مقاربة مؤسفة تتمثل في الموازنة بين تعداد وعدد جنود وسكان الاستعمار البريطاني الموجود في بلاد الهند، والذي يقارب المائة والخمسين ألفا، فيهم الجنود وهم ستون ألفا، والإداريون وهم خمسة آلاف، إضافة إلى المواطنين الذين لم يتجاوز عددهم التسعون ألفا. وبالمقابل فإن عدد السكان الأصليين تجاوز الثلاثمائة مليون نسمة! . إنها مفارقة عجيبة إلى درجة الأسف، ولكن الحقيقة تكمن في التأثير الثقافي الاستشراقي على هؤلاء الهنود وغيرهم. والاستيلاء الجغرافي والاقتصادي، وهذا ما أنتج أدب المقاومة الذي انبثق من اليأس والضغوطات الممارسة من طرف الامبريالية: "لننظر من جديد إلى أدب اللحظة الأولى لحظة المقاومة ضد الأمبريالية، إذا كان ثمة ما يميز خيال مناهضة الامبريالية تمييزا جذريا، فإنه أولية العنصر الجغرافي. فالامبريالية بعد كل حساب، فعل من أفعال العنف الجغرافي، الذي يتم عن طريقه استكشاف كل فضاء في العالم ،وتخطيطه وإخضاعه أخيرا للسيطرة. ولقد دشن تاريخ العبودية الاستعمارية بالنسبة للأصلاني بفقدان المكان المحلي لمصلحة الغريب الخارجي، ومن ثم وجب البحث عن هوية المكان الجغرافية، واستعادتها بصورة ما، لكن حضور الخارجي المستعمر يجعل استعادة الأرض متعذرة في البداية إلا في الخيال"[2]. أي الخيال المدون في النصوص الأدبية والسرديات الروائية التي كانت ترى استغلال بلدانها ضربا من الوهم. ونستحضر في هذا المقام اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية، الذي قابله العدو الفرنسي بإعلان صحفي يتحدث عن أعمال شغب، افتعلها بعض الفوضويين المتمردين هنا وهناك، وهو سرعان ما سيخمد في هذه المقاطعة الفرنسية المسماة _الجزائر_. وقابل هذا

[1]- الثقافة والامبريالية ص 281
[2]- الثقافة والامبريالية ص 276

الخطاب الاستعماري بيان الفاتح من نوفمبر، الذي أعلن عن ثورة يقودها مقاومون جزائريون ضد عدوان فرنسي احتل الأرض (الجغرافيا) ، وطمس (التاريخ) ، الذي يثبت أن الجزائر ليست فرنسية ولا تريد أن تكون فرنسية ولا تستطيع أن تكون فرنسية ولو أرادت _كما يقول العلامة عبد الحميد بن باديس رحمه الله "[1].

وحتى اللغة العربية لم تسلم من هذه العملية، واستبدل مكانها باللغة الفرنسية التي تم الترويج لها على أنها لغة العصرنة، وبالمقابل تم ربط اللغة العربية بكل أنواع التخلف والتعصب والإرهاب والمحدودية الفكرية.

"إن فكفكة الاستعمار معركة بالغة التعقيد حول مسار مصائر سياسية مختلفة، وتواريخ وجغرافيات مختلفة. إنها التحفل بأعمال من إنتاج الخيال، والبحث والبحث المضاد، ولكن نسيجه محوك أيضا من روائيين وموظفين استعماريين..، وهو محوك أيضا على سبيل الاستجابة لذلك من هنود _شرقيين_ يكتبون روايات عن نصيب أعظم لأنفسهم في حكم أنفسهم. ومن مثقفين وخطباء يناشدون الجماهير التزامات أعظم، وتعبئة أشد من أجل الاستقلال"[2].

[1]- نقلا عن مذكرتنا لرسالة الماجيستير الموسومة ب الخطاب الإصلاحي والنقد الاجتماعي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس كلية الأدب العربي والفنون جامعة مستغانم دفعة التخرج 2015

[2] - الثقافة والامبريالية ص 276.

- **الثقافة والامبريالية و الأدب الكولونيالي:**

إن إدوارد سعيد وضع بصمة غير مسبوقة، أو ربما فرضت نفسها، في ظل الظروف المحيطة الاجتماعية والسياسية التي ظهر فيها الكتاب (الثقافة والإمبريالية) ، حيث الرواية الكولونيالية التي تحمل اللغة الفوقية والتصور الدوني للآخر، الذي هو في أغلب الظروف "إنسان الشرق". هذا إذا سمح له أن يكون إنسانا في الأدب الغربي إبان فترة ما بعد الكولونيالية. والتي مازالت تحتفظ بمركزيتها رغم تغير الأحداث، وهي ترسل أحكامها محاولة فرضها على الآخر، من منطلق أنه مجرد خادم لبلاط الإمبراطورية سابقا وآنفا، لأنه من صنعها، و لذلك لا يحق له الانتماء إليها، بل يبقى مجرد تابع "رغم أن هذا الأدب والنقد الجديد –الذي أنتج روائيين وشعراء هو ما بعد إمبريالي، لكنه يظل متعلقا بالامبريالية ذاتها، وإن إحدى المنظومات الرئيسية في الثقافة والإمبريالية هي رفض الكتاب للفصل المطلق، بين الأبيض وغير الأبيض، بوصف هذا الفصل أسطورة من الأساطير الآثمة للإمبريالية ذاتها "[1]. ويريد سعيد توحيد البشر تحت مظلة الإنسانية، وكسر لغة الفوقية والترويج لمفهوم الجنس الراقي، وسياسة العبيد والأسياد. لأن اللون لم يكن يوما ما مبررا للتعالي أو السيادة وحكم الآخر، وفرض التبعية عليه. وينعت سعيد هذه الإيديولوجية المتخلفة بأنها " أسطورة إمبريالية آثمة" ضاربا عرض الحائط الأعداد التي لا حصر لها من الروايات والسرديات الغربية التي تتبنى هذا الطرح بل تفرضه وتعمل على ترويجه إلى أبعد الحدود ليصبح ناموسا ساري المفعول فيتقبله الغرب بفخر ويقبله الشرق بانهزامية واستسلام، وحين يلغي "سعيد" هذا الطرح ويرفضه من أساسه، فإنه يقدم المقابل ويطرحه كحق واجب نيله، وليس كموضوع معروض للنقاش " فالحق أن عالمنا هو عالم معروض من المشاركة والثقافات المتقاطعة التي تمتلك علاقاتها ونزاعاتها من الثراء الفتان ما يمتلكه التاريخ الإنساني عينه "[2]، ورغم أن الكاتب يعيش في بلاد الغرب إلا أنه يقر بأن الدوافع الحقيقية التي جعلته يتصدى لثقافة

[1]- الثقافة والإمبريالية، مرجع سابق، ص11.

[2]- الثقافة والإمبريالية، مرجع سابق، ص11.

الإمبريالية هو جرحه الغائر "فلسطين"، إذ يقول: "وإنه لمن الملائم أخيرا أن أقول لقرائي العرب إن فلسطين، رغم أنها لا تذكر هنا مرارا تؤدي دورا تأسيسيا هاما في تفكيري بالعلاقة بين الثقافة والإمبريالية "[1]، وكأن المأساة المتمثلة في الاعتداء الصهيوني على فلسطين كان بمثابة ضربة موقظة للكاتب ليقوم بحملته النقدية على الأسلوب الغربي في التعاطي مع الأحداث رغم التراجع المزعوم للاستعمار والذي هو بمثابة خروج الممثلين أو بعضهم من الخشبة –الركح– ووقوفهم خلف الستار لإخلاء المجال لممثلين آخرين للعب أدوار –حسب ما تمليه المسرحية أو العرض– على أن الوقفين وراء الستار ينتظرون أدوار أخرى موكلة لهم حسب ما يتضمن السيناريو المسرحي..، ومن هذا المنطلق يقدم سعيد طرحه المقابل لهذا أو يعرضه على شعبه فلسطين وإن كان يقصد كل أهله في بلاد الشرق " وإني لأؤمن أيضا إيمانا قويا بأنه لا يمكن إلا لاستخطاطية " –يقصد بها الإستراتيجية– (للمقاومة المنسقة) بين العرب أو كل أهل الشرق "متناغمة" أي منسجمة متكاملة موحدة متبادلة الأدوار مع الأطراف المتعاونة على هدف واحد مشترك " أن تنتج سردية حقيقية لاستنهاض شعبنا من جديد" أي فلسطين لأن القضية تمسه بشكل مباشر لأنه فلسطيني . أم أن الفكرة تشمل باقي المناطق القائمة تحت القمع .." واستنفاره وتجميع قواه " وذلك للتأهب للمواجهة الحتمية إذ أنه في كل الحالات معروض على هذا الشعب الفلسطيني وهو النموذج المصغر والمثالي للمقاومة "وبأن استخطاطية جديدة كهذه قادرة على تحقيق التقرير الذاتي للمصير الفلسطيني " أي يريد أن طرق المقاومة هو المنقذ الوحيد والأوحد لنيل الكرامة واسترجاع الحقوق المنهوبة، " إن تاريخ الامبريالية ليعلمنا أنه ليس في وسع شيء سوى فكرة حقيقية للتحرير والمساواة أن يقاوم قوة الامبريالية ويصدها "، يردي بهذه الفكرة ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، أو المثل الآخر الذي يقول: إن الحديد بالحديد يفلح ومن جهة أخرى ينوه، ويصر على أن التاريخ يعيد نفسه والمشكلة تكمن في جهلنا به وبقوانينه الثابتة على مر العصور. " وإنها لمأساة بحق أن جهلنا للتاريخ وللقوة الاستعمارية " النابع من الإهمال واللامسؤولية والنظرة

[1]- الثقافة والإمبريالية، مرجع سابق، ص12. المقدمة.

الضيقة، وموت المبادرة "يبدو أنه علّم مهندسي 'أوسلو' الفلسطينيين أن الاستسلام الخانع المتذلل مصحوبا بصرخات النصر "الكاذبة" قد يحقق النتيجة ذاتها التي تحققها حملة حقيقية من الاستنهاض والاستنفار والمقاومة: بل إنها لمأساة وإهدار وضياع "أن نضع نصرا مزيفا ونعيش وهم الحرية المزعومة التي تقدم على طبق في المحافل الدولية تحت رعاية الدول الامبريالية "بيد أن أجيالا مقبلة من الفلسطينيين قد تستيقظ وتعي هذا الواقع . وإنني لا آمل أن يكون هذا الكتاب مصدر عون ومنبع أمل لها "رغم عمق الجرح وسوداوية المشهد وعدم تكافؤ الجبهات إلى درجة مروعة: شلة من الفلسطينيين بالحجارة تواجه الصهاينة بأحدث الأسلحة ومن خلفهم الدول الغربية الامبريالية التي تنشر ثقافة الخوف وعدم جدوى المقاومة. وما يسميه إدوارد سعيد سياسة (الرجل المجنون) الذي يضرب بشتى الأسلحة وهو مستعد لإبادة الشعوب ! وذلك من أجل تحطيم المعنويات وغرس الفكر الاستسلامي الانهزامي التملقي . وقد أظهر سعيد بعدا جديدا لقراءة الرواية والأدب الغربي ككل وهي العلاقة الوطيدة بين الأدب والإمبريالية كما يقول المترجم كمال أبو ديب في مقدمته لهذا الكتاب " في هذا الكتاب يطرح سعيد مثلا نظرية ثالثة تضاف إلى اثنين مشهورتين في نشأة الرواية وتاريخها، ويفسر انتشار الرواية الملازم لانتشار الامبريالية وفكرة الإمبراطورية .. فهو يربط بين تجاوز الفضاء الجغرافي وبين الرواية . وبين حركة التوسع الإمبراطوري وبين ازدهار الرواية، لا ربطا آليا جامدا بل ربطا حيويا خلاقا . يجلو كيف تتجسد الوشائج في بنية الرواية ذاتها وآليات تشكيلها "[1]. وهذه التوأمة اللصيقة بين الرواية (الثقافة) والمد الاستعماري (الامبريالية) لم تكن مطروحة في كتابات سابقة بالوضوح الموجود في مخطوطات إدوارد سعيد خاصة في كتابه هذا، ويسوق المترجم لنا نموذجا عن روائي فرنسي ذو خلفية كولونيالية يتناوله سعيد في نقده بطريقة لا يترك مهما شك إلى درجة أنه يفضح أسلوب السخرية اللاذع ولغة الفوقية والغطرسة التي يمارسها الكاتب " ألبير كامو " في روايته الشهيرة المعنونة بـ: (الغريب L'ETRANGER). وإن قراءته لكامو لهي أخطر ما عرفته من قراءات تسلخ عن كامو سريته وسحر

[1]- الثقافة والإمبريالية، مرجع سابق، ص12.

لفعه به القارئ الغربي من ولع بالشرط الانساني، بل هو سعيد يحيل هذا التعبير إلى مصدر للسخرية اللاذعة، إذ يكشف أن في الجوهر من عمل كامو الدفاع عن الإمبريالية الفرنسية، وإلغاء التاريخ الجزائري السابق على استعمار فرنسا، وهو يفسر المكونات لعمل كامو في إطار إشكاليات معرفية مرتبطة بالمنظور الإمبريالي "[1].

وإن كان لرواية "الغريب L'ETRANGER " لألبير كامو كثيرا من الإطراء في الأوساط الأدبية الغربية – وللأسف العربية (الشرقية) كذلك– فإن مضمون الخطاب السردي لهذا النص ينطلق من ركيزة استعمارية (فوقية) لا تخلوا من نبرات وإشارات وإيحاءات إمبريالية تعطي الأحقية للاحتلال الفرنسي – الذي يتكلم عنه ألبير كامو على أساس أنه واقع عادي – بأن يدير دفة الحكم في الجزائر مستعمرته الخاصة، ويتكلم الكاتب في بعض صفحاته عن معاملاته للمجتمع الجزائري. خاصة عندما يتناول المرأة التي يصفها حسب ذوقه الأدبي: أنها مجرد وسيلة تسلية ظرفية ثم يتجاوزها إلى شؤون الحياة الأخرى فتصير "هي" لا حدث وهو يتكلم عنها ويصفها، ولا يترك لها المجال للحديث عن نفسها، لأنها ببساطة غير مؤهلة لذلك. إضافة إلى الأسلوب العبثي والسخرية، ولغة الاستصغار المستعملة في نصه. وكأن الأمر في الأخير لا يعدو أن يكون مضيعة وقت، مع مجتمع بدائي، لا جدوى منه، إلا ما يعود على الكاتب باللهو أو إشباع نهمه وغرائزه. ومن هذا المنطلق يعطي سعيد تحليله ونظرته إلى هذا الكاتب، ويكشف السياقات المندسة وراء تلك اللغة البليغة والتصوير الأدبي الجذاب، يقول سعيد: "لكي يموضع المرء كامو طباقيا–والطباقية مصطلح استعاره سعيد من علم الموسيقى ووصفه في كتاباته الأدبية– في معظم تاريخه الفعلي (نقيض الجزء صغير منه)، ينبغي أن يكون متيقظا بالغ التنبه لأسلافه الفرنسيين الحقيقيين، إضافة إلى أعمال الروائيين والمؤرخين وعلماء الاجتماع، وعلماء السياسة، الجزائريين ما بعد الاستقلال، ما يزال ثمة تراث أوروبي التمركز لحل رموزه (وملحاح) من السد التأويلي لما قام كامو .. بسده حول الجزائر.

[1]- الثقافة والإمبريالية، مرجع سابق، ص13.

وما قام هو وشخصيات مختلقاته بسده، حيث وقف كامو في سنواته الأخيرة يجهر علنا بل وبحدة معارض لمطالب الوطنيين الجزائريين بالاستقلال . فقد فعل ذلك بالطريقة ذاتها التي كان قد مثل بها الجزائر منذ بداية حياته الفنية .."[1]. ولو عدنا إلى مفهوم الطباقية Contrapuntalism فنجد أنه المصطلح المفتاحي للدراسة في كتاب "الثقافة والإمبريالية "والمفتاح المنهجي في هذا الكتاب (الثقافة والإمبريالية)، هو مفهوم الطباقية Contrapunlatismالذي يستمده –سعيد– من الموسيقى وفيه تتبارى وتتصادم ألحان (موضوعات) متنوعة من دون أن يكون لأي منه امتياز إلا بصورة مؤقتة لا تحول دون ظهور سواها كخلفية أو محيط أو دون انطواء تعدد النغمات على تلاؤم ونظام"[2].

[1]- الثقافة والإمبريالية، مرجع سابق، ص14.

[2]- المثقف والسلطة عند إدوارد سعيد – مذكرة تخرج – ص58.

- **آداب ما بعد الكولونيالية :**

يدرس سعيد أثر الاستشراق والثقافة الدخيلة التي أمليت على المجتمعات الشرقية أو السكان الأصليين في غيبة منهم إثر الصدمات التي تلقوها على مرور عقود أو قرون من القوى الامبريالية المهيمنة حتى غدت هذه الآداب الدخيلة لها روادها والمدافعين عنها الذين تبنوا –تشرقنوا– مواضيعها دون مقاومة. وهذا ما ذكره سعيد في نقده لأدب ما بعد الحقبة الكولونيالية، والذي جاء للتأثير على الذهنية المحلية، والتسويق لثقافة التبعية والمركزية الغربية، وتأطير الرجل الأبيض لذلك الرجل "الملون"، وهنا تبرز إشكالية الهوية الشرقية. يقول الكاتب ثائر ديب في مقاله أدب ما بعد الكولونيالية :"فمن السمات المميزة لظهور الآداب ما بعد الكولونيالية الحديثة عنايتها بالمكان " –ويقصد عالم الشرق– "والانزياح والانخلاع، حيث تبرز أزمة الهوية الخاصة بما بعد الكولونيالية –لأن المستعمر ركز قواه على طمس معالم الثقافة الأصيلة وتقديم الاستشراق كبديل لملء الفراغ، ولا نقصد الاستشراق بالمفهوم العام، ولكن ذلك المدلول الذي يحمل في طياته المشروع الاستعماري، وفرض التبعية، والتشكيك بثوابت الهوية للأمة، وارتباط الإنسان بأرض، ويواصل الكاتب"كما يبرز البحث الصارخ علاقة تربط بين الذات والمكان، فثمة إحساس بالذات والهوية كان ساريا وفاعلا، إلى أن بتره الانزياح والانخلاع، الناجمان عن الاستعمار والاسترقاق أو التهجير والهجرة، ولعل ذلك الإحساس، قد بتر أيضا، من خلال تسويد صفحة الثقافة الوطنية "– أي أن هناك حملة لعرض أو تقديم الاستشراق على أنه الحل الأمثل، توازيها حملة لتشويه الثقافة المحلية –"واضطهادها مع الشخصية الوطنية، من خلال نموذج عرقي أو عنصري يزعم التفوق وعموما أن تخلع الذات والمكان، وما ينجم عن ذلك من اغتراب وأزمة في صورة الذات وهويتها. ومن الاندفاع إلى العناية بأساطير الأصالة والتراث، وهي الملامح المشتركة بين الكتابات ما بعد الكولونيالية، على الرغم من جميع الاختلافات التاريخية والثقافية بين التجارب مما دفع بعض النقاد إلى النظر إلى هذا الأمر،على أنه هو الميزة الواسمة لما بعد الكولونيالية "[1].

[1]- ثائر ديب، أدب ما بعد الكولونيالية، مجلة بناة الأجيال، سورية، العدد53 خريف، 2004، ص164.

والنموذج العرقي الذي يأتي به النص ويلبسه هالة الإمامة — بالمنظور الغربي – إنما هو الإنسان الأبيض من سكان أوروبا فهو الذي صنع التاريخ وبناء على صناعته تلك نتجت هذه اللغة التي عملت على جرد الأحداث والوقائع والثقافة ككل وكانت هي الموجه لها لأن اللغة هي التي تحمل الثقافة وتحفظها تحت رعاية الهيمنة الكولونيالية والسياقات التي تشكلت والتفاعل الاجتماعي والحضاري تتمخض عنه خطابات – بالضرورة – وتعكس على الوعي الفكري للأمم وأحسن نموذج يبين ذلك هو آداب ما بعد الكولونيالية الذي يحمل لغة خفية خاضعة لمذهب وإيديولوجيا الغرب – التفوق – ومركزيته توجه اللغة المقروءة في نصوص آداب بعد الاستقلال . ولا يمكن بحال شاركت في الإنتاج النصي .

والدراسة النقدية تشير إلى هذا: "غالبا ما أدى الاستعمار إلى اغتراب لغوي عميق لا سيما حين عمد إلى الفتح العسكري أو الاسترقاق، إلى القمع وتدمير ثقافة ما قبل الكولونيالية "[1]، ولعل هذه الحملة التدميرية للثقافة أساسها بناء ثقافة أخرى على أنقاضها تكون هذه الثقافة الثانية هي لغة الخطاب الاستعماري، الذي يخضع الثقافات الأصيلة، أو لثقافات السكان الأصليين في سبيل خدمة مشروعه، من أجل ضرب الهوية، وتلقين ثقافة التبعية والخضوع لمركزيته المهيمنة، في تسيير شؤون الأمم الشرقية –العاجزة عن تمثيل نفسها ! ،كما يدعي، لذلك، ومهما اختلفت النصوص، واتصلت بذاتيات الكتاب ونزعاتهم وعواطفهم المختلفة، وربما المتضاربة أحيانا، إلا أن الخطوط العريضة للمشروع التثقيفي في المنطقة موحدة، ولا يمكن تجاوزها. وهنا يظهر مفهوم الصراع الطبقي داخل نصوص ما بعد الكولونيالية. وتأتي مهمة النقد الثقافي لتفكيك وتحليل حيثيات هذا الصراع وآثاره. ويحذر إدوارد سعيد بقوة في أطروحته الاستشراق من الوقوع في كمين الشرقنة، هذا الكمين الثقافي الذي يبدو في الوهلة الأولى المنجى والملجأ :"إن خطاب الاستشراق في صيغته النهائية هو تحليل صورة الآخر، الإسلام و العرب و سائر

[1]- بيل أشكروفت وآخرون، الإمبراطورية ترد بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار النظرية والتطبيق،، ترجمة خيري دومة، عرض الدكتور عمر زرفاوي، مجلة أبوليوس، جامعة سوق أهراس الجزائر، 26 جوان 2018م ص78

الأخرى غير الأوروبية، بعبارة أخرى هو رؤية كونها الغرب لنفسه عن الآخر و إذا استعرنا أدوات إدوارد سعيد المعرفية فإن الاستشراق خطاب أو إنشاء لكنه خطاب لا يعكس حقائق أو نتائج، بل يصور تمثلات أو ألوانا من التمثيل حيث تتحقق القوة و المؤسسة و المصلحة، إنه خلق جديد للآخر أو إعادة إنتاج له على صعيد التصور و التمثيل مما يجعل من الاستشراق موضوع معرفة بينما موضوعه الذي هو الشرق موضوع واقع لا تربطه به صلة تطابق انعكاسي .بل يذهب المفكر إدوارد سعيد إلى أبعد من ذلك حين يؤكد أن بنية الاستشراق ليست سوى بنية من الأكاذيب أو الأساطير التي ستذهب أدراج الرياح إذا ما انقشعت الحقيقة المتعقلة بها"[1].

وهذا ما يشجع على التخلي عن اللغة الأم المحلية، بناء على أنها لا تحمل الدلالات المراد توظيفها في خطاب ما. وهذا ما يفرض لغة المستعمر، التي مازالت آثارها في الآداب المحلية إلى درجة كبيرة، وحتى لغة المشافهة بدأت تنحو هي الأخرى، نحو الاستعانة بمعجم وقاموس الاستعمار، وذلك بدعوى التمدن والتحضر، ومواكبة العصرنة والتحديث اللغوي. ولا دل على ذلك من الخطاب العامي المتداول في المجتمعات الشرقية. يقول الكاتب شيلي واليا :"تمارس الهيمنة –تبعا للاستعمال الغرامشي – تأثيرها على الجماهير عبر الاستعمال الرهيف، واللاواعي أيضا، لعملية الإقناع. ويلعب فرض نمط من اللغة وانجاز الكتابة الأدبية والتاريخية عبرها دورا هاما في إنشاء أنظمة ومؤسسات تكرس إيديولوجيا الطبقة المسيطرة وترسخها"[2]. إذن يمكن اعتبار الخطاب مشترك بين آداب مرحلة ما بعد الكولونيالية، وهو لا يخلو مما أسماه إدوارد سعيد "الطباقية". أما قضية المكان فلا يعدو أن يكون الشرق بكل أحماله، ذلك البساط الأرضي الذي تصارعت على ركحه أطراف متعادية، أو متنافسة ومتسابقة من الغرب والشرق الضحية المستباح –وهذا الصراع حملته لغة السرد الثقافي الغربي لبلاد الشرق –وكان الأجدر أن يسرد أهل الشرق تاريخهم وثقافاتهم الأصيلة، والمرتبطة بشكل مباشر بأمجادهم، وبلغاتهم المحلية، ولكن الامبريالية أخرست

[1]- إدوارد سعيد :الاستشراق ترجمة كمال أبو ديب مؤسسة الأبحاث العربية ط 1 بيروت 1984 ص41

[2]- شيلي واليا إدوارد سعيد وكتابة التاريخ ص 36

الأصوات المنادية باللغات المحلية، بدعوى أن هذه اللغات —كما سلف– لم تصل إلى النضج اللساني والدلالي وحتى المعجمي، الذي يؤهلها لتكون وسيلة لوصف هذا الاحتدام. وكذلك الرجل الشرقي لم يرق يوما لدرجة تمثيل نفسه بنفسه ناهيك عن قدرته على دراسة الغير ووصفهم. ومن ثم فان الغرب تحمل أعباء هذه المهام، ووكل نفسه، من دون وجود معارضة حقيقية، ليكون الناطق بإسم الشرق، و المؤطر له، من أجل إلحاقه بركب الحضارة و "الديموقراطية"، وبرر هذا الفضول أو الشغف "العابر للحدود"، بأنه فضيلة علمية تخول له الإطلاع على ثقافات الآخر، والآخر في هذا المقام هو رجل الشرق، باسم نداءات العالمية والتفاعل الحضاري وحوار الحضارات..والعالمية —كما يراها الكاتب ميجان الرويلي بأنها: "حالة من الانتشار والأهمية يكتسبها الأدب، والنتاج الثقافي بشكل عام حين يخرج عن حدوده الاقليمية والوطنية، ويصبح معروفا ومقروءًا في مناطق أخرى من العالم. لكن العالمية أيضا قيمة جوهرية في الأدب، تحددها معايير معينة، لا يخلو تعيينها أحيانا من الايديولوجيا"[1]. وإن هذا التعريف موضوعي بشكل كبير إلا أنه أسيء استعماله من طرف الغرب، مما يجعل تبنيه أمرا يدعو إلى الريبة، لأن الشكل الحقيقي يتمثل في أن الدراسات الغربية بأهدافها الامبريالية الخفية وأحيانا المعلنة، تستعمل كل الطرق المشروعة والمحظورة للوصول إلى مبتغاها، من بناء ذاتها، من خلال إضعاف الشرق والحد من تطوره. فالأساليب المتاحة للدراسة والآليات المساعدة على ذلك، استعملت في غير ما وجدت له، وبذلك كان نتاجها الثقافي زائفا وحريفا، لا يخدم الغرض الصواب الذي أنشأت من أجله، والمشكل ليس في الآليات والمناهج والايدولوجيا، ولكن في سوء استعمال هذه الأدوات. ولا عذر لمن ادعى عدم معرفته استخدامها، إذا نتج عن ذلك تشويه لثقافة ما. وفي هذا السياق يرد سعيد كاشفا أدوات التغريب وآلياته التي استعان بها، كثيرا جدا من المستشرقين، لتقديم صور بائسة عن "الآخر"، إنطلاقا من مركزية عنصرية تبناها الغرب، ويظهر ذلك في كتاب

[1]- ميجان الرويلي – ترجمة سعد البازعي – دليل الناقد الأدبي – المركز الثقافي العربي ... 2000 ط1،ص116

المثقف والسلطة لادوارد سعيد: "هذا الكتاب–المثقف والسلطة– يعبر عن نقد ثقافي مضاد لكل البديهيات المؤمنة لكل أصولية إلى المركزية الأوروبية يوصفها مصدر إشعاع تغمر بضيائها الثقافات الأخرى"[1]. وهذا النص يشير إلى محورية الغرب ذات الدافع العنصري الذي تبنى هذه المركزية ونظر إلى "الآخر" بأنه في الهامش أو على الأقل بنظر إلى نفسه – الغرب – أنه في الصدارة والبقية "تابع" أو "ملحق" يجري تعديله ليكون مؤهلاً للالتحاق أو التبني من طرف"نا".يقول سعيد في كتابه "تغطية الإسلام": "والأساس العام للفكر الاستشراقي يقوم على هيكل جغرافي ينم عن خيال خصب، وإن كان يتسم بالاستقطاب الجوهري، إذ يقسم العالم إلى قسمين غير متساويين أما القسم الأكبر المتخلف فإسمه الشرق، وأما القسم غير متساويين أم القسم الأكبر المختلف فاسمه الشرق، وأما القسم الآخر:الذي يعرف أيضا بإسم عالمنا فهو الغرب"[2]. ولم يكن الاستشراق الآخر، إلا تلك الايديولوجيا التي تحلل ثقافة الآخر، بنية ومضمونًا، لأغراض غير بريئة، تنعكس على الشرق بآفاتها وعاهاتها، قصد الإجهاز على مقومات استمراره، ليرتمي في أحضان "الغرب" بعد فراره من هذا "الغرب". ومن هذه المقومات "الإسلام"، وهو الركيزة المحورية خاصة في الشرق الأدنى وشمال إفريقيا، لذلك قام المستشرقون بحملة شرسة –كما يقول سعيد على الإسلام ومقوماته، لأنهم رأوا أنه السند المتين الذي يثبت أرضية الشرق ويحافظ على معينه. وجاء في تغطية الإسلام أن: "التعريف السلبي للإسلام اليوم يقول، أنه القوة التي يختلف الغرب معها اختلافا جذريا، ومن شأن هذا التوتر أن ينشئ، ويحد بصورة جذرية، كل معرفة بالإسلام، ومادام هذا الإطار قائما استمر الجهل بالإسلام، باعتباره خبرة حيوية يعيشها المسلمون، ويصدق هذا للأسف، وبصفة خاصة كذلك، ولو بدرجة أقل قليلاً في أوروبا"[3]، يعني أن الغرب يعمل على التنسيق الداخلي الخفي بين عناصره، و في المجمل الغرب في مواجهة الإسلام. وهذه هي النقطة الحساسة في الدراسة الثقافية العابرة للحدود. ولم يكن سعيد أول من تناولها بالنقد والتمحيص

[1]- فخري صالح – ادوارد سعيد دراسات وترجمات – ص17،ص18

[2] - إدوارد سعيد – تغطية الإسلام – ترجمة محمد عناني – رؤية للتوزيع والنشر القاهرة مصر – 2006 – ص70

[3] - ادوارد سعيد – تغطية الإسلام ترجمة محمد منافي رؤية للنشر والتوزيع القاهرة مصر-ط1 2006 ص321

ولكن هناك مفكرون وكتاب من الغرب نفسه انتقدوا هذه الايديولوجيا العدوانية على ثقافة الشرق، والعمل على ترويض الآخر وإدخاله في الحضيرة، على أساس أنه مجرد تابع، ولا يمكن اعتباره طرفا ثانيا يمكن الاعتماد عليه إعتماد الحر على الحر.

وتذكر كتب التاريخ أو الدراسات الثقافية الأخرى أمثلة عن هذه المواقف، التي استند عليها سعيد أو انطلق من قواعدها، مثل مسألة الخطاب عند ميشيل فوكو والذي أمضى حياته البحثية في:" اكتشاف وتفصيل ذلك الرابط الذي سيستعيره إدوارد سعيد لاحقا ليبني عليه رؤيته الخاصة لهذه المسألة، وكشف ماهية الارتباط بين الكولونيالية و الاستشراق، واتباع أثر الرحالة الأوروبيين ومغامرتهم، والخيال الاستشراقي الذي خلقوه. وتكهن بكل ما ضمه استشراق إدوارد سعيد حوالي خمسين عاما قبل أن يخط إدوارد سعيد سطرًا واحدًا في الاستشراق"[1]، ويبني سعيد نظرياته وأطروحاته بداية من تأثره القوي ببعض المفكرين والفلاسفة الأحرار ليكشف أنه: "ومع مرور الوقت تغدو الثقافة مقترنة غالبا بشكل عدواني بالأمة والدولة ..، إن الثقافة بهذا المعنى مصدر من مصادر الهوية وهي مصدر صدامي أيضًا ..، ولقد أنتجت هذه الرجوعات في العالم الذي كان خاضعا للاستعمار سابقا أنواعًا شتى من الأصوليات الدينية والقومية ..، وهي مسرح من منطق ما، تشتبك عليه قضايا سياسية وعقائدية متعددة متباينة.. إنها قد تكون ساحة عراك فوقها تعرض القضايا نفسها لضوء النهار، وتتنازع فيما بينها كاشفة"[2] وقد حمل النص كثير من المفردات اللغوية من حقل دلالي "طباقي"، كما يسميه سعيد، أي أن هناك " تنازع، عراك، صراع، وصدام"، بين غرب وشرق، وهذا الصدام ألهم درس الموسيقى، كأحد التخصصات، أن يستعيد هذه المفردة التي ربما يكون قد وجد فيها دلالات تكون أبلغ عندما تستعمل في سياقات أخرى غير الموسيقى، وكانت طيعة عندما وظفها في مشروعه النقدي المتكامل، فالطباقية هنا —كما يقول سعيد في كتابه "الثقافة والامبرالية": تعني إعادة

[1] - حميد دباشي، ترجمة باسل عبد الله وطفة، مراجعة وتحقيق: حسام الدين محمد، ما بعد الاستشراق – المعرفة السلطة في زمن الإرهاب، منشورات المتوسط – ميلانو إيطاليا – 2015 ط1. ص117

[2] - الثقافة والإمبريالية ص59

قراءة الأرشيف الثقافي للسمتعمر والمستعمر وفهم تجارب متباينة لكل منها جدول أعماله، وسرعة تطوره، وتكويناته الداخلية وتماسكه، ونظام علاقاته الخارجية الخاصة وحميمها متعايشة ومتفاعلة إحداها مع الأخرى"[1]

[1] - ادوارد سعيد، دانيال بارنبوهم ،نظائر ومفارقات، استكشافات في الموسيقى والمجتمع، ترجمة نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، ط1، بيروت، 2005، ص33.

- **إدوارد سعيد ناقدا وموسيقيا**

يبيح إدوارد سعيد لنفسه هذه العملية النقدية المزج بين تخصصين، ليس من باب افتقار النقد وعلم اللغة، إلى أدوات تحتوي الدلالات وتبرزها في حلة بلاغية رائقة، ومن جهة أخرى لم تكن هذه العملية المزجية ناتجة عن دافع الزخرفة والتنسيق النصي على طريقة أدباء "عصر الضعف"، وكذلك فإن سعيد ليس بحاجة لمخالفة الأنماط والرتابة التي تلف النصوص المحلية من أجل الظهور تحت راية "خالف تعرف"، ولكن سعيدًا أراد أن يسن التفاعل الثقافي بين التخصصات، ويبرز فوائده وجمالياته، وفي الوقت نفسه مادام سعيد فنانا –ناهيك عن الحقول المعرفية الأخرى التي برز فيها مثل النقد والأدب والفلسفة واللغات– له الحق في توظيف طاقاته المتعددة. وهو يقول في هذا الموضوع : " ني مقتنع أنه من خلال الثقافة، ومن خلال الأدب، وما هو أفضل من خلال الموسيقى، لأنها لا تتعامل مع الأفكار المحددة، إذا راعينا هذا النوع من الاحتكاك، سنساعد الناس في الشعور بأنهم أقرب بعضهم إلى البعض الآخر، وهذا كاف"[1]. والمخول لسعيد أن ينتقل بهذه السلاسة بين الحقول المعرفية، هو اقتداره وبراعته في النقد والأدب، وكذلك في العزف الموسيقي الذي كان من اهتماماته وطموحاته:"وكان التأمل الأعمق في اهتماماته الموسيقية التي شغلته منذ طفولته، ليس عازفًا للبيانو مهما وحسب، بل منظرًا موسيقيا أيضا"[2]. ومما يدل على التداخل المتفاني بين الحقول المعرفية، كالنقد والموسيقى عند إدوارد سعيد، نجد بعض النصوص تعبر بشكل جمالي راقي ودلالي عميق على ما يعمل سعيد على إظهاره من مختلف الزوايا، حتى تكون الصورة المعبر عنها ذات أبعاد متعددة، فالنقد يمكن أن يستعمل الموسيقى وقواعدها وآليات حركيتها في مجالاته الدراسية، كما يمكن أن يحدث العكس كذلك، فتستعين الموسيقى بالنقد. ويقول سعيد في كتابه الثقافة والامبريالية: "في النقطة الطباقية للموسيقى العريقة (الكلاسيكية) الغربية تتبارى وتتصادم موضوعات متنوعة إحداها مع الأخرى. دون أن يكون لأي منهما دور امتيازي، إلا بصوره مشروطة مؤقتة. ومع ذلك يكون في النقد الشغفي الناتج تلاؤم ونظام متفاعل

[1] - ادوارد وديع سعيد، نظائر ومفارقات، اكتشافات في الموسيقى والمجتمع، المرجع نفسه، ص.33
نقلا عن مذكرة تخرج ، المثقف والسلطة عند ادوارد سعيد ص57
[2] - ادوارد سعيد، دانيال بارنبوهم ،نظائر ومفارقات، استكشافات في الموسيقى والمجتمع، المجتمع المرجع نفسه ص33

منظم يشتق من الموضوعات ذاتها لا من مبدأ لحني (ميلودي) صارم أو شكلي يقع في خارج العمل. وفي اعتقادي أننا نستطيع بالطريقة ذاتها. أن نقرأ ونؤول الروايات الانجليزية مثلا التي يتشكل في تعالقها (المقموع عادة إلى درجة غالبة) مع، لنقل جزر الهند الغربية أو الهند، بل لعله أيضا يتحتم ويتقرر، بالتاريخ المقرر للاستعمار والمقاومة، وأخيرًا القومية الأصلانية. عندئذٍ، تنبثق سرديات بديلة أو جديدة وتصبح ذواتا ممأسسة أو مستقرة إنشائيا."[1]

ولم يتوقف الأمر عند استعمال سعيد مجال الموسيقى الذي يبرع فيه لدراسة حقول معرفية أخرى أبرزها النقد، بل لقد أقر بأن الموسيقى كانت الداعم له في تكوينه المعرفي، وحتى نظام الحفظ والتلقي عنه مقرون ومنشبك بإيقاعات الموسيقى، التي يسرت عليه استيعاب وحفظ واختصار النصوص الدراسية. فكانت دعامة للذاكرة وساعدته كذلك على استذكار ماضيه وأيام صباه، التي قيدها في كتابه "خارج المكان"، يقول سعيد: " هو ما سمح لي أن أحفظ، ثم أن أؤدي على سمعي عددًا من المؤلفات الموسيقية المعدة (...)، وكانت ملكتي الأقوى هي ذاكرتي التي سمحت لي بأن أستعيد بصريا مقاطع كاملة من الكتب (...)، فاختبرت لحظات من غبطة الاستذكار تسمح لي أن أتجاوز بحرًا من التفاصيل"[2]. كما يوضح سعيد المفهوم النقدي للطباقية بعد الانزياح الدلالي عند ولوج هذه الكلمة إلى حقل النقد الثقافي، فيقول أن هناك تمازج فني وأدبي رائق في أعماله، يبرز بالخصوص بين الموسيقى والأدب، ولعل بعض الخاصيات التي تمتاز بها الموسيقى وآلياتها، تقترب، أو توافق بعض الإجراءات الأدبية والنقدية. وهذا ما وظفه سعيد في مختلف أعماله بشكل ينم عن ذكاء خاص، واقتدار، وتضلع في المجال النقدي، الذي هو اختصاصه. وكذلك في عالم الفن الموسيقي الذي برع وأبدع فيه، ليتمخض في الأخير إبداعه في شكل خاص، كعمل نقدي بأدوات موسيقية، ومن المفردات الرنانة التي كانت محور أعماله كلمة "الطباقية، Contrapunlatism".

[1] - الثقافة والامبريالية ص118

[2] - خارج المكان ص283.

ويؤكد المترجم كمال أبو ديب في مقدمة كتاب "الثقافة والامبريالية" على مركزية (الطباقية) كمفهوم، في أعمال إدوارد سعيد، فيقول "لكن المفهوم المركزي في منهج سعيد تحليليا، على مستوى ما يريد طرحه فكريا، عن العلاقة بين المجتمعات والطبقات، هو دون ريب مفهوم القراءة الطباقية، والتأويل الطباقي، ومن سوء الحظ أن مصطلح الطباق المستخدم في العربية لترجمة الـ" contrapuntal "، أو الـ" counterpoin " ،مصطلح سعيد المأخوذ من الموسيقى (وهو موسيقي ممتاز، يقدم عروضا عامة، وبين كتبه الهامة كتاب في موسيقى، هو Musical Elaboration) مصطلح التباسي، من جهة، ومتخصص جدا موسيقيا، بحيث يغيب مدلوله عن القارئ العادي، من جهة أخرى، في النقد العربي القديم استخدم ابن المعتز الطباق، ليشير إلى علاقة تضاد دلالي بين الكلمات، مثل ضحك بكى، أبيض أسود، طويل قصير (ومن الشيق أنه اعتبره من مكونات البديع الخمسة).. ، ولقد شعرت برغبة حادة في إعادة ترجمة الـ contrapuntal بمصطلح جديد، لكي يزول الالتباس منه، فيتضح مفهوم سعيد الجوهري، بالنسبة لمنهجه وعمله بأسرهما، غير أنني حتى الآن، لم أوفق في إيجاد مصطلح بديل واف، ولذلك استخدمت عبارة القراءة الطباقية .، وليس بوسعي أن أشرح المفهوم بأفضل من شرح المؤلف له، مسبوقا بتحديد موسيقي مأخوذ من قاموس Penguin الجديد للموسيقى (الاستعمال المتزامن للحنين (ميلودي) ، أو أكثر، لإنتاج المعنى الموسيقي بما يسمح بالقول عن أحد الألحان، أنه النقطة المضادة ل، أو في حالة تضاد مع، لحن آخر. وهكذا فإن التضاد المزدوج هو أن يكون لحنان، أحدهما فوق الآخر ، قابلين لتبادل موقعيهما، مثل ذلك التبادل الثلاثي والرباعي إلخ). ومن الواضح أن كلمة تضاد هنا يمكن أن تبدل في العربية بالمصطلح المحدد (طباق) "[1].

[1]- الثقافة والامبريالية ص 20.

الفصل الثالث

مقاربة ثقافية لكتاب "الاستشراق"

- الثنائيات عند إدوارد سعيد

- الاستشراق الكامن والاستشراق السافر

- دنيوية الاستشراق

تمهيد:

يندرج هذا المحور ضمن الدراسات النقد ثقافية التي برع فيها الكثيرون في مرحلة ما بعد البنيوية خاصة النقاد الغرب، وقد ظهر إدوارد سعيد كمزدوج لهوية (شرقية /غربية)، حيث وضع بصمته في هذا المجال، وتمرد على النمط البحثي لأنصار البنيوية، وكذا الشكلانيين الروس الذين قالوا بموت المؤلف، وإمكانية دراسة النصوص بمعزل عن الأطر السياقية. أي ما هو مطلوب من النص موجود في مضامينه ودلالاته وكينونته، دون الرجوع إلى الخلفيات التي تحيط بظروف ميلاد النصوص. إلا أن هذا الأمر لم يكن مقبولاً، بحال من الأحوال، فقد ظهر ما يسمى بالنقد الثقافي، الذي احتوى النقد الأدبي، وأحاط بحدود أوسع منه، لأنه يتناول مختلف القضايا الاجتماعية والتاريخية، وحتى النفسية والجمالية..، التي ساهمت في إنتاج النص، وامتزجت آثارها بدلالاته ومعانيه ونسقه، وهذا ما أعطى النصوص مزيدًا من الحيوية، ووسع أبعادها وآفاقها. أذ ليس بالإمكان تناول نص ما دون الإحاطة بسياقاته. ويؤكد سعيد انطلاقا من هذا المعطى، على الخلفية الامبريالية الاستعمارية التي تشكل في إطارها الاستشراق. فهذه الأطروحة مبنية أساسا على ربط السلطة (القوة)، بالاستشراق (الثقافة)، أو بصيغة أبلغ، إنتاج الخطاب في إطار المشروع الاستعماري، بحيث يكون 'الخطاب' الجانب الروحي للآلة الاستعمارية، تستمد منه الحياة لمواصلة التوسع والاستيطان في عالم الشرق، دون استشارته، أو إشراكه في الموضوع. إذ عملية إنتاج الشرق تتم في المخابر الغربية، بواسطة عقول غربية، أو مستغربة. ولا أثر لردة الفعل الشرقية ضمن هذا الإنتاج، فهو (الشرق) سلعة خاصة تصنع، وتستهلك في الغرب لمعرفة كيفية إحتواء الآخر، الشرقي، من طرف الأنا، الأوروبي. وليس هناك أي جرح في هذه العملية برمتها، ما دام الشرق – من المنظور الأوروبي– بدائي، غير قادر على تسيير نفسه ذاتيا، وتوجب على الغرب الضلوع بهذه المهمة التي يسمونها (إنسانية)، لنشر السلام والديمقراطية، المزعومة، في ربوع الجزء الشرقي للكرة الأرضية. وهذا ما يسمونه بعبء الرجل الأبيض، الذي وضع على عاتقه مسؤولية تخليص وتحرير تلك الشعوب من التخلف والجهل، ونشر التمدن والتحضر الأوروبي في بقاعهم الشاسعة.

وبجدر الذكر أن الدول الاستعمارية هي التي يتم تناول إستخطاطتها من طرف سعيد، وذلك ما يعاب عليه حيث اتهم من طرف النقاد بغض النظر عن بعض المدارس الاستشراقية، كالألمانية وغيرها، في أطروحته "الاستشراق" وهو يقول أن أصحاب مثل هذه الانتقادات، لم يلموا بكنه مشروعه الاستشراقي، فهذا المنتوج لم يكن سردا تاريخيا للمدارس الاستشراقية، أو للبحوث والمؤلفات والأعلام المختصين في هذا الحفل، ولكن لب الموضوع هو الاستشراق الذي تمخض عن الاستعمار. أي الجانب النظري للقوة العسكرية الاستيطانية في عالم الشرق، انطلاقا من مقولة التمثيل "إنهم عاجزون عن تمثيل أنفسهم يجب أن يمثلوا". والتمثيل في حد ذاته يحمل عدة دلالات تندرج –على اختلافها– في الاستراتيجية الامبريالية، وفي تدجين الثقافة وترويضها لتصبح رهن الإشارة الغربية، فالممثل هو الناطق باسم الجماعة الذين رشحوه، أو ترشح هو بنفسه– كما هو حال هنا– لتمثيلهم، والتحدث بمطالبهم وحاجياتهم. والتمثيل من زاوية أخرى هو لعب أدوار و تقمص شخصيات حسب الطلب، أو حسب التخطيط الاستعماري.

– مقاربة ثقافية لكتاب الاستشراق:

1– الثنائيات عند إدوارد سعيد:

– ثنائية (السلطة/الثقافة):

هذه الثنائية التي يزاوج بينها سعيد في أطروحاته، وذلك ليس في كتاب "الاستشراق" فقط، ولكن مختلف مؤلفاته ومقالاته. وهي تذكرنا بثنائيات فرديناند ديسوسير "اللغة الكلام،.."، وارتباط بعضهما ببعض، والحركة الديناميكية المنسجمة بينهما. ويريد سعيد أن هذه الثنائية الأساس في مشروعه النقدي، وهي " وجهان لعملة واحدة"، السلطة الاستعمار الامبريالية،وتقابلها الثقافة الخطاب الاستشراق. ومزيد من هذه الثقافة يعطي مزيدًا من القوة، أي ثقافة القوة وقوة الثقافة، وما لهما من تأثير يعمل على شرقنة الشرق –حسب البرنامج المسطر– ،مما انعكس على الذهنية الشرقية، التي رأت صورتها من خلال المرآة الغربية، وهذا ما يحذر سعيد منه. وهو خطر شرقنة الشرق لنفسه، من خلال تناول صورته المنتجة في المخابر الغربية، في ظل غفلة ومحدودية المقروئية في العالم الشرقي، وهذا ما يحد من إنتاج نصوص أصلية خالية من الشوائب الاستشراقية، تواجه هذا المد الكبير والمختلف من نصوص المستشرقين. وقد لوحظ أن المجتمعات الشرقية ميالة لقراءة نصوص غربية تتحدث عن الشرق. أي الرغبة في قراءة الذات من خلال نصوص الآخر الغربي. ولكن المشكل أن هذه النصوص أصبحت أكثر تأثيرًا في الذهنية الشرقية التي بدت تثق فيها، بنسبة أكبر، من ثقتها في الأعمال الكتابية المحلية، التي تتناول الذات. ومن زاوية أخرى كانت هناك ردات فعل، تبدو انتقامية أو دفاعية، تمثلت في الاستغراب، أي تناول الشرقيين للغرب كموضوع للكتابة والدراسة، ردًا على الاستشراق، وهذا – في نظر سعيد– لا يمثل حلا، وإنما يذهب بالمشكل إلى وجهة لا تخدم المجتمع المحلي، ولا تقدم له حلولاً بل تترك الموضوع مفتوحا، ومتماشيا مع الفعل "الاستشراق"، ليكون ردة الفعل "الاستغراب"، وذلك بطريقة أوتوماتيكية غير مجدية، ومضيعة للوقت، الذي لا يسير وفق المصلحة الشرقية.

ويصور إدوارد سعيد الاستشراق على أنه موضوع يتناول المجتمع الشرقي ككل، بضمير جمعي، لا يمكن فصل وحداته، لأنه كل متكامل، لا يخضع للفردانية، وليست له خصائص تمتاز عن خصائص أخرى. فهو كتلة واحدة وتكفي دراسة عينة واحدة لتعميم النتائج على الكل، فلا ميزات ولا صفات ولا مواهب ولا إيداع. وممثل المجتمع العربي الإسلامي –محمد صلى الله عليه وسلم– لم يكن ليبرز في الشرق، إلا بعد أن –حاشاه– انتحل صفة

المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام. وهذا من المنظور الاستشراقي الرامي إلى الطعن، والتشكيك في الرسالة المحمدية والقرآن الكريم. حيث ادعى المستشرقون أنه من تأليف محمد –صلى الله عليه وسلم– ،وأنه أخد نصوصا من التوراة، ونصوصا أخرى من الإنجيل، وأضاف إليها بعض المقاطع الأخرى، ثم أخرج هذا الكتاب إلى الناس – القرآن الكريم – مدعيا أنه من عند الله نزل وحيًا.

ويقوم سعيد بتشريح بعض نصوص المستشرقين البريطانيين والفرنسيين ثم الأمريكيين في كناياته الأخيرة فيتناول بعض المقاطع التي تصور الرجل الشرقي الذي يسمونه "الغريب المدهش"، بأنه محدود الأبعاد، ليست له خصائص تميزه عن بقية مجتمعه، همه الفوضى والطمع والتحايل والشهوانية، يتمنى أن يتزوج امرأة الرجل الأبيض، ويمشي مشيته، وينام في سريره... دون جدوى.

وكذلك المرأة الشرقية التي يصورها بعض المستشرقين على أنها آلة للشهوة والمتعة، لا تفرق بين رجل وآخر، ولا تجيد التعبير عن نفسها، وتستميت في خدمة وإرضاء الرجل الغربي، إلى درجة تشبه العبادة. ويركز إدوارد سعيد –كما سلف ذكره –على الاستشراق الامبريالي، الذي يضم الدول الكبرى المسيطرة وذات النفوذ العالمي. وقد كانت بريطانيا تدعى الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس،بسبب انتشار مستعمراتها في مختلف أقطار المعمورة. يقول إدوارد سعيد في هذا الموقف: "إن ما أقوله عن التجربة البريطانية والفرنسية والأمريكية، هو أنها تملك تناسقا وتماسكا فريدين، ومركزية ثقافية متميزة. إن انجلترا طبقًا تقف في طبقة أكبر وأضخم، وأشد مهابة من أي إمبراطورية أخرى، ولقد كانت فرنسا على مدى قرنيين تقريبا، في تنافس مباشر معها. ولأن السّرد يلعب دورًا كبيرًا في المسعى الامبريالي، فليس من المفاجئ في شيء أن فرنسا، (وخصوصا) انجلترا تمتلكان تراثا غير منقطع،

من الكتابة والروائية لا نظير له في أي مكان آخر. لقد بدأت أمريكا تصبح إمبراطورية أثناء القرن التاسع عشر ... بعد فكفكة استعمار الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية[1].

هذا المزج السلس بين الامبراطورية والتراث الثقافي من الكتابة الروائية وغيرها هو محور بحث سعيد ودراسته وهو لا يرى أحدهما بمعزل عن الآخر، فالثنائية المتكونة من السلطة والثقافة تستمد عناصر حياتها من هذه التوأمة في مختلف الظروف يقول سعيد:".. والصراع معقد وثيق لأنه ليس صراعًا حول العسكر والمدافع وحسب بل هو أيضا صراع حول الأفكار والأشكال والصور، والتصورات"[2] حيثما كانت القوة حلت إلى جانبها الثقافة التابعة لها والنابعة من رحمها والمؤطرة لها في الوقت نفسه والمؤثرة فيها بشكل أو بآخر. ويضيف في هذا الصدد: "إلا أن الامبراطورية بالنسبة لمواطني بريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر كانت موضوعا رئيسيا للاهتمام الثقافي الذي لا يشوبه شعور بالحرج"[3]. وتحددت المقاطع التي تحمل هذه الثنائيات في كتاب "الثقافة والامبريالية الذي يعتبر الجزء الثاني لكتاب الاستشراق. فيقول سعيد مستشهدًا بنص لـ مايكل دويل يشرح فيه مفهوم الامبرطورية: " هي علاقة رسمية أو غير رسمية تتحكم فيها دولة بالسيادة الفعالة لمجتمع سياسي آخر. ويمكن تحقيق هذه العلاقة بالقوة أو بالتعاون السياسي – أو بالتبعية الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية .."[4]. وهناك أبعاد متعددة تربط الجانب الامبراطوري المادي بالجانب الثقافي المعنوي كما يواصل سعيد قوله: " الامبراطورية كما سنرى، تستمر حيث كانت موجودة دائما: في مناخ ثقافي عام، وفي ممارسات سياسية وعقائدية واقتصادية معينة أيضا"[5].

- **ثنائية (إسرائيل / الإسلام):**

1- الثقافة والامبرالية ص67
2- الثقافة والامبرالية ص78
3- الثقافة والامبرالية ص78
4- الثقافة والامبريالية ص80
5- الثقافة والامبريالية ص80

ويذكر سعيد ثنائية أخرى ولكن هذه المرة ليست متناسقة ومتناغمة فالعلاقة التنافرية هي الجامع الرئيسي بينها وهي كما يقول سعيد في كتابه " تغطية الإسلام": "وأعتقد أن هذا الإعلام المنحاز الذي استخدمه الغرب في الإيحاء بأن اسرائيل تمثل النموذج المقابل للإسلام"[1]. ثم يواصل سعيد مؤكدا على ترابط هذه الثنائية بشكل متضاد أي تثبيت دعائم عنصر منها يقتضي بالضرورة إلغاء الآخر:"نجد أن عيون الغرب أصبحت ترى أن أمن إسرائيل يوازي صد غائلة الإسلام"[2]. وهذا الصراع الجدلي خلق طرفي النقيض، فكل جانب يجذب إليه، في اتجاه معاكس، من حيث الأهداف والرؤى. ورغم أن الإسلام منفتح على احترام الديانات الأخرى، وهذا الاختصاص لا يتمتع به أي دين آخر عدا الإسلام —مع ذلك يجعل الإسلام نقيضا للغرب— وإسرائيل جزء من العالم الغربي، من حيث الايدولوجيا، أو ممثل العالم الغربي في الشرق، وهذا لا يخفى على سعيد ذي الأصول الفلسطينية، لذلك كان لابد من فهم الأطروحة الغربية لدراسة الشرق، من داخلها، وفي أعماقها. وهذه العملية، التي شاء لها الله أن تتم على هذا النحو، لم تكن مصادفة أبدا، ولكن التجربة الحياتية، أو السياقات المستقاة، من خلال تجربة الكاتب القاسية وعيشته، كمهاجر فلسطين، ولاجئ في أمريكا، جعل منه عالما بمختلف جوانب الموضوع المطروح، وقد تم له احتواء أركان وأبعاد النصوص الاستشراقية، وبصيغة أخرى لم يستطع كاتب قبل إدوارد سعيد أن يصل إلى عمق الموضوع الاستشراقي، لأن هذا يقتضي تجربة سعيد الحياتية. فقد كان سعيد جزءا من موضوع الاستشراق بصفته مواطنا شرقيا، ومن جهة أخرى أمضى أغلب حياته مع الطرف الآخر، المنشأ للخطاب الاستشراقي، فألم بمختلف أشكال وأبعاد ومراحل صناعة الاستشراق، أي ساير الجزء الآخر الذي أوجد هذا الاستشراق بهدف الاحتواء الجزء الأول (العالم الشرقي). يقول محمد عناني في مقدمة كتاب "الاستشراق" عن المؤلف إدوارد سعيد: "إنه من القلائل إن لم يكن الوحيد الذي خاطب الغرب بلغته ومنهجه العلمي الحديث، فكشف الغطاء عما يتخفى بقناع الثقافة والدراسة العلمية من مواقف سياسية لا ترمى إلا لتحقيق مطامع أو مصالح مادية صرفة، وبهذا ساهم في

1 تغطية الإسلامية ص116
2 تغطية الإسلام ص116

توطيد الهيكل الحالي لما يسمى 'بالنقد الثقافي"، وهو يربط بين الأدب بصفة عامة، وبين النزعات البشرية المنحطة التي يدينها الغربيون بألسنتهم ويؤيدونها بقلوبهم وأفعالهم، مثل العنصرية والتعصب الفكري"[1]، ذاك لأن الظروف الاجتماعية التي كابدها سعيد في مشواره الحياتي، غذّت رصيده الثقافي وصقلته، فكان متشبعا بالحقائق والملاحظات، وعميقا من حيث الشروحات والدراسات النقدية، وكان جريئًا في قول الحقيقة للسلطة، إنطلاقا من مفكرين وفلاسفة أثروا فيه، وأطروا مساره الفكري النقدي، على غرار "ميشل فوكو"، الذي سار وفق هذا المنهج في وقت مبكر، ليضع معالما على طريق سعيد من خلال مواجهة السلطة والامبريالية الغربية، وكشف دسائسها، فيقول بهذا الصدد: " أصبحنا نطالب الغرب، وفي الغرب بأي حق تكون الثقافة الغربية والعلم الغربي والتنظيم الاجتماعي الغربي والعقلانية الغربية، شرعية عالمية، وليست مجرد سراب، ووهم وخداع، لسيطرة وهيمنة سياسية"[2]. وهذه الصراحة والوجاهة لميشيل فوكو في خطابه الموجه للغرب من "داخل المكان"، يطرح التساؤل حول أحقية الغرب في قيادة العالم، على الطريقة والمنهج والمزاج الغربي، والعمل على صهر بقية العالم في قالب معد سلفا، لاحتوائه وتطويعه من أجل خدمة الأجندة المسيطرة، وعلى حساب نفسه وحقوقه، و"كأن" الغرب، إن لم نقل "إنّ"، يريد من العالم الشرقي –أو بقية العالم خارجه– أن يضحي بنفسه من أجل سعادته هو (الأنا الأوروبي والأمريكي). وهذا برنامجه الذي يسهر على تحصيله وتجسيده، دون إعارة أي اهتمام للطرف الآخر، أو ترك الفرصة له ليدلي برأيه في الموضوع. لأن هذا الطرح أحادي الجانب، ومفصول فيه. يقول حميد دباشي في كتابه المرسوم بـ مابعد الاستشراق: "لعدد من الأسباب الواضحة احتل الشرق على الدوام موضعين إثنين، فهو إما دخيل غريب، وإما شريك ضعيف مدمج في الغرب، ويرمي سعيد بهذه الجدلية إلى تبيان دور المستشرق في اختلاق وصناعة الشرق باعتباره: "العالم الأعلى ورجل العلم وصاحب الوصاية الفكرية الأقوى، بينما الشرق غائب بكليته، وهذا في الحقيقة، الغياب الفعلي للشرق الذي مكن حضور المستشرق، تلك في محملها حجج ذرائعية

1- إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني – الاستشراق، رؤية للتوزيع والنشر 1-2006-ص18

2- ل. نيلوف وآخرون. القرن العشرين – المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية لمجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ط1-2005-ص339.

بالغة الدلالة، يستخدمها سعيد ليحشر المستشرق جدليا في خانة الطرف المسؤول عن اختزال الشرق"[1]. وهذا الاختزال هو عملية تشييء الشرق وجعله مادة طيعة يمتلكها الغرب، فهو"الشرق" مجرد شيء مملوك محتوى ضمن سياق بناء الذات الغربية، التي تحسن صورتها عن طريق تشويه صورة الآخر. يقول ميشال فوكو: "فعملية البحث التي طبقها الغربي على الشرق، كانت ترمي إلى إكمال الموروث الأوروبي العلمي والثقافي. فالشرق ليس خاصا من هذا المنظور الشرقي، بل هو جزء لا يتجزأ من الغرب. إن التراث الحضاري للشرق تراث إنساني، وبالتالي يجب أن ينظر إليه كمجهود وحصيلة جماعية، ويستند الاستشراق في تصوره هذا، إلى القيم والمبادئ التي انتشرت في عصر التنوير، ونشير بذلك إلى النزعة الانسانوية في القرن الثامن عشر. إذ كان الاستشراق مدفوعًا بهاجس الكونية والتصميم..، وبالتالي يمكننا أن نعرف التمثيل المعرفي أو الأكاديمي من خلال هذا التصور الكوني الهادف إلى التوحيد، بمعنى عام، وصهر الآخر في النسيج الغربي الاستشراقي"[2]. وهذا التوسع الذي يتذرع خلفه الغرب المتمثل في المستشرقين الذين يدعون الانسانوية يتيح لهم، تحت غطاء العلم العابر للحدود، الاطلاع على مختلف ثقافات الآخر بدعوى التبادل الثقافي كما يقول سعيد في كتابه تغطية الإسلام: "والأساس العام للفكر الاستشراقي يقوم على هيكل جغرافي ينم عن خيال خصب وإن كان يتسم بالاستقطاب الجوهري . إذ يقسم العالم إلى قسمين غير متساويين أما القسم الأكبر المتخلف فإسمه الشرق، وأما القسم الآخر الذي يعرف أيضا باسم "عالمنا" فهو الغرب"[3]. والمشكل أن هذه النزعة الأحادية تركت مجال البحث محصورًا عند المستشرقين، وانطلاقا من المركزية الغربية التي تتبنى النزعة العنصرية وإلغاء الغير في سبيل إثبات الذات "الأنا". ولاشك أن المستشرقين لهم خصوصيات أسلوبية وثقافية، لكن وكأن بينهم اجتماع ضمني أو معلن، فكلهم أو جلهم، يسعون لهدف واحد

1- حميد دباشي، ما بعد الاستشراق ص124.

2-ميشيل فوكو، إرادة المعرفة، ترجمة وتحقيق مطاع صفيدي، جورج أبي صالح، منشورات مركز الانماء الغربي . الانترنت الموقع:

https :// barq-rs.com /-المعاص-البدائل-سعيد-إدوارد-مع-التفكير/

3- إدوارد سعيد ، تغطية الإسلام ، ترجمة محمد عناني، رؤية للتوزيع والنشر، القاهرة مصر، 2006، ص70.

مشترك، سبق وأن فصلنا فيه، وهو شرقنة الشرق لصناعة الغرب وتطويره بالإمكانيات الشرقية المادية والمعنوية قدر المستطاع، أي البحث عن مصالح الغرب في عوالم الشرق وجغرافيته. يقول محمد عابد الجابري: "إن جوهر القضية المطروحة بالنسبة لعلاقة الغرب بالعرب المسلمين هو "المصالح" : مصالح الغرب..، إنه من الطبيعي أن يشعر الغرب أن أي تقدم يحققه العرب والمسلمون سيكون على حسابه، لأن مصالحه في بلاد العرب والإسلام تقتضي ذلك. وهذا مفهوم.. ، والمشكلة الحقيقية القائمة بين الغرب وأقطار العالم الثالث، وهي عدم التوازن في تبادل المصالح، ذلك أن العلاقة بين الغرب من جهة والعرب والمسلمين والعالم الثالث كله من جهة أخرى هي من جنس علاقة السيد بالعبد"[1] ، ومن الواضح أن برنامج الاستشراق قد نجح نجاحًا كبيرًا في ظل رعاية القوى الكبرى، التي أغدقت على المستشرقين ، كما يقول سعيد، (المبالغ الطائلة) من أجل توفير أنسب الظروف، والإمكانيات لدراسة وتشخيص الشرق على أوسع نطاق. فكانت هناك السفريات، أو ما يسمى بالحج إلى 'بلاد آخر"، من طرف كثير من الباحثين والكتاب والتجار والمرتزقة، في ثوب السياح وطلبة العلم، والفنانين والإنسانين ..

وهذه الهبة التي قام بها هؤلاء "نحن"، في بلاد "هم"، كانت مباركة من طرف الكنائس والديانة المسيحية. في إطار اعلان الحرب الصليبية على الإسلام. مما أعطى هذه الحركة حماسا ونشاطا كبيرين، خدما المشروع الامبريالي الأنجلو – فرنسي – أمريكي ،مع تفاوت في النفوذ بين الفرنسيين والبريطانيين. فكانت فرنسا تشغل مناطق كبيرة من إفريقيا، إلى جانب بريطانيا التي بسطت سيطرتها على آسيا، ومناطق أخرى من العالم. وعلمت هذه القوى الامبراطورية على تغريب عقول "السكان الأصليين"، أو شرقنتهم من أجل القضاء على الهويات المحلية، واستبدالها بمعطيات مزيفة ومتناقضة، من أجل تفتيت الوحدة القومية للأمم، وزعزعة استقرار ثوابتها الثقافية الإجتماعية والتاريخية، وصولاً إلى الدين "الإسلام"، الذي يعتبره الغرب نقيضا له، وعقبة كؤودا في سبيل الوصول إلى أطماعه.

1- محمد عابد الجابري " حوار الحضارات: أي مصداقية.." مجلة فكرة نقد" السنة 5- العدد 44 ديسمبر 2001. نقلا عن عيون الأدب لتلاميذ الثانية من التعليم الثانوي – التونسي – الجزء 2 – المركز الوطني البيداغوجي 2014 ص264.

يقول الكاتب حميد دباشي "يقتضي إدوارد سعيد في كتابه الرائد "الإستشراق"، الأصل البعيد لسلطة التمثيل، والتمثيل المعياري الذي تتبعه في تركة المرحلة الكولونيالية المتجبرة التي حملت معها شراذم التجار المحاربين المرتزقة، والضباط العسكريين، والمبشرين المسحيين، وعددا من المستشرقين الأوروبيين إلى أصقاع الدنيا، ومكنتهم من الكتابة والتمثيل –بالنتيجة– في الشعوب التي سعوا لحكمها، ومضى وعي إدوارد سعيد في "الاستشراق" بعيدًا نحو شرح شروط السيطرة والتمثيل، بالنيابة بدءًا من الحقبة الكولونيالية الكلاسيكية في القرنيين الثامن والتاسع عشر، صولاً إلى الوقت الذي كتب فيه دراسته المفصلية أوساط السبعينات"[1].

1- حميد دباشي – ترجمة باسل عبد الله وطفة – مراجعة وتدقيق: حسام الدين محمد – "ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الارهاب منشورات المتوسط – ميلانو – ايطاليا 2015 . ط1، ص15،ص16

- **ثنائية اللغة: العربية الانجليزية:**

انطلاقا من الجدلية الفلسفية بين اللغة والفكر يميل ادوارد سعيد إلى أن فكره عربي (شرقي) التوجه و الايديولوجية العامة، ويسير على هذا النحو رغم ديانته المسحية التي تدين بها أقليات هناك "داخل المكان الشرقي"، مقارنة مع الشرائح العريضة من المسلمين، وبالمقابل فإن سعيدًا يكتب باللغة الانجليزية التي أتقنها وعرف دسائسها وخباياها وتضلع فيها يقول: " ..لم يعفني هذا النزاع منه يوما واحدًا، ولم أحظ بلحظة راحة واحدة، من ضغط واحدة من هاتين اللغتين على الأخرى"[1]. يقصد الصراع الداخلي بين اللغة العربية (الهوية/الثقافة الأصلية) واللغة الانجليزية (المنفى/المهجر/الاغتراب)، ويضيف في هذا الشأن مبينا نظرته إلى الكتابة، وماذا تعني له في ظل هذا الصراع الداخلي (النفسي): "وهكذا فالكتابة عندي فعل استذكار، وهي إلى ذلك فعل نسيان، أو هي عملية استبدال اللغة القديمة باللغة الجديدة". يقصد بذلك استبدال اللغة العربية التي نشأ معها في بداية حياته، وترعرع في جوها وأثيرها، وأثر فيها أو أثرت فيه، وشاركت في "إنشاء هويته"، ككل عربي أصيل* وهذه الثنائية رافقته في عدة مؤلفات، ما يفتأ بذكرها ليجدد ويجذر النزاع، انطلاقا من الجدلية أو"الطباقية" كما يحلو لسعيد أن يسميها، والتي لخصها في قوله:"بناء عالم في مصطلحات عالم آخر". والغريب المدهش عند سعيد هو عدم قدرة طرف على احتواء الآخر أو السيطرة عليه وامتلاكه، بل بقي الطرفان – اللغتان العربية والانجليزية – في صراع وصدام محموم بلا نهاية: "كان علي أن أستخدم اللغة الانجليزية، ولكن كان علي أن أستذكر التجارب وأعبر، عنها بالعربية"

أي اللغة العربية تبقى في العوالم المجردة والمخيال الذهني إلا أنها إذا أرادت أن تشق طريقها إلى الوجود المتمثل في النصوص اللغوية المقروءة، وبصيغة أخرى، أرادت أن تنتقل من عالمها الأول المعنوي المجرد، إلى العالم الثاني المادي

1- واللغة الجديدة – في حياته – الانجليزية، التي أطرت مرحلة دراساته الأكاديمية، ولو أنه في كل الحالات فإن اللغة العربية سواء في حياته "إدوارد سعيد" أو في الحياة العامة تبقى أقدم (كرونولوجيا) من اللغة الانجليزية التي ظهرت في العصور الوسطى وانشقت من اللاتينية "الأم" لتشق طريقها إلى الوجود مثل نظيراتها الألمانية، وغيرها. خارج المكان ص8 – 10 – 11 - 12

المحسوس، لبست رداء لغة أخرى لتخرج في حلة غربية انجليزية (الكينونة عربية، والهيولى انجليزية) وهذه تجربة ليست فريدة في عالمنا العربي، ولو أن أغلب الكتاب المحلين يؤثرون استعمال "لغة المكان" للتعبير عنه، وعن ظروفه على غرار مالك بن نبي الذي عبر عن أفكاره المحلية باللغة الفرنسية، وكذلك الكاتب الجزائري محمد ديب فعل الشيء نفسه من خلال روايته "الحريق"، ومؤلفات أخرى. ويسوق سعيد نموذجًا شبيها له إلى درجة ما، وهو الكاتب والروائي البولوني جوزيف كونراد، الذي عاش – هو الآخر– خارج الديار، فيقول عنه "سحرني في الرجل أنه كتب باللغة الانجليزية أعماله العديدة، من روايات وقصص ومذكرات، وكلها يغرف من حياته الفنية "، ومع ذلك كانت الانجليزية لغته الثالثة بعد البولونية والفرنسية"[1]، ثم يضيف من أجل توضيح موقفه والفارق بينه وبين كونراد: "لست أريد أن أضع نفسي في موقف كونراد، وإنما أن أقارن فقط بيني وبينه من حيث استخدام اللغة الانجليزية"[2]، ويذكر سعيد سعة الفرق بين التجربتين فيقول: "غير أن الفارق بين لغتي العربية الأم، والانجليزية التي نشأت عليها واستخدمتها في كل ما كتبته تقريبا، أكبر من ذلك الفراق بين البولونية والانجليزية، الذي وسع أدب كونراد"[3]، ثم يتحدث عن صميم الصراع بين هذه الثنائية المتنافرة وغير المتجانسة في داخله، وانعكاساتها على أدبه وعلى حياته ككل:"وأما في حالتي أنا، فالفارق بين الانجليزية والعربية يتخذ بشكل توتر حادٍّ، غير محسوم، بين عالمين مختلفين كليا، بل متعاديين"[4]، وهذا استدراك من سعيد يبين فيه عمق تجربته مع اللغة، مقارنة بتجارب أخرى، كتجربة كونراد التي لم تتعدى عالم أوروبا رغم اختلاف اللغة.

1 خارج المكان ص7
2 المرجع نفسه ص7
3 المرجع نفسه ص7،ص8
4 المرجع نفسه ص8

- **الثنائية الامبريالية: فرنسا وبريطانيا:**

و إن كان في الظاهر أن هنالك تناسق محكم بين المشروع الاستشراقي والاستعماري البريطاني والفرنسي، إلا أن هنالك خصائص وسيمات تمتاز بها كل قوة عن الأخرى، وهذا على مختلف المستويات، إبتداء من الاستشراق الذي هو موضوع الدراسة، حيث انعكس الصراع أو التنافس بين الامبرياليتين على الأعمال الثقافية بالموازاة مع الجانب السياسي، فكان على ما يبدو أن بريطانيا قد أخذت حصة الأسد، بعد بسط نفوذها على منطقة الشرق وخاصة آسيا، ولم يبق لفرنسا من القارة الآسيوية إلا دويلات مغمورة. مما جعل الثقافة الانجليزية تسترسل في أصقاع هذه القارة الكبيرة، أما اللغة الفرنسية فعملت على سد الفراغ الذي خلفته بريطانيا ، مثل شمال إفريقيا.. فانحصرت اللغة الفرنسية في هذه المناطق التي أصبحت متأثرة أو مشرقنة على طريقة بلاد الغال، وسيرًا وفق منهجها، مما أثار حفيظة الكتاب والأدباء والشعراء الفرنسيين، فانكبُّوا يدافعون عن حقوق فرنسا في الشرق، ومالها من مزايا تفتقر إليها الدول الإمبريالية الأخرى، على غرار بريطانيا وألمانيا، كما يمكن لهذه المزايا أن تتيح لها الفرصة، لتتربع على جغرافيا تلك البلدان المتخلفة: "إن أسباب تمتع الحضارة الفرنسية بدرجة من الجاذبية لأبناء آسيا وبلاد الشام واضحة جلية، والواقع أنها أشد جاذبية من حضارتي انجلترا وألمانيا، وهي كذلك أيسر محاكاة منهما"[1]. ومما يبدو أن سعيدا، في نصه، يعمل على إقامة مقارنة بينهما من خلال إبراز الخصائص التي تمتع بها إحداهما وتستهوي النفسية الشرقية بشكل خاص: "ولنقارن الانجليزي الخجول المتحفظ باقتصاره على صحبة اجتماعية محدودة، وميله على العزلة."[2]. وهذه على ما يبد،و صفات يصبغها سعيد على الشخصية البريطانية، أما بالنسبة للفرنسيين فالأمر يختلف تماما في نظره –سعيد– ، ويواصل: " بالفرنسي الفياض بالحيوية، والميال إلى الاختلاط بأبناء الأمم الأخرى، والذي لا يعرف معنى لكلمة الخجل. والذي تراه في غضون عشر دقائق قد عقد

1 -الاستشراق.محمد عناني331
2 -الاستشراق .محمد عناني331

فيما يبدو صداقة حميمة مع أي شخص لا تزيد معرفته به عن المعرفة العارضة التي تصادف أن أقامها"[1]. ويعقب سعيد على هذا القول، حيث الهدف من هذا ليس إطراء الفرنسي على حساب البريطاني، لأن كل منهما محسوب على الغرب المحتل الاستعماري، ولكن ما يهم الآن، هو انعكاس هذا السلوك على المتلقي من السكان الأصليين (أهل الشرق)، إذ على ما يبدو فإن الشرقي قد افتتن بالفرنسيين، لذلك يستدرك سعيد في هذا الموقف ليدلي بملاحظات هامة، ربما يكون قد أغفلها أهل الشرق "ولكن انجلترا كان لها وجود حقيقي، على أية حال، في الشرق بصفته مكانا فعليا، ولم يكن لفرنسا وجود إلا اعتبارها مصدر إغراء أهوج للشرقيين السّذج"[2]. يخص سعيد بالذكر صنف السذج من الشرقيين الذين أعماهم إغراء الفرنسيين، ودعابتهم وبعض ما صدر عنهم من مسليات، عن كل التجاوزات والحروب والإرهاب والدمار الذي ألحقته فرنسا ببلدان محسوبة على الشرق، ومن أبرزها الجزائر ودول المغرب العربي التي كانت في أغلبها تعاني تحت طائلة الاستدمار الفرنسي. ويذهب سعيد إلى الاستدلال بالخطاب الاستشراقي الذي استهوى الشرقيين، فيقول: " إن الشرقي من أصناف المتعلمين، لا يدرك أن الأول يتمتع، على أية حال بفضيلة الإخلاص"[3]، ولا شك أنه يقصد بالأول البريطاني، الذي وصفه بالإخلاص، وهو يصف نفسه من خلاله، وكذلك بقية البريطانيين، وهذه الصفة وإن تم قراءتها، على سبيل الغلط، بأنها تزمت وتصلب وانطوائية، ، إلا أنها في الأخير تعكس مدى الجدية والصدق في التعامل مع المجتمعات الشرقية، لأن كلمة إخلاص تشتمل على مختلف الخلال الحميدة.من حيث المدلول فهي الحقل الدلالي الذي تعيش في ظله الصفات الراقية المنسوبة للبريطانيين، أما الفرنسيون فموضوع آخر. ولو أن إدوارد سعيد، في النهاية، أراد أن يشدد على أن التكامل بين هذه القوى هو أساس بناء الخطاب الاستشراقي، ويمكن إدراج هذا الموضوع في خانة ما يسميه سعيد الاستشراق الكامن: "وما أقوله هو أن الاستشراق قد نشأ نتيجة علاقة التقارب الخاص بين فرنسا وبريطانيا،

1 -الاستشراق – محمد عناني ص331
2 - الاستشراق – محمد عناني ص331
3 -الاستشراق – محمد عناني ص331

من ناحية وبين الشرق من ناحية أخرى"[1]. ويحدد سعيد هاتين القوتين بالذات بسبب دورهما الامبريالي الكبير في المنطقة الشرقية، وإن كان هنالك تفاوت واختلافات وخصائص..، وذلك يمكن أن يندرج فيما يسميه سعيد بالاستشراق السافر (الظاهر)، الذي يتكامل ولا يتناقض مع الاستشراق الكامن، وهذا الأخير هو العنصر المشترك بين مختلف المدارس الاستشراقية. يقول سعيد:"ومنذ بداية القرن التاسع عشر، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كانت لفرنسا وبريطانيا السيطرة على الشرق و الاستشراق، وأما منذ انتهاء هذه الحرب، فأمريكا هي التي تسيطر على الشرق، وتتبع ذلك المنهج الذي كانت تتبعه فرنسا وبريطانيا ذات يوم"[2]. أما من ناحية اختلاف هذا الارتباط الفرنسي البريطاني وبين دول الغربية الأخرى بالشرق، اختلافا كميا وكيفيا من الناحيتين التاريخية والثقافية – عن أي دولة أوروبية أو أمريكية، .. والحديث عن الاستشراق إذن يعني الحديث أساسا عن المشروع الثقافي البريطاني والفرنسي وإن لم يكن ذلك مقصورًا عليه"[3]. فهو مبني على أساس التأثير في تلك المجتمعات الشرقية، خصوصا من طرف فرنسا وبريطانيا. وقد تبلور إحساس لدى الفرنسيين وبالخصوص المستشرقين منهم أن بريطانيا قد سيطرت على المشهد الشرقي، دون أن تترك المجال لفرنسا ودول أخرى للممارسة عملياتها الاستعمارية، ومشاريعها في الاستيطان، وتلك الخطابات التي كانت يصدرها 'اللورد كرومر' وآخرون تشي بالشيء الكثير من هذا. ولهذا عمد كثير من رواد الاستشراق المحسوبين على فرنسا أن يدخلوا السباق:" فقد كانت فرنسا ترى، مثلما كان المفكرون الفرنسيون الذين تعرضوا لهذا الموضوع، يرون أن بريطانيا تحول، فيما يبدو، دون قيام فرنسا بدور إمبريالي، حتى ولو حقق نجاحًا نسبيا وحسب، في الشرق. وكان المفكرون الفرنسيون الشعراء والروائيون، يمنون أنفسهم بقدر كبير من الأماني في السياسة الخاصة بالشرق"[4]. ولهذا اندفع هؤلاء لتحسين الوجود البريطاني، ولكن انجلترا كان لها وجود حقيقي، على أية حال، في الشرق بصفته مكانا فعليا، ولم يكن لفرنسا وجود، باعتبارها

1-الاستشراق – محمد عناني.ص47
2 -الاستشراق – محمد عناني ص47
3 -الاستشراق – محمد عناني ص47
4-الاستشراق – محمد عناني ص339

مصدر إغواء أهوج للشرقيين السذج"[1]، أي أن المعركة القائمة هي فرض الوجود على أرض الواقع، والذي وجد له الفرنسيون مسوغات عجيبة، تضع الشرق موضع المستنجد و المستجدي بطوق النجاة الفرنسي الذي يحمل على عاتقه أعباء حمل هموم الآخر وإنقاذه، من باب الإنسانية، أو المسؤولية الأخلاقية ربما، التي تستدعي التدخل العاجل قبل تفاقم الوضع، ويظهر هذا في سياق الخطاب الاستشراقي، الذي ينتخب منه سعيد مقالا كتبه 'سان مارك جيردان' في مجلة ريغي ديديه موند"، بتاريخ 15 مارس 1862: "على فرنسا أن تعمل الكثير في الشرق، فالشرق ينتظر منها الكثير، ومع ذلك فهو يطالب منها أن تنهض بأكثر من ما تستطيع النهوض به، إذ وضع في أيديها، من جديد، وعن طيب خاطر، مسؤولية الاهتمام الكامل بمستقبله"[2]. و أوغل صاحب المقال في إبراز الموقف الفرنسي الذي يصوره في سياق خطابه أنه جاوز الإنسانية إلى درجة تحمل المعاناة وتعرض الذات الفرنسية إلى الأزمات، من أجل تقديم العون للآخر، رغم أنه مختلف الانتماء والثقافة. ويبرر صاحب المقال هذا الموقف الخطير بقوله: " أما الخطر على فرنسا فيرجع إلى أن استعدادها لتولي أمر السكان الذين يتعرضون للمعاناة، يعني أن تتحمل، في أغلب الأحيان، التزامات أكبر مما تستطيع الوفاء به، وأما الخطر على الشرق فيرجع إلى أن كل شعب ينتظر من الأجانب تحديد مصيره، لن يعرف سوى زعزعة الأحوال، ولن يتمتع بالخلاص الذي تحققه الأمم لنفسها"[3]. إنه ليبدو في الوهلة الأولى من قراءة هذا الخطاب الأخير الذي يتناول مخاطرة فرنسا أثناء عملياتها الإنسانية في الشرق، و الأزمات التي تجرها على نفسها بسبب تضحياتها لبناء الآخر ومساعدته، أن الضرر المحدق بفرنسا أثناء هذه العملية التي تبدو مجازفة، صادر عن الشرق، أي أن فرنسا تلحق بنفسها أضرارا من أجل الشرق، وكذلك الخطر المحدق بالشرق والمتمثل في "زعزعة الأحوال والحرمان من الخلاص"، ناتج و صادر عن أهل الشرق، لأنهم هم من طلبوا التدخل الفرنسي في بلدانهم، مما جعل فرنسا تتجشم عناء الاستجابة لذلك. وتكتمل الصورة

1- الاستشراق – محمد عناني ص331
2- الاستشراق – محمد عناني ص339
3- الاستشراق – محمد عناني ص339

الخطابية في رسم هذا الشرق ومسؤوليته الكاملة عن عناء فرنسا بسببه (الشرق)، وعناؤه هو الآخر بسبب نفسه. أي أن المشاكل التي انعكست على فرنسا والشرق معا – على اختلافهما – سببهما الشرق وحده.

وكانت هستيريا التفوق البريطاني على فرنسا قد تغلغلت في الأذهان، مما أجج الصراع المحموم الذي نادى به المستشرقون من أجل: "مُجاراة إنجازات الامبريالية البريطانية"[1]. وقد تصاعدت وتيرة الاستعداد الثقافي والسياسي لذلك:"ولقد بلغ من قوة الرغبة الأخيرة وبلغ استنادها إلى ذلك التراث العريق من منافسة من بين إنجلترا وفرنسا في الشرق. أن شبح بريطانيا كان، فيما يبدو، "يسكن" فرنسا –دون مبالغة– ويدفعها إلى محاولة اللحاق ببريطانيا ومحاولة التفوق عليها، في كل الميادين. ولذا يصر سعيد في أطروحته الاستشراق على إبراز طرفي الصراع (فرنسا وبريطانيا) وهذا لا يعني أنه قد أغفل أو أهمل أطرافا أخرى، لأنه في آخر كتابه يذكر المحطة الأخيرة للامبريالية الحديثة، والمتمثلة في الولايات المتحدة، التي برزت على الصورة بعد تراجع دور الامبراطوريتين المذكورتين، بطريقة تكتيكية، ليطغى على الساحة الخطاب الأمريكي بقاموس اصطلاحي جديد، فبعد أن كان يسمى الاستشراق أصبح (دراسات الشرق الأوسط) أما المستشرق فلقب بـ(خبير بشؤون الشرق الأوسط) وعبارات أخرى.. ، حتى ليبدو، من سياق تحليلنا للنصوص الاستشراقية الحديثة، أن أسلوب الهيمنة تغير حسب المستجدات، وبالموازاة مع ذلك، فإن أسلوب الخطاب، هو الآخر، تغير حسب الأحداث والمشاريع السياسية الأمريكية، أي أن ما بلغ انتباه النقاد في كتاب الاستشراق، أن سعيدًا لم يبرز دور الاستشراق الألماني، مثلا، رغم أنه سليل مدرسة قائمة بذاتها ومستندة على أسس ونظريات خاصة، وهو يرد على هذا الطرح، ويقدم حججه في هذا الموضوع: "يقدم سعيد تفسيرًا مقنعا تماما لهذا التجاهل قائلا: لم تكن لدى ألمانيا مطلقا اهتمامات قومية المنشأ في الاستشراق مثل الفرنسيين والبريطانيين، قد أسست نوعا من السطوة الفكرية غلى الشرق، ضمن الثقافات الغريبة، بمعنى يمكن تفسير استثناء الشرق الألماني من الناحية النظرية (بناء على ما سبق)، من دون استبعاده من نقد سعيد الأكثر

1- الاستشراق – محمد عناني ص341

عمومية للاستشراق الأوروبي، وبعبارة أخرى، قد أدرج الاستشراق الألماني وعلى نحو صحيح تماما في نقده العام للنظام المعرفي هذا. بينما يقدم في الوقت نفسه نوعا من التفسير لاستثنائه له، مقرا بوجود ثغرات في تغطيته النقدية[1]".

1- حميد باشي – ما بعد الاستشراق ص120.

- **ثنائية"الاستشراق" و"الثقافة والامبريالية":**

لما كان كتاب الاستشراق مشروعا صداميًّا مع المشروع الامبريالي، من حيث أنه استعمل آليات الغرب في صناعة الشرق لأهداف غربية محضة. واستراتيجيات مدمرة للكيان الشرقي المقابل، أو الآخر الذي أسقط عليه الغرب أحماله وأثقاله وجمله عثراته، وادعى أنه عالة عليه، من خلال تحمل عناء نشر الديمقراطية في رحابه الواسعة. ولم تكن هذه الشعارات أكثر من واجهات زائفة، لذلك لعب الاستشراق دورًا محورياً في تغيير المنظومة الثقافية، في مرحلة ما بعد الكولونيالية، حتى أصبح "الاستشراق"، النقطة، أو المحطة الفارقة، بين الأعمال الكتابية التي سبقته والتي جاءت بعده، رغم أن هنالك إسهاب كبير في الدراسات الاستشراقية، إلا أن: "الجديد في الاستشراق عند ادوارد سعيد كان في متابعة الدراسات الاستشراقية في القرنين الماضيين التي كانت تقوم على التشابه بين الأشياء والأجناس وترتيبها في مستويات نشوئه وارتقائه"[1]. وهذا الميراث يؤسس لعمل، من نوع جديد أو منظور مخالف للاستشراق المتداول في بلاد الشرق، إضافة إلى أن سعيد قدم هذا الكتاب للمجتمعين، الغربي والشرقي. فهو يفضح القوالب و الصيغ والخطابات التي يحملها الاستشراق في سياقاته الدلالية، والتي لم تسبق دراسته في العالم الشرقي أو الغربي أن تناولت هذا الطرح بهذه الحدة والعمق والحدية. وقد استعان في ذلك على مفهوم الخطاب عند فوكو، والذي يقول بأنه: "النصوص والأقوال كما تعطى في مجموع كلماتها ونظام بنائها وبنيتها المنطقية أو تنظيمها البنائي[2]". وكذلك نظرية جاك ديريدا التفكيكية، وأستاذًا له. ومفهوم الهيمنة كان واضحا أثره، ليس كتاب الاستشراق فحسب، ولكن حتى المؤلفات الأخرى، وعلى رأسها "الثقافة والإمبريالية"، الذي هو الآخر موضوع بحثنا. أما ملخص كتاب الاستشراق، فهو: "مشروع إدوارد سعيد الفكري الأساسي، الذي يعرفه بأنه طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق، مبنية على منزلة الشرق الخاصة في التجربة الأوروبية الغربية، حيث لم يكن الشرق لصيقًا بأوروبا وحسب، بل هو موضع أعظم مستعمرات أوروبا و أغناها و أقدمها، ومصدر

1- مقال إرث الاستشراق باق بعد رحيل إدوارد سعيد – تفكيك البنى السياسية للإمبريالية الغربية والأمريكية – د. "جيمس" بلشاي، ضمن إدوارد سعيد طائر القدس المهاجر : ص107.

2- ميشيل فوكو – حفريات المعرفة . ترجمة: سالم يفوت دار البيضاء، المركز الثقافي العربي.1987، ص25.

حضاراتها و لغاتها ومنافسها الثقافي"[1]. وهذا فيما يخص كتاب الاستشراق، أو ما نسميه بالجزء الأول من أطروحة سعيد في مواجهة الامبراطوريات الأمبريالية :" فالاستشراق ينطوي على وجود نظري و عملي" وهو ليس مجرد نسق معرفة فقط، إنه تدخل وإعادة توزيع ورسم حدود،... ومن ثمّ فهو "أسلوب" للهيمنة والسيطرة وإعادة البنية، ولم يجانب سعيد حينما قال: " بدالي من الحمق أن أحاول سرد تاريخ موسوعي الاستشراق"، فما يهمه في الاستشراق هو "الخطاب"، أو "نظام الخطاب" إذا جاز عنوان ميشيل فوكو الذي مارس تأثيرًا جّليا داخل الكتاب"[2]. وهكذا التأثير قد امتد ليشمل الجزء الثاني من الأطروحة والموسوم بالثقافة والامبريالية. وفي هذا الصدد تعقد مقارنة بين الكتابين وإن كانا متواليين متكاملين – إضافة إلى المخطوط المرسوم بـ " تعقيبات على الاستشراق"، الذي يعتبر مكملاً لكتاب "الاستشراق" "، في الاستشراق صرف سعيد إدوارد النظر عن جملة الاستجابات التي ترافقت مع الهيمنة الغربية، على امتداد العالم الثالث، وأخذت تشكل حركات مقاومة مسلحة وجمعيات تدعو إلى حق تقرير المصير، والاستقلال الوطني، مثلما أخذت شكل مقاومة ثقافية، تستهدف تثبيت الهوية الوطنية، وفي الثقافة والامبريالية يستدرك سعيد ما غاب عن الكتاب الأول، سواء في مناقشة نسق الثقافة والامبريالية أو تجربة المقاومة التي أفرز بها ذلك النسق ضمن عوامل أخرى"[3]. أما شرح سعيد لمفهوم الثقافة والامبريالية فإنه يستحضر مفهوم "الطباقية"، لتكون الدلالة أبلغ إذ يقول أن: "العملية الطباقية تدخل في حسابنا كلتا العمليتين، العملية الامبريالية، وعلمية المقاومة لها، ويمكن أن يتم ذلك بتوسيع قراءتنا للنصوص، لتشمل ما تم إقصاؤه يوما بالقوة"[4]، أما في مجال النقد، يقول الدكتور تركي بن خالد الظفيري في أطروحته الموسومة بـ "الاستشراق عند إدوارد سعيد برؤية اسلامية"، أن: "كتاب الاستشراق أدى إلى حدوث تغيير جذري في الفكر النقدي، فبعد أن كانت الجماليات والبلاغات مستحوذة على هذا الفكر، متجاوزة ما في النصوص من ايديلوجيات، استطاع إدوارد سعيد، بتحليلاته العميقة، الكشف عن تلك الايديولوجيات، في منطلقاتها وخياراتها

1 - أنظر صدام ما بعد الحادثة: ادوارد سعيد وكتابة التاريخ. ترجمة عفاف عبد المعطي، "القاهرة: دار رؤيةط2006،1،ص12،ص13.
2- يحي وليد، خطاب ما بعد الاستعمار - مجلة الكلمة – العدد 16.2008،ص30
3 -تعقيبات على الاستشراق ص31
4 -الثقافة و الامبريالية ص135

وغاياتها، وهي في حالة الاستشراق، تسويغ للامبريالية ودعمها وتوجيهها، وما قيل عن "الاستشراق"، أيضا يقال عن "الثقافة والامبريالية"، فيما يتصل بنقد الثقافة والامبريالية وثقافة ما بعد الاستعمار"[1]، وقد واصل سعيد تمديد أطروحته حتى تكون مواكبة للأحداث الموازية لتاريخ تأليف كتاب الثقافة والامبريالية، والذي يعني بالدرجة الأولى بالاحتلال الامبريالي للولايات المتحدة في الشرق بعد أن كان كتاب الاستشراق في أغلب دراساته يطال الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية، يقول سعيد عن هذا الكتاب الثاني: "بعد حوالي خمس سنوات من صدور الاستشراق عام ،1978 بدأت بتجميع بعض الأفكار التي كانت قد تجلت لي، وأنا أنجز ذلك الكتاب حول العلاقة بين الثقافة والإمبراطورية، وكانت أولى نتائج، سلسلة من المحاضرات ألقيتها في جامعات الولايات المتحدة وكندا وانجلترا عامي 1985، 1986م، وتشكل تلك المحاضرات المنظومة اللبابية للكتاب الحالي، الذي ظل يشغلني بانتظام ذلك الوقت"[2]، أي أن سعيد يشير إلى التكامل بين الكتابين، إضافة إلى الرد على كثير من الانتقادات التي وجهت له بعد صدور كتاب الاستشراق، الذي كان شديد اللهجة، ويلخص سعيد رغبته في تأليف هذا الكتاب، فيقول:"ما حاولت أن أفعله، إذن، هو تقديم أجوبة على أسئلة أثارها –الاستشراق– واستكمال تلك الأسئلة، غير أنني حاولت أن أكون أكثر تحديدا، فيما يخص مقولات منهجية متعددة، وبين أبرز هذه المقولات ما أسميه :القراءات الطباقية، وأولوية الجغرافيا والتحليل الدقيق للاستخطاطيات–الاستراتيجيات– الامبريالية، وكذلك المعارضة والمقاومة ضد الأمبريالية "[3]. وهنالك فوارق أخرى يشير إليها سعيد في كتب متعددة مثل كتاب _السياسة والسلطة والثقافة– وهي تتعلق بالنقد الذي نتج عن كتاب الاستشراق حيث يقول: "وبعدما ظهرت ردود الأفعال الأولية على شكل مراجعات وما إلى ذلك، اعتقدت أني أريد كتابة عمل يتطرق إلى بعض القضايا المطروحة في –الاستشراق– وفي الحقيقة كتبت، فعلا، مقالة بعنوان إعادة النظر في الاستشراق، وكنت في

1 -علي خليل محمد، التسامح في فكر ادوارد سعيد، مركز رام الله لدراسات حقوق الانسان، ط1، فلسطين،2007، ص10.

2– تركي خالد الظيفري، إدوارد سعيد رؤية إسلامية، مركز التأميل للدراسات والبحوث، ط2، المملكة العربية السعودية، 2015، ص66-67

3- الثقافة والامبريالية ص 26

الأصل أود نشرها ملحقا لهذا الكتاب. وهي عبارة عن رد على الناقدين، ومحاولة لتطوير بعض الأفكار المطروحة في الاستشراق وشرحها، لأنها لم تكن مفسرة على نحو جيد هناك"[1].

هذه الردود كفيلة، كما يرى سعيد، أن ترأب الصدع النقدي الذي تعرض له كتاب الاستشراق، خاصة في السنوات الخمس التي لحقته، لأنه النقطة الفاصلة _المتفق عليها_ التي انطلق منها أدب ما بعد الاستعمار بشكل ظاهر الملامح، وبآليات أكثر صلابة بحيث لم يترك مجالا للمناورة الخطابية وإنما قطع قول كل خطيب! وتلاه كتاب تعقيبات على الاستشراق، الذي يعتبر تتمة لكتابه الأساس فقد كان: (الاستشراق نقلة سعيد الحاسمة نحو تحليل العلاقة بين القوة والمعرفة، وأداء الخطاب الاستشراقي العام لوظيفة تعبوية وسياسية وتخييلية خدمت السياسات الاستعمارية، وشكلت جزءا لا يتجزأ، من مناخات صعود الامبريالية، وإذا كان سعيد في تحليل النصوص لا يغفل البصمات الخاصة التي تخلفها مقولة القصدية الفردية، التي ناقشها في كتابه السابق "الاستشراق". فإنها، في الآن ذاته، منهجية صارمة في متابعة مدى وسطوة الخطاب الاستشراقي، وقدرته على اختزال تلك القصدية"[2].

ويقدم سعيد وجها من العلاقة بين كتابيه "الاستشراق" و"الثقافة والامبريالية"، تتمثل في توسيع الفكرة وتمديد حدود الصورة التي يود رسمها على أطروحته:"ينبغي الآن ل_الثقافة والأمبريالية_ الذي يقوم، فعلا، بموضعة المشكلات التي عالجها _الاستشراق_ في سياق أوسع، إذا كان لتفاؤلي ما يسوغه أن يعيد إحياء المناظرة حول السيطرة والمقاومة، وحول التاريخ والجغرافيا، وحول استخدامات الثقافة ومحاولات التفكير بالتحرير. وجميع هذه الأمور كانت متمركزة في اللباب من الاستشراق"[3].

وكأن النص يوحي بعملية تشريحية تفكيكية حدثت في كتاب الثقافة والامبريالية، وموضوع هذه العملية هو الاستشراق، الذي تمت صياغته وبلورته، فظهر بوجه جديد أكثر عمقا وأبعادا، يتمثل في الثقافة والامبريالية، يقول

1 -الثقافة والأمبريالية، ص 10

2 -تعقيبات على الاستشراق، ص26

3- الثقافة والأمبريالية، ص 09

سعيد في كتابه المذكور –الثقافة والامبريالية_ :"تستمر هنا فاعلية المنطلقات التي تبطنت الاستشراق. حيث نبعت تحليلاته من معطيات مثل: القوة، السلطة، وسلطة الإنشاء، والنصوص والتمثيلات ، ورؤية الآخر وتنميطه وقوة الإنشاء والنصوص المولدة لذاتها وترابط القوة بالمعرفة والاستعراض والمعجبة"[1].

ويشير سعيد، في مواضع عدة، من كتابه الأخير أن هنالك نقاط لم يتم معالجتها بالقدر الكافي، وتوجب الرجوع إليها وتحليلها، دراسيا، في هذا الكتاب:"أما أبعد المنطلقات التصورية الجديدة في عمل سعيد خطورة وخلافية في تقديري، فهو مفهوم الهجنة والتوليد والعلاقة بينه وبين الهوية المتصلبة، وسياسات الهوية، واللاإنتماء والروح المترحلة، وتجربة المنفى، التي تنفخ كتاباته الآن بشيء لم يكن قد تبرعم وبزغ في (الاستشراق). وكتاباته التالية له مباشرة"[2].

كما أن بعض النصوص والمبادئ التي يرتكز عليها سعيد في مشروعه النقدي راسخة وثابتة وقد أقر أنه لن يغير منها شكلا ولا مضمونا حتى يبين وحدة منظوره ورسوخ مبادئه وأن الأطروحات وإن تغيرت أو توسعت من خلال الشروحات والتعقيبات إلا أنه في الأخير حافظت على مادتها الخام:"في مقدمة ترجمتي للاستشراق، ناقشت بعض المبادئ التي استند عليها في عملي، ولن يكون بوسعي أن أضيف إليها هنا أو أصوغها صياغة أفضل ولذلك سأقتبسها كما هي هناك ليتضح لقارئ هذا الكتاب –الثقافة والإمبريالية_ أيضا، النهج الذي أنتهجه والأعراف التي أعتمدها، هي ذي بعضها"[3]. فمهما يكن _كما يقوا سعيد_ من أوجه اختلاف أو اتفاق وتداخل بين مشروع الكتابين فإنه في الأخير تم الاعتماد على مبدأ أو قاعدة بيانية موحدة لا يحيد عنها تصب في :"نقلة إدوارد

1 -الثقافة والامبريالية ، ص 16

2 -الثقافة والامبريالية ، ص 23

3 -الثقافة والامبريالية ، ص 26

سعيد الحاسمة نحو تحليل العلاقة بين القوة والمعرفة، وأداء الخطاب الاستشراقي العام لوظيفة تعبوية وسياسية وتخييلية خدمت السياسات الاستعمارية وشكلت جزءا لا يتجزأ من مناخات صعود الامبريالية"[1].

وكانت عصب الحياة لكل القوى الاستعمارية. يقول صبحي حديدي في مقدمة كتاب تعقيبات على الاستشراق: "كتاب ادوارد سعيد الاستشراق، الذي غير وجه البحث العلمي حول العرب، والعالم الاسلامي، والعالم الثالث إجمالا بكلمات ديشين سميث. وفي كتابه ما قبل الأخير، الثقافة والامبريالية 1993، يستكمل إدوارد سعيد الحجة المركزية التي ناقشها في الاستشراق حول العلاقة بين القوة والمعرفة. ويرى أنه إذا كان النشاط الاستشراقي جزءا من مؤسسة أكاديمية لتمثيل الآخر واختزاله بقصد الهيمنة عليه. فإن الإمبراطورية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت ضرورة جوهرية لتحديد قسمات الهوية الغربية كما نعرفها اليوم. ولهذا فإن دراسة التجربة التاريخية للامبراطوريات وبالتالي العلاقة بين الثقافة والإمبريالية تعني الهندي مثل البريطاني والجزائري مثل الفرنسي والغربي مثل الشرقي بصفة إجمالية"[2].

1 -تعقيبات على الاستشراق ص 26
2 -تعقيبات على الاستشراق ص 29

- **الاستشراق الكامن والاستشراق الظاهر:**

انصب اهتمام إدوارد سعيد على موضوع الاستشراق وقد انعكس ذلك على جل أعماله اللاحقة مثل "الثقافة والامبرالية"، الذي يعتبر الجزء الثاني لكتاب الاستشراق. وتغطية الاسلام، الذي يصور فيه دور وسائل الإعلام في نشر التعبير الإعلامي للحقائق حول الشرق، وعلى رأسها الاسلام، وكذلك أطروحاته التي تتمحور حول الثقافة والسلطة، مثل: المثقف والسلطة، والسلطة السياسية والثقافة، وتمثيلات المثقف، وصور المثقف، وخيانة المثقفين.. كما أن هنالك مؤلفات أخرى، لا تخرج عن هذا الإطار، وإن كانت تبدو سياسية، فإن إدوارد الناقد قد أخضع السياسة، والثقافة المسيسة للنقد، للاستجواب، معتمدًا على آليات التحليل الغربي واللغة الأكاديمية الانجليزية، والتي كانت أداة المستشرقين البريطانيين والأمريكيين.. ، لدراسة الشرق وإعادة صياغته وسبكه حسب المشروع الاستيطاني، فبالنسبة لسعيد ليس هناك نص متجرد من المؤثرات الخارجية (السياقية) ، التي شاركت أو هيأت المناخ لمخاض الاستشراق. ثم يضيف سعيد أنه يكفر بكل دعاية تدعي الحيادية أو العلمية في طرحها، وإنما يرجع كل ذلك إلى الايديولوجية الغازية المتمثلة في الامبراطورية، سواء الفرنسية أو البريطانية أو الأمريكية، التي ظهرت بقوة في فترة ما بعد الكولونيالية، ليتراجع دور الامبراطوريات الأخرى، وكأنهم ممثلون على الركح، كلما انتهى دور أحدهم تراجع إلى الكواليس –إلى حين– ليبدأ دور ممثل آخر ليشارك في استمرار العرض..، ويقول سعيد مؤكدا على دور السياق ومشاركته الفعالة في إنتاج النص:"ولقد كانت ولا تزال الافتراضات الرئيسية التي انطلقت منها تقول، إن مجالات البحث العلمي شأنها في ذلك شأن الأعمال الفنية، حتى أشدها غرابة، تخضع لقيود ومؤثرات يفرضها المجتمع وتفرضها التقاليد الثقافية، وظروف الحياة، كما تخضع لتأثير العوامل التي تهيء لها الاستقرار مثل المدارس والمكتبات والحكومات"[1]. ويضيف سعيد أن الظروف المحيطة إضافة إلى الجوانب المادية كلها تشارك في هذا المنتوج النصي. ولا مناص من ذلك – ثم يشير إلى التراكم والتواصل في سيرورة الأحداث التي تصل بالنص

1- الاستشراق محمد عناني، ص317، ص318.

إلى مرحلة النضج والتكامل: "وإذا نظرنا إلى مجال الإستشراق وجدنا أن له هوية تراكمية وجماعية"[1]، وبذلك فإن الاستشراق أرضية علمية وآليات بحث ومنهجية معينة يمكن النظر من خلالها إلى المواضيع، وهذا ما يستند عليه المستشرق في عمله وبحوثه حتى أصبح الاستشراق مقياسا تعرف به حدود بعض الدراسات من ناحية مصداقيتها " إذ أصبح الاستشراق يحكم بالصحة على أشياء معينة، وأنماط معينة من الأقوال والأنماط معينة من الأفعال، وهكذا فيمكن اعتبار الاستشراق منهجا من المناهج الملتزمة بنظام معين (أو بصورة خاصة للشر)"[2] ، وكأن سعيدا يقول أن الغرب، من أجل دراسة الشرق، يجب أن يخضعه ويقولبه، حسب ما يمليه الاستشراق، وإن اختلفت الدراسات الاستشراقية، فإنها في النهاية، لن تحيد عن الخطوط العريضة والمنهجية المسطرة من طرف المستشرقين. والاستشرق له التزاماته المتفق عليها سلفا بين هؤلاء المستشرقين، والتي تبدو مختلفة أحيانا، ولكنها في الحقيقة لا تعدو أن تكون متعاونة ومتكاملة، يقول سعيد:" وإذن، فإن الشرق الذي يظهر في الاستشراق، نظام من الصور التي تمثله، والتي صاغها مجموعة كبيرة من القوى، التي أدخلت الشرق في مجال العلوم الغربية والوعي الغربي"[33]. ونستشف من هذه العبارة مدلول الشيئية التي أطغاها المنظور الغربي الاستشراقي عندما يدعي أنه يدرس الشرق، وكأن هذا العالم الأخير – الشرق– مجرد شيء أو أشياء موضوعة في مختبر قيد الدراسة المسلية، ثم يتم تصنيفها، من أجل أرشفتها إلى حين الحاجة إليها واستغلالها. ومن مجمل الدراسات الاستشراقية الاهتمام باللغة العربية، كما يقول سعيد أن "الاستشراق نفسه مدرسة من مدراس التفسير، تصادف أن كانت مادتها تتمثل في الشرق وحضاراته وشعوبه ومناطقه، وأما مكتشفاته الموضوعية التي قام بها عدد لا يحصى من الباحثين، الذين أوقفوا حياتهم على البحث فحرروا النصوص وترجموها، ووضعوا كتب النحو، وألفوا المعاجم .. وتوصلوا إلى نتائج علمية.. وكانت دائما تخضع لحقائق مجسدة في اللغة. مثل جميع الحقائق التي تأتينا اللغة بها"[4].

1- الاستشراق محمد عناني، ص318

2- الاستشراق محمد عناني، ص318

3 - الاستشراق محمد عناني ص318

4- الاستشراق محمد عناني ص319

هذه الجهود التي كرس المستشرقون حياتهم من أجلها، كان لها صدى كبير في علم الغرب، الذي يتلهف لمعرفة الجديد والغريب والمخالف، أو ما يسمونه الآخر (الشرق)، ولكن هذه المعرفة، وإن كانت متقنة الصنع، لأن جهودا جبارة، بذلها المستشرقون، لإخراجها بصورة متكاملة متناسقة ومشوقة، إلا أنها زائفة، و لا علاقة لها بالحقيقة، ولم يتوان هؤلاء عن توظيف مختلف أساليب اللغة والبلاغة والتصوير، للتأثير في المتلقي الغربي، فيخرج بخلاصة الفوقية والمركزية الغربية، وغرور الرجل الأبيض. وكذلك المتلقي الشرقي لهذا التيار الاستشراقي، الذي يعمل على شرقنة نفسه من خلال استهلاك هذه المادة المحضرة، سلفًا، في مخابر الغرب، ويصعب على الشرقي أن يقاوم ثقل الدلالات المحبوكة بدرجة عالية من الخبث، والتمثيل، بما بأنه حرم من أخذ أي جرعة من ترياق المناعة لمواجهة هذا التيار الثقافي الغربي الجارف، ولأن هؤلاء المستشرقون روضوا أدوات اللغة، أو اللغات الشرقية لتكون طيعة في أيديهم، فيستخدمونها لمخاطبة السكان الأصليين ومواجهتهم بثقافتهم. ويستدل سعيد بتفسير مفهوم اللغة عند فريديريش فيلهيلم نيتشه، الذي يقول:"جيش متحرك من الاستعارات والكنايات –والتشبيهات بالإنسان– وباختصار، مجُمل علاقات بشرية، قامت عوامل شعرية وبلاغية يالارتقاء بها، وتبديل مواقع أجزاءها وتجميلها، فأصبحت تبدو بعد طول استعمالها "حقائق" صلبة وفقهية وملزمة لشعب من الشعوب. ما الحقائق إلا أوهام نسي المرء أنها كذلك في الواقع"[1].وهذا ما يذكر بإشكالية الأخطاء وشيوعها في اللغة العربية، وتكسير الضوابط النحوية والصرفية والدلالية، تحت شعار "خطأ مشهور خير من صواب مهجور"، أو ما يسمى بالانزياحات الدلالية واللغوية ..، وما إلى ذلك من مسوغات، التي تتيح للباحث توجيه اللغة نحو إيديولوجية معينة، لأهداف محددة. ويعلق سعيد على كلام نيتشه – الذي يراه مفيدًا – من حيث أنه يخدم أطروحته المتعلقة بالإستشراق

1- الاستشراق محمد عناني ص320.

فيقول: "لفت نظرنا – نيتشه – إلى أن كلمة الشرق، حيثما وجدت في الوعي الغربي، انتهى بها الأمر إلى اكتساب مجال واسع من المعاني، والتداعيات، وظلال المعاني، يحيط بالكلمة"[1].

فمشروع التزييف اللغوي واضح، وهو الأرضية القاعدية لبناء الاستشراق والخطاب الاستشراقي، وفق أنماط لغوية معينة، لا تؤدي إلى الحقيقة، أو الواقع المعيش. أي التزييف الثقافي "شرقنة الشرق" – ومن هنا تظهر إشكالية المصطلح، إذ من المعروف أن كل حقل معرفي إلا ويضم قاموس لغوي خاص به، يبنى عليه ركائزه، ويتحرك في إطاره، وهذا ما يشير إليه سعيد:" كلما ازداد عدد المصطلحات الخاصة بالشرق وازداد تواترها فتوطد مكانها في الخطاب الأوروبي، ثم يلفت النظر إلى هذا "الخطاب الأوروبي"[2]، أنه يستمد حياته ونشاطه من خلفية وايديلوجية: "وكانت تمتد تحت هذه المصطلحات طبقة تمثل مذهبًا محددًا بشأن الشرق، وهو المذهب الذي تشكل من خبرات الكثير من الأوروبيين الذين تلاقت آراؤهم، جميعا، حول بعض المذاهب الجوهرية للشرق، مثل الشخصية الشرقية، و الاستبداد الشرقي، والنزعة الحسية الشرقية "[3]، وهذه الطبقة أو المذهب الذي يتحدث عنه سعيد، هو الذي يقوم بتحريك وتوجيه المصطلحات الاستشراقية وفق نمط أو نظام معين ومدروس سلفا، يستمد حياته من السياق الكلي الذي أنشأ الاستشراق، أو كان أهم الأسباب والدوافع لوجوده، وهذا المذهب –كما يشير سعيد – هو عصارة جهود جماعية لمدارس استشراقية مختلفة، انطلقت من أرضية واحدة، ورسمت هدفا واحدًا، هو شرقنة الشرق. وإن كانت السبل للوصول إلى الهدف مختلفة ومتفاوتة، نوعا ما، إلا أن المحصول موحد، وهو الجانب الروحي للامتداد الاستيطاني، الذي يخمد جذوة الشعوب، ويؤثر عليها ثقافيا ونفسيا، لتقع في شراك ما أسماه المفكر مالك بن نبي " القابلية للاستعمار"، أو تكون ضحية بعض المذاهب الفقهية المحسوبة على الإسلام، مثل مقولة " القضاء والقدر"، التي وظفها نابليون بونابرت، الذي خاطب الشعوب المستغلة، على غرار مصر والجزائر،

1- الاستشراق محمد عناني ص320.

2 -الاستشراق محمد عناني ص320

3 -الاستشراق محمد عناني ص320

بأن: "دخول فرنسا إلى هذه البلدان هو مشيئة إلهية – قضاء الله وقدره – والمؤمن يسلم بالقدر خيره وشره. وأي مقاومة للحكومة الفرنسية هو مقاومة لقضاء الله ورفض للقدر، وذلك من شروط الإيمان في الدين الإسلامي"[1]ومن هذا المنطلق فإن الشعوب المستضعفة رضخت للوضع تحت طائلة الضعف الثقافي الداخلي والتّأثير الخارجي

المتمثل في الاستشراق، ويذكر سعيد في نصه بعض المذاهب الجوهرية للشرق، التي من المفيد أن تتوقف عندها حتى نلم ببعض نقاط للمستشرقين من خلال تكوينها وتصنيفها، ونذكر أولا مصطلح: الشخصية الشرقية أو الغريب المدهش، ذلك المستنسخ من بقية بنى جلدته"حيث لا خصائص و لامميزات ينفرد بها عن الآخرين، يتم الحكم على الرجل الشرقي ككل من خلال دراسة عينات محدودة منه، ثم الحكم على البقية من خلال النتائج المتوصل إليها، مثل الكسول: "الذي لا يملك رغبة في البحث ينزل من راحلته ليجلس على الحصير يدخن ويشرب الشاي .."[2] الملون المعقوف الأنف الذي ما يفتأ يخرج إلى الوجود حتى يعيش في إطار معين روتيني ثم سرعان ما يختفي في المقابر – يموت – وحتى المقابر التي تضمه تتحول إلى تراب بعد حين[3] ..والمصطلح الثاني هو الاستبداد الشرقي ويتمثل في الحاجة الملحة للتدخل الغربي في بلدان الشرق وتمثيلهم "إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم، يجب أن يُمثلوا"، لأنهم همجيون وفوضويون وقاصرون عن أن يقيموا حضارة في بلاد الشرق لذلك يجب أن يخضعوا لحكم استبدادي (داخلي: سلطة ديكتاتورية، أو خارجي: استعمار). وأستدرك فأقول أن الاستبداد كثيرا ما جاء من السلطة التابعة للاستعمار على شكل انتداب غير معلن. وهذا الاستبداد يحد من تقدم البلاد ويعيش في تبعية للغرب في كل المجلات السياسية والاقتصادية: (مستهلك لمنتجات الغرب) والثقافية: (الاستشراق، وثقافة الإخضاع والهيمنة). وهذا ما ينعكس على الوضعية الاجتماعية فتنشر الآفات أما المصطلح

1 -الاستشراق محمد عناني ص320

2 -هذه النصوص تم الاشارة إليها في الاحالات السابقة

3 -الاستشراق ترجمة كمال أبو ديب . مقولة لكارل ماركس ص35

الثالث فهو النزعة الحسية الشرقية إذ أن المستشرقين كثيرًا ما تناولوا السكان الأصليين على أنهم شهوانيين إلى درجة الحيوانية فلا يحكمون عقولهم ولكنهم يسيرون وفق غرائزهم – تشبيها بالحيوان – يقول أحد المستشرقين في هذا الصدد أن الرجل الشرقي يتمنى أن يعيش في بيت الرجل الأبيض يأكل على طاولته وينام على سرير مع زوجته – زوجة الرجل الأبيض – وكذلك مستشرق آخر يتكلم عن المرأة الشرقية وأنها مجرد آلة جنسية لا تفرق بيت رجل وآخر وأنها تعيد الرجل الأبيض وقد ذكر سعيد على لسان أحد المستشرقين نموذجًا لهذه الملأة: "كشك هانم". تلك الغاية اللعوب التي تفتش في رسم صورة المرأة الشرقية الطارقة في الشهوانية، على حد وصف المستشرق.

وسبب هذا التأثير القوي من الغرب ورسمه للشرق بهذه الصورة البائسة والسوداوية إلى درجة البأس، هو انتهاز ضعف هذا العالم –خارج أوروبا– والمخالف تاريخيا وجغرافيا لايديولوجية العالم الغربي، وهذه حجة يقدمها سعيد ليؤكد أطروحته الرامية إلى قوة العلاقة بين الاستشراق والغزو الاستعماري: "وحجتي تقول أن الاستشراق في جوهره مذهب سياسي، فرض فرضًا على الشرق، لأن الشرق كان أضعف من الغرب، وأنه تجاهل اختلاف الشرق الراجع إلى ضعفه"[1]، ويضيف حجة أخرى ليؤكد رأيه: "إذ أن مجرد وجود "مجال" مثل الاستشراق دون أن يقابله شيء في الشرق الحقيقي يدل على القوة النسبية للشرق والغرب"[2]، وقد استغلت هذه القوة للتأثير على الذهنية الشرقية إلى درجة التسليم بكل ما وفد من الغرب من ثقافة، دون أدنى مقاومة أو ردة فعل، بإتجاه معاكس، يعمل على خلق توازن، أو على الأقل التخفيف من وطأة هذا الغزو الفكري الشائه، والخطاب الأوروبي المتأسس على ثقافة الهيمنة، التي أشار إليها المفكر أنطونيو غرامشي، والتي اعتمدها سعيد في مشروعه النقدي الرامي إلى تفكيك الميراث الثقافي الكولونيالي بالأدوات نفسها التي استعملها الغرب لإنشاء هذا الخطاب انطلاقا من أعمال ميشل فوكو.

1 -الاستشراق محمد عناني، ص321

2 -الاستشراق محمد عناني، ص321

ويتحدث سعيد بصفة أخرى عن الاستشراق فيقول: " والاستشراق باعتباره جهازا ثقافيا ينحصر في العدوان والنشاط وإصدار الأحكام وفرض الحقائق والمعرفة. كان قد وجد من أجل الغرب أو قل هذا ما بدا لعدد لا يحص من المستشرقين .."[1] – وهنا يشيرسعيد إلى ثقافة الامتلاك وكأن الشرق ملك للغرب لذلك فهو منشغل بدراسته للاستفادة منه على أساس أنه – الشرق – جزء لا يتجزأ من الغرب، ولكنه في الوقت نفسه لا يرقي إليه فهو من الدرجة الثانية أو الثالثة .. ومن هذا المنظور يعرف سعيد الثقافة أنها: "ليست مجرد تحديد الشيء الذي ينتمي إليه المرء فحسب وإنما لتحديد الشيء الذي يمتلكه أيضا ذلك الحد الفاصل الذي تحتدم عليه معركة ضارية بين مفهوم الشيء الدخيل على الثقافة ومفهوم الشيء الذي من صلبها"[2]. وسياسة التملك التي ينتهجها الغرب في الجغرافيا الشرقية يوازيها، كما أسلفنا، تملك آخره وطابع ثقافي مهيمن نابع من ايديولوجية عنصرية متعالية ومتجذرة في أعماق الغرب. يضيف سعيد " المجتمعات البشرية، أو على الأقل تلك التي حققت تقدما أكبر من سواها، كانت نادرًا ما تقدم للفرد شيئًا غير الامبريالية والعنصرية والمركزية العرقية عند التعامل مع الثقافات "الأخرى"، وهكذا فلقد ساعد الاستشراق، وتلقى العون من الضغوط الثقافية الجمة التي من شأنها إضفاء المزيد من الجمود على الشعور بالاختلاف بين مناطق العالم الأوروبية والآسيوية"[3] والمركزية الغربية – التي يتحدث عنها إدوارد سعيد أصبحت أحد أهم الشروط لدراسة الثقافات الأخرى من المنظور التعالي والرؤية البانورامية للأحداث – بمفهومها السلبي – أي دراسة ما يملكه الغرب – خارج الغرب – انطلاقا من مركزية توجه دفة المسار الدراسي لهذه "الممتلكات"، وقد خول الغرب لنفسه شرعية كل ذلك، وتجاوز الحد إلى الادعاء بضرورة هذا التدخل– الغزو العسكري والثقافي– وليس هناك أي صدى لردة فعل من طرف الشرق، إذ هو بساط ممهد أمام التوسع الاستيطاني وحتى السكان الأصليين لا يعدو كونهم كائنات" ومن نوع ما " تتحرك – في حدود – على المشهد

1 -الاستشراق محمد عناني، ص322

2 -العالم والنص والناقد، ص19

3 -الاستشراق محمد عناني، ص 321

الشرقي. ويعزو سعيد ذلك إلى: "خلل في الميزان مابين الشرق والغرب"[1]، لأن المشروع الامبريالي يسير وفق ترقية الغرب على أنقاض الشرق: "كانت جوانب الاستشراق التي كثيرًا ما اتسمت بالتوسع والتجريد والتطلع إلى المستقبل قد بدأت تكتسب إدراكا جديدًا بأنها مكللفة بمهمات: "دنيوية" في خدمة الاستعمار الرسمي"[2] ويشير سعيد إلى مهمة "النقد الدنيوي" الذي سنتناوله بشكل أوسع في الصفحات التالية –ويشير كذلك إلى العلاقة القائمة بين الاستشراق والمدراس الفكرية والثقافية الأخرى والصلات لتي تربط الاستشراق: "باعتباره مجموعة من الأفكار والمعتقدات أو القوالب اللفظية، أو المعارف الخاتمة بالشرق وبين المدارس الفكرية الأخرى القائمة بصفة عامة في الثقافة"[3]. ويساير سعيد تطور الاستشراق مرحليا، حيث كل الظروف المحيطة تصقله، ليصبح أكثر فاعلية في الثقافة، وترتسم معالمه الجديدة، بعد إدراج تغييرات أو تعديلات أو اصطلاحات جديدة. ويذكر سعيد المهمة "الدنيوية" للاستشراق لخدمة الاستعمار، ليكشف بعدا آخر من مسار التطور الاستشراقي إذ يقول: "ولقد كانت من بين التطورات المهمة في الاستشراق في القرن التاسع عشر ما يشبه "تقطير" الأفكار الأساسية عن الشرق، وصبها في قالب منفصل له دلالاته ووجوده الذي لا ينازعه شيء"[4]. ويطرح سعيد الفكرة مجملة، ثم يعود إلى التفصيل والتبويب الذي يضع "الأفكار الأساسية عن الشرق" في خانات تسهل على المستشرق، و على كل دارس، أو قارئ للاستشراق تصنيف دلالات هذا العلم، ووضعها في سياقها الخاص بها، ومن بين هذه الأفكار: "نزعة الشرق للملاذ الحسية، وللاستبداد، و"عقلية" المنحرفة، وما اعتاد من "عدم الدقة"، وتخلفه".[5] والملاحظ لهذه المعطيات، يتبين أن المستشرقين قد جمعوا مختلف الأمراض الاجتماعية والآفات التي كانت مستشرية في الكيان الاجتماعي الغربي، ليسقطوها على الشرق، بلا رحمة، مع إضافة التشويهات. فالملاذ الحسية و"عبادة المرأة". والشهوانية والغرائزية وفدت علينا من المجتمع الغربي، الذي يتميز بالتحلل الخلقي، والعلاقات غير الشرعية، و إلى

1 -الاستشراق محمد عناني ص 322
2-المرجع نفسه ص321
3 -المرجع نفسه ص 322
4 -المرجع نفسه ص322.
5 -المرجع نفسه ص323

غير ذلك، أما قضية الاستبداد، فإن الشعوب الشرقية طالما قامت بالثورة على الاستعمار عن طريق الحركات التحررية. الانتفاضات والمسيرات والمظاهرات، والحراك الشعبي الرافض للاستبداد، واستغلال السلطة والنفوذ.

أما الانحراف، فإن النظم الشرقية وخاصة الإسلامية والعربية، تضبط العلاقات إلى حد ما، وإن كان هنالك انحراف فإن الغرب لا يخلو من هذه النماذج والدراسات المتعلقة بعلم الجريمة، التي تقدم إحصائيات رهيبة عن حجم الجرائم في المجتمعات الغربية وعلى رأسها أمريكا. أما قضية "عدم الدقة" فإن التاريخ يشهد أن العلوم انطلقت من أرضية الشرقية، وكان العلماء العرب والمسلمين في الأندلس بلغوا قمة العطاء، عندما كانت أوروبى ترزح تحت طائلة الجهل لمدة تزيد عن ثمانية قرون، وكان الطلاب الأوروبيون يتتلمذون على يد علمائنا في مدارس الأندلس وغيرها، مما مكنهم، بعد ذلك، من بناء قاعدة علمية انطلق منها الغرب وبنوا حضارتهم، ثم جحدوا بهذا الفضل، وليتهم توقفوا عن هذا. وكتاب الاستشراق نافذة نطل منها على حجم العبث والتلفيق في عالم الشرق، الذي لا يمت بصلة إلى دعاواهم. حتى أصبحت صورة الرجل الشرق موضوعة في إطار خاص، يقول سعيد: "كان استعمال الكاتب لكلمة "شرقي" يكفي لإحالة القارئ إلى مجموعة محددة من معلومات عن الشرق، يسهل عليه التعرف عليها"[1]. وكذلك قاموسا لغوي محدد يستعمل خصيصًا في هذا الحقل الاستشراقي، وله منهجية ومذهب متفق عليه من طرف المدارس الاستشراقية، وقد أخلص الدارسون لهذا المنهج "المتفق عليه"، ليكون القاعدة الخلفية للتعامل مع الشرق بكل أبعاده "عن الذين أسهموا من المحترفين في المعرفة الشرقية كانوا يحرصون، بشتى الطرق، على صياغة أفكارهم وآرائهم، وبحوثهم وملاحظتهم المعاصرة المتأنية، بلغة ومصطلحات تستمد صحتها الثقافية من غيرها من العلوم والمذاهب الفكرية"[2]، وتحت هذا الغطاء العلمي يدعي المستشرقون للدراسة الموضوعية لبلاد الشرق على أساس "العلوم العابرة للحدود" أو معرفة الآخر لتقويم الذات أو التبادل والتفاعل الثقافي من أجل

1- الاستشراق، محمد عناني،ص323

2 - المرجع نفسه، ص 323

الرقي الحضاري .. وهذه " الافتراضات الفضماضة"[1]، كما يسميها سعيد يختفي وراءها الهدف الامبريالي الاستعماري الذي يعتبر دور المستشرق، هو الدليل والمرشد في أرض الشرق، ليوضح له نقاط القوة والضعف والثغرات التي يكمن استثمارها ضد الشرق، لخدمة الغرب ومصالحه الاقتصادية والسياسية والثقافية.

ويقول سعيد أن الاستشراق عملة لها وجهان أحدهما يسمى "الاستشراق السافر، والآخر الاستشراق الكامن"، أو كما جاء في كتاب الاستشراق، ترجمة كمال أيوديب: "الاستشراق الظاهر" و "الاستشراق الخفي" والمهم أن الدلالتين في الترجمتين متقاربتين وتخدمان الغرض نفسه تقريبًا.

1- الاستشراق، محمد عناني،ص323

ويقول سعيد أن هناك رابطا متينا بين كل الباحثين في الاستشراق، وإذ ذاك، فإن كل الأعمال الاستشراقية استنادًا على هذا المنطلق من مفهوم الاستشراق الكامن:" فكل واحد منهم – المستشرقون – يحافظ على اكتمال انفصال الشرق، بغرابته وتخلفه، و"لامبالاته" الصامتة وإمكانية اختراقه الأنثوية، وإمكان تطويعه الذي ينم عن بلادة الحس"[1]، وهذه الاصطلاحات و التسميات التي يوصف بها الشرق في الحطاب الاستشراقي، أثرت أو بعبارة أخرى حفزت، وفتحت الشهية لتناول موضوع الشرق، الذي ربما – من المنظور الغربي– هناك دعاوى تروج لمقولة أن الشرق هو من يطالب بتناول أمره أو احتوائه. ليتخلص مما هو فيه: "وهذا هو السبب الذي جعل كل من كتب عن الشرق من رينان إلى ماركس –إلى أقوى المبدعين مخيلة (ممثل فلوبير ونرفال) يرى أن الشرق مكان يحتاج من الغرب أن يوليه اهتمامه، ويقوم بإعادة بنائه أو حتى "تخليصه"[2]. ومن دوافع هذا الاستشراق الكامن –كما يسميه سعيد –في ثنائياته. هو الاختلاف العرقي والادعاء بأن الجينات الوراثية للمجتمعات المتخلفة، هي من أكبر الأسباب التي عرقلت مسار التقدم والتطور لهذه المجتمعات على خلاف الغرب،"ذلك العرق الأبيض" الذي يحمل جينات الرقى والحضارة، وهذا ما انعكس على المجتمعات الغربية، ودفع بعجلة الحضارة أشواطا. يقول سعيد: "كانت الأطروحات الخاصة بتخلف الشرق وانحطاطه وعدم مساواته بالغرب ترتبط .. بالأفكار الخاصة والأسس البيولوجية للتفاوت العنصري، وهكذا، فإن التصنيفات العنصرية التي نجدها في الكتاب الذي وضحه كوفييه بعنوان "المملكة الحيوانية" وكتاب جوبينو: "مقال عن تفاوت الأجناس البشرية"، وكتاب روبرت نوكس بعنوان:(أجناس البشر السمراء) ، وجدت من الاستشراق الكامن شريكا يرغب في العمل معها"[3] وهذه بعض الأمثلة التي تدعم مفهوم المركزية الغربية، ليس في المعطى الثقافي وحسب، فحتى البيولوجيا هي الأخرى تدلي بدلوها في الموضوع، وتقدم بيانات أخرى من أجل إثارة الميز العنصري من خلال الدراسات العلمية التي تثق بها الذهنية

1 -الاستشراق، محمد عناني، ص 323

2 -المرجع نفسه، ص 324

3 -المرجع نفسه، ص 324

البشرية، بنسبة أكبر، مقارنة مع الدراسات الانسانية والأدبية. فها هو تشارلز روبرت داروين، صاحب نظرية النشوء والتطور، يدعم هذا التيار المعادي والعنصري:"ثم أضيف إلى هذه الأفكار مذهب داروينى من الدرجة الثانية، وكان فيما يبدو يؤكد ويبرز الصحة "العلمية" لتقسيم الأجناس البشرية إلى أجناس متقدمة وأجناس متخلفة، أو إلى أجناس أوروبية آرية، وأجناس شرقية إفريقية"[1]. وهذه إحدى منطلقات الاستشراق الكامن من ناحية العلوم المادية حتى ينطلي المشروع الاستشراقي ويكون محكم الخطاب ومتجانس ومتكامل الأجزاء، ويضيف سعيد معطى آخر، يزيد الأمر عمقًا وتجذرًا، فيما يخص: "أسوأ التأويلات الداروينية: أن بعض البشر يستحق الجهل والفقر والمرض، وفقا لأحكام حرية التجارة، فيما بشر آخرون، تستطاع قولبتهم بواسطة برامج المصانع الفكرية، وسياساتها، لتحويلهم إلى نخب جديدة"[2] ونلاحظ المصطلحات التي في عمومها تغدي الخطاب العنصري لداروين، وكل هذه الآفات التي يحددها في نصه من:" فقر، جهل، مرض.." ، أضاف إليها مفردة "يستحق"، أي أنها مكافأته التي يجب أن ينالها، بحكم أنه "من الأجناس المتخلفة"، وإن أبقى – داروين – على تصنيف "الشرقي" على أنه من السلالات البشرية على الأقل.

وهذه النظرة العامة، التي بصر من خلالها المختصون، وغيرهم- في دراسة الشرق كما يؤكد سعيد:"كانت النظرة إلى الشرقيين – التي جمع بينهم وبين سائر الشعوب التي كانت توصف إما بالتخلف أو الإنحطاط أو بعدم التحضر أو بالتأخر – تقدم في إطار يجمع بين الحتمية البيولوجية، والتوبيخ الأخلاقي والسياسي معًا"[3]. رغم الدعاوى المضادة التي كان يطلقها بعض الغربيين الدراسيين للشرق، ويسوق سعيد –في هذا الصدد– مقولة للكاتب " آلان بلوم" الذي يقدم نقده الموضوعي، قائلا: "لن أسمح أن يقال إن شيئًا أو إنسانا يفقد صفته الانسانية، ويسقط من الحساب نهائيا، لمجرد أنه ليس من أهلنا، أو لأنه ينتمي إلى تراث مختلف عن تراثنا، أو لأنه

1 -المرجع السابق، ص324

2 -إدوارد سعيد، الأنسية والنقد الديمقراطي، ص42

3 -الاستشراق، المرجع السابق، ص325

صادر عن منظور وتجربة مغايرين، أو صادر عن مسارات إنتاج مختلفة عن مسارات الانتاج عندنا، كما هو حال "صُّول بلُّو" في عبارته المرعبة في تعاليها: "جدوا لي قرينا ليروست بين قبائل الزولو"[1]. ومن هذه المعطيات نؤكد مرة أخرى على –" عدم براءة الخطاب الاستشراقي، وإن كان النص الأخير لآلان بلوم، يدعو، في ظاهره، إلى عدم إقصاء الآخر، في اطار البحث المعرفي، على الأثل، فإن السياق النصي لا يخلو من المركزية الغربية، فعندما نلاحظ العبارات الآتية: "أهلنا: تراثنا، عندنا .." ، نجد أن الأنا حاضرة بقوة، حتى في حالة تبني الموضوعية، وإن كان – آلان بلوم، أقرب إلى العدل في خطابه، فإن ذلك لا يعني إلا أن هذا الأمر "شاذ"، من المنظور الغربي عن أطروحة " الاستشراق الكامن". ويرى سعيد الموضوع من عدة زوايا، فبعد أن ساق لنا في كتابه الاستشراق أمثلة من العلوم البيولوجية، يواصل مسيرته النقدية مستدلاً على حقيقة الخلفية الاستشراقية، ولكن هذه المرة من منظور العلوم الاجتماعية: "وهكذا كانت الأذهان–الغربية–تربط ما بين الشرقي وبين عناصر معينة في المجتمع العربي (كالمنحرفين والمجانين والنساء والفقراء)، باعتبار أنها تشترك في هوية، أفضل ما توصف بها، أنها أجنبية أو غريبة، إلى حد جدير بالرثاء"[2]، وتحيلنا هذه الدراسات السابقة للقول أن معسكرًا من العلماء والكتاب والمفكرين والدراسين اجتمعوا، كل حسب تخصصه، من أجل رسم صورة متكاملة الجوانب، لشرق مفبرك حسب ما اتفقوا عليه. وهذا الشرق هو حامل لكل الآفات الدنيا، المادية والمعنوية. وصور موقف هؤلاء الغربيون بأنه كدور الطبيب الذي يحاول الحد من انتشار هذا الوباء العضال المستشري في الجسد والروح البشريين، إن جاز من المنظور الغربي أن يعتبر أهل الشرق بشرًا "ولكن المفكرين كانوا يبحثون أمرهم – أي الشرقيين – ويحللون أحوالهم، لا باعتبارهم مواطنين، أو حتى باعتبارهم بشرًا، بل باعتبارهم مشكلات تتطلب الحل أو فرض القيود، أو بسبب طمع الدول الاستعمارية، السافر، في أراضيهم وتولي أمرهم"[3]. وربما توقف عمق الخطاب الاستشراقي عند حد من الحدود،

1 -إدوارد سعيد الأنسية والنقد الديمقراطي، ص48

2 -الاستشراق، محمد عناني، ص 325.

3-المرجع نفسه، ص325.

لأن ذلك هو جهد المستشرقين في الخوض في هذا الموضوع، وليس اكتفاء أو رحمة بالشرق. إن الدافع لتدمير الشرق ثقافيا وروحانيا كان أسبق من الجانب المادي، المتمثل في الاستعمار، لذلك عمد المستشرقون إلى الترويج **ل:**" مجرد وصف شيء ما بأنه شرقي، كان يتضمن حكما سبق النطق به على قيمته السلبية والسيئة طبعا"[1].

ولهذا كان سعيد يدين –دائما– الخطاب الاستشراقي، وحتى بعض النصوص التي تدعي الموضوعية: "ينبني خطاب سعيد النقدي على رؤية وموقف واضحين، وهي أن النص ليس بريئًا. فهو يخص إيديلوجيات مناقضة لخصوصيته النصية الجماليّة البلاغية، ومن ثم فهو يرى أن النصوص، في النهاية، أشياء مادية، وليست مجرد فيض خالص يفض عن نظرية من النظريات"[2]. وبهذا النقد يقصف كل الدعاوى التي تتبناها البنيوية والشكلانية الروسية، التي تقول بموت المؤلف، وأن مضمون النص ودلالاته كامنة في الأنساق اللغوية داخل هذا النص، بصرف النظر عن المؤثرات التي تساهم في البناء الكلي لهذا النص، وبصرف النظر عن السياقات الخارجية. وبعدما يرفض سعيد أن تنحصر دراسته في الجانب اللغوي والبلاغي للنص، يلتفت إلى السياقات والخلفيات التي تعبد له طريق النقد للخطاب الاستشراقي "تأتي أهمية أن ننظر إلى النص، بوصفه حالة ثقافية، وليس قيمة بلاغية وجمالية فحسب"[3]. وإن كانت اللغة السطحية، والتراكيب البلاغية والجمالية لها دور فعال في تشجيع المقروئية وتغطية الخطاب المضمر بهالة من التعابير الأدبية الراقية والشاعرية أحيانا. يقول الدكتور رامي أبو شهاب: " النصوص التي أنشأتها المستعمر قد عملت على وضع الآخر وتآطيره ضمن بنية فكرية واجتماعية وسياسية ولغوية أسهمت في تذليل عقبة السيطرة والهيمنة بالتضافر مع عناصر تتمثل بالهوية، العرق، الجنس، النوع، اللغة، الجغرافيا.."[4]. وهذه العناصر المذكورة في النص على اختلاف تخصصاتها متعاونة –إلى درجة التناغم– على تمرير المشروع الامبريالي صاحب الحركية الوحيدة في الميدان، على خلاف الشرق المحسوب على الجمادات أو الأشياء، فكثيرًا من المستشرقين:

1-المرجع السابق، ص 325

2 -إدوارد سعيد تأملات في النفي، ط1 ص24.ص25

3 -الثقافة والإمبريالية، ص66

4 -رامي أبو شهاب: إدريس والمخاتلة" خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 2013، ص61.

"ينكر على الشرق وعلى الشرقي مجرد إمكان التطور والتحول والحركة الإنسانية، بأعمق معنى من معاني هذه الكلمة"[1]. لأن هؤلاء المستشرقين، ومن أبرزهم الكاتب الفرنسي "بيير لواس" يدعي أن "الشرق والشرقي يعتبران "صفة" معروفة وتتسم، آخر الأمر، بتجريدها من القدرة على الحركة والإنتاج، ومن ثم أصبحا يتسمان بتخصيصة تمثل لونا سيئًا من الخلود .."[2]. وفي هذا الوصف للتصور الشرقي، تكون المركزية الغربية حاضرة ومحورية في توجيه الخطاب، الذي يصف الشرق بالتبعية، والآخر، والتدهور: "فلقد كان الشرق –ولأسباب واضحة– دائما، ما يشغل مكان الكيان الأجنبي، والشريك الضعيف، الذي ألحق بمعية الغرب إلحاقاً"[3]. وجاءت العبارة مبنية للمجهول المعلوم، الذي لا داعي لذكره، مادام هو معروف من السياق. وطبعًا فقد ألحق الشرق بالغرب من طرف الغرب، على أن يكون هذا الإلحاق لا يمثل كونه جزءًا من الغرب، وإنما هو التابع الملحق والثانوي، الذي تم الاهتمام به من طرف الهيمنة الغربية، من باب الإنسانية ! ، وهي إنسانية المفترس مع الضحية.

وذلك بناء على معطيات مسبقة عن المشرق، يمتلكها الغرب، ويعمل وفقها دون مراعاة مصداقيتها و وثوقيتها، فكان المنظور الامبريالي يصنف الشرقيين والثقافة الشرقية "إما ظلالا صامتة، وعلى المستشرق أن يبث فيها الروح ويدخلها عالم الواقع، وإما ضربًا من الطبقة العاملة ثقافيا وفكريًا، التي تعود بالنشاط التفسيري الأعظم الذي يقوم به المستشرق، واللازمة له في عمله"[4]. باعتباره كما يرى نفسه ويصورها، دائما، انطلاقا من المركزية الغربية في تناول موضوع من المواضيع، خاصة إذا تضمن الشرق، الآخر، و إيمانا بـ "الأنا" التفوقي، " قاضيا أرفع مكانا، وعلامة، وإرادة ثقافية جبارة"[5]. وهنا تبرز هذه المحورية الغربية في أعمال المستشرقين، دون أن تعترض طريقها عوائق النقد، أو ما يسميه سعيد بالطباقية أو الجدليّة، فإنه يتوجب على المستشرق وهو يتحدث على الشرق أن يقوم بتغيير دور

1 -الاستشراق، محمد عناني، ص326.

2 -المرجع نفسه، ص 326

3- المرجع نفسه، ص 327.

4 -المرجع نفسه، ص.327

5- المرجع نفسه، ص 327.

الشرق، وهذا ما يسم هذه الأعمال. فإن المتحدث والناقد والواصف وصاحب السرد والحوار والخصم والحكم هو المستشرق نفسه. لذلك، وكما يقول سعيد: "وأنا أقصد أن أقول، إن مناقشات الشرق كانت تتسم بالغياب الكامل للشرق"[1]. وغياب الشرق "الكلي" بمثابة المتهم الذي تصدر في شأنه أحكام جائرة غيابيا، في المحاكم، دون أن يتم سماعه أو حضوره. وبالمقابل فإن المستشرق يحضر بقوة في الموضوع، ويعمل على إبراز أفكاره وأحكامه مستعملاً، النمط الحجاجي للدفاع عن أطروحاته ودعمها، وإقناع القارئ، قدر المستطاع، وأحيانا النمط الوصفي، من أجل تصوير الوضع السوداوي. وأنماط أخرى كالسرد والتفسير، والمهم في الأصل ما أشار إليه سعيد من أن: " المستشرق وما يقوله حاضران[2]". والسبب واضح وجلي "فيجب أن لا ننسى أن الذي يمكن للمستشرق من الحضور، هو الغياب الفعلي للشرق"[3]. والخلاصة يصورها سعيد في أعمال ثيودور نولدكة الذي كان "حاصل مجموع عمله كمستشرق كان تأكيد: (نظرته التي لا تُجلي من شأن الشعوب الشرقية.. ، وكان السبيل الغريب لإظهار حبه لليونان، يتمثل في إظهار نفوره الفعلي من الشرق"[4]. وكأن الأمر كله لا يعدو أن يكون إظهارًا للذات وطمسا لمعالم الآخر. وهذا، أولاً، من الناحية النظرية التي مهدت بكل إمكاناتها وطاقاتها للجانب التطبيقي المتمثل في المد الاستعماري، وتسابق القوى الامبريالية لاقتسام الشرق "ولم يكن اختراق الشرق مجرد فكرة طارئة مفاجئة مثيرة خطرت للغرب بعد سنوات من الدراسة العلمية لآسيا"[5]. يشير سعيد أنه لا مجال للصدفة في تبني المشروع الاستشراقي الاستعماري، ولكن الموضوع أخذ من الدراسة الجادة، واستخلاص النتائج من خلال البحث والتجربة في عالم الشرق، حظا وافرًا وجهدًا عظيما، إضافة إلى الوقت المبذول في سبيل ذلك "فالواقع أنه لابد من التسليم بوجود خطوات كثيرة تتسم بطول المدى وبطء الحركة أدت إلى امتلاك الشرق"[6]. وبصورة أعمق وأكثر

1- الاستشراق، محمد عناني ص 327

2 -المرجع نفسه ، ص 327

3-المرجع نفسه ، ص327

4-المرجع نفسه، ص 320

5-المرجع نفسه، ص331

6-المرجع نفسه، ص 331

وضوحًا يضيف سعيد مبرزًا العملية الانتقالية أو الانعكاسية من عالم الكتابة النظري إلى مجال التطبيق العسكري، وميدان الحرب الاحتلالية "مكنت الوعي الأوروبي بالشرق من التحول من وعي يقوم على النصوص والتأمل إلى ظاهرة إدارية و اقتصادية بل وحربية"[1]

1- الاستشراق، محمد عناني، ص 330.

إن هاتين المؤسستين الاستيطانيتين اقتسمتا الشرق وإفريقيا لمدة جاوزت القرن بكثير. وهذا التراكم الاحتلالي ترك آثارًا بليغة في الثقافات المحلية "وأدى الأثر التراكم لعقود من هذه السيادة الغربية الكاملة في تناول الشرق إلى تحويل الشرق من مكان أجنبي إلى مكان استعماري"[1]. وكل هذه الانجازات التي بذلها الغرب من أجل احتواء الجغرافيا الشرقية لم ترق إلى اهتمامه كثيرًا، بقدر ما يكتشفه من سرور جراء نجاح مخططه، وبالجملة فإن سرور الغرب أهم من احتوائه للشرق: " إذا كان الغرب قد نجح حقا في اختراق الشرق وامتلاكه، فلم يكن بالأمر المهم في أواخر القرن التاسع عشر، بل كان الأمر المهم هو كيف كان بريطانيون والفرنسيون يشعرون أنهم نجحوا في ذلك"[2]. في إشارة إلى الغرور البريطاني وتصويره لإحساسه النفسي على أنه أجلّ عنده من احتلال الجانب الشرقي من الكرة الأرضية.

يقول كرومر في خطاب يشي وبأبعاد التغلغل الغربي في الشرق: "إن البلد الذي تهب عليه أنفاس الغرب المحملة بالتفكير العلمي ذات يوم، وتترك فيه أثناء هبوبها أثرًا باقيا، لا يمكن أن يظل على حاله السابق أبدًا[3]. في إشارة واضحة إلى الخطاب السلطوي المهيمن الذي يفرض دلالاته على الثقافات المحلية، هذا إن لم نقل أنه يزيحها بالكامل ليحل مكانها، وهذا: "رأي استشراقي موغل في القدم، لايسمح للعرب أن يمارسوا حقوقهم في تقرير المصير كأمة، وينظر إليهم كأناس متخلفين، غير قادرين على فهم المنطق وقول الحقيقة، وفي جوهرهم فوضويون ومجرمون"[4]. ويواصل مرور خطاب السلطة والهيمنة، ليقول في أحد المؤتمرات أننا "نحن": " نتولى التدريب هنا، ونرسل إليكم حكامكم ومديريكم، وقضاتكم ومعليمكم ووعاظكم ومحاميكم"[5]. وذلك من أجل تأطير عالم الشرق

1-المرجع نفسه، ص(330-331)

2-المرجع نفسه، ص331

3-المرجع نفسه، ص334

4- إدوراد سعيد، خيانة المثقفين: النصوص الأخيرة، ترجمة: حسين أسعد، دار نيفوى للدراسات والنشر التوزيع، سورية، دمشق،2011،ص52

5 -الاستشراق، محمد عناني، ص 334

المهمش ذاتيا لزرع ثقافة غربية "تضمن" استمرارية التبعية لها من طرفهم، كما يصور اللورد كيرزون العلاقة بين بريطانيا والشرق:"باعتبارها علاقة امتلاك ، ومن حيث تصور وجود مساحة جغرافية هائلة يمتلكها "سيد" استعماري ذو كفاءة "[1]. لم يقل احتلال و استيطان ونهب وسلب وإنما وظف مفردة "امتلاك"، من طرف "سيد" والذي وسمه بأنه "ذو كفاءة"، وربما عامل الكفاءة خول له أن يحتوي هذه "المساحة الجغرافية الهائلة"، التي ربما تفتقر أو حسب نظره تحتاج وتستنجد "بالسيد الكفاءة فقال – اللورد كيرزون – في إحدى المناسبات: " أنه لا يعتبر أن الامبراطورية "مسألة طموح"، بل يعتبرها، أولاً وقبل كل شيء، "حقيقة تاريخية وسياسية واجتماعية عظمى"[2]. ونصوص اللورد كرومر واللورد كيرزون تذكرنا يقول الفيلسوف الألماني فريديريك نيتشه: "حيث يصنع السادة فضائل يصبغون عليها هالة من القداسة، يصدقها الناس، وهي تحمل في جوهرها نقيض معانيها الأصلية، فهي أخلاق منتخبة تعبر عن أخلاق السادة ومصالحهم، قبالة مصالح العبيد"[3] مسايرة للنصوص "الأخيرة" فإن نبرة التعالي بارزة إلى درجت أنها حجبت الدلالات الأخرى لأن الرسالة التي يود تقديمها هؤلاء من أمثال كرومر وكيرزون، ومن شاكلهما، هي في الحقيقة حب الظهور بمظهر العظمة والسيادة على الآخرين – الشرقيين– وبما أن ممثلي بريطانيا المذكورين يرون أنهما و أضرابهما، من طلائع الإمبراطوريات الغربية المهيمنة على العالم، فإن ذلك يسوغ لهم أن يظهروا بهذه الصورة "العجائبية"، ويكون خطابهم موازيًا لمشاريعهم الامبريالية، امتثالا للمخطط الاستعماري في تلقين السكان الأصليين، العاجزين عن التلقين الذاتي، ما يصلح لهم في إطار نشر الحضارة والديمقراطية "كان حجر الزواية للنظام كله يتمثل في معرفة الشرق، معرفة ما تفتأ تخضع للتشذيب والتهذيب، حتى لا يؤدي التعجيل بتقدم المجتمعات التقليدية والتحول إلى مجتمعات تجارية حديثة إلى فقدان جزء من السيطرة

1-المرجع السابق، ص 334.

2- المرجع السابق ،ص 334.

3- فارس عزيز المدرس وزاهدة محمد الشيخ الخطاب – مجلة آداب الرافدين – العراق – العدد 60، سنة 2011.

البريطانية الأبوية، أو إلى فقدان جزء من الدخل"[1]. هذه المعرفة ذات خلفية حضارية بالدرجة الأولى فالجانب المادي البريطاني يستمد استمراريته من "نفقات" الشرق، أو يعتبر آخر الثروات المنهوبة من هناك التي كانت دائما هي عصب الحياة في بريطانيا والدول الاستعمارية الأخرى، و لذلك تريد بريطانيا البقاء الأبدي بشكل أو بآخر في بلاد الشرق وإن ظهر غير ذلك علنا إلا أن المعطيات تؤكد هذا يقول اللورد كيزون:

" الشرق جامعة لا يحصل الطالب فيها على درجته أبدًا" ويضيف سعيد معقبًا: " تعبيرًا آخر عن أن الشرق يتطلب الوجود البريطاني فيه إلى الأبد تقريبًا"[2]. وهذا ما حمله الخطاب الاستشراقي، ومن هذا المنظور فإن: "الاستشراق بالنسبة إلى الشرقي هو المعرفة المؤثرة والفعالة التي أوصلته نصيًّا إلى الغرب، والتي احتله الغرب وحلب موارده و اضطهده إنسانيا بمساعدتها"[3]. فبمساعدة هذه الثروات والخبرة في تسييرها، استطاع الاحتلال البريطاني والفرنسي وغيرهما احتواء الشرق، عقودًا من الزمن، واضطهاده وتفقيره، بنهب ثرواته وحرمانه منها، ثم تلقينه الثقافة الانهزامية وخطاب الهيمنة الذي يلزم الشرق بأن يكون خادما طيعًا، وتابعا للغرب في شتى المجالات .. لذلك فإن الاستشراق "ينطوي على وجود نظري وعملي، وهو ليس مجرد منسق معرفة فقط، إنه تدخل وإعادة توزيع ورسم للحدود، ومن ثم فهو أسلوب للهيمنة والسيطرة وإعادة البنية، ولم يجانب سعيد حينما قال: " بدا لي من الحمق أن أحاول سرد تاريخ موسوعي للاستشراق"[4]، فما يهمه في الاستشراق هو "الخطاب" أو "نظام الخطاب" إذا جاز عنوان ميشيل فوكو الذي مارس تأثيرا جَليا داخل الكتاب – الاستشراق"[5]، وقد عرف هذا المنهج الدول الاستعمارية الكبرى خلاف بريطانيا وراحوا يجسدونه –كل في موقعه الاحتلالي – "بعض الدول الأخرى وكان من بينها فرنسا وروسيا، كانت تمثل تهديدا – (وربما هامشيا) للوجود البريطاني"[6]. التهديد في مجال اقتسام

1- الاستشراق المرجع السابق ، ص336

2 المرجع نفسه ص336

3 ادوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، تر: ناشلة فلسفي حجازي، دار الآداب بيروت .ط1.2008.ص50

4-الاستشراق – محمد عناني ص63

5-حي وليد: خطاب ما بعد الاستعمار – مجلة الكلمة – العدد 16.2008.ص03

6- الاستشراق محمد عناني ص 337

الثروات، وفي مدى التأثير الخطابي على الجماهير من السكان الأصليين لضمان استمرار ولائهم و ولاء حكامهم، خاصة الذين هم ممثليهم لدى القوى العظمى " فلقد حاول إدوارد سعيد أن يتصور الشرق مرآة الغرب ومخياله بتوصيفه شرقا متخلفا مغلوبا على أمره، رومانسيا غير عقلاني. أرض العرب هذه هي أرض المعجزات والنبوءات هو شرق يعيش تحت الهيمنة الذكورية، وينبغي السيطرة عليه. فهو الشرق الأنثوي بامتياز مادام نهمه يركز على مفردات أنثوية بلا حقوق ولا قوانين ولا أمن، والمعنى الجلي هو هيمنة الغرب الخطابية والعملية على حد سواء"[1]. والعملية بمفهومها الواسع هي الاستعمارية الاحتلالية، أي العمل الميداني لاحتلال الشرق عسكريا و إخضاعه للغرب. أما الجانب الخطابي فهو التأثير الثقافي، واستعمال لغة الاحتواء والاستقواء "فالنصية هي الوسيلة التي استخدمها الغرب من أجل بسط نفوذه و هيمنته وسلطته على شرق رأى فيه الضعف والانحطاط والخرافة والاستعباد .. إلخ. انطلاقا من قوة وتعال للأنا الغربية، التي لا ترى غير القوة في ذاتها، وما دون ذلك، هو الآخر"[2]. وهنالك خصائص أخرى للاستشراق الكامن، والمتمثلة في الجانب أو الحيز الجغراف،ي الذي له كبير الدور في المحلية الاستيطانية، وما تليها من ضم الأقاليم إلى المستعمر، ونهب الثروات، والاستفادة من التضاريس والمناخات. لصالح القوى الكبرى، مع حرمان السكان الأصليين، ولهذا يركز المستشرقون على دراسة الجغرافيا، وهي العنصر المشترك، الذي لا يمكن للإستراتيجية الكامنة في الاسشتراق والمحركة له أن تستغني عنه: "بمعنى أن جميع الخصائص الكامنة التي لا تتغير للشر،ق تقوم على طبيعته الجغرافية، وتضرب بجذورها فيها، وهكذا نرى أن الشرق الجغرافي من ناحية، "يغذي" سكانه، ويضمن صفاتهم الأساسية ويحدد طابعهم الخاص، ومن ناحية أخرى يطلب من الغرب الاهتمام به، حتى لو كان الشرق هو الشرق، والغرب هو الغرب"[3]. هذه الجُغرافيا المغرية والتي فتحت الشهية للغرب وكانت إحدى الركائز في الدراسة الاستشراقي، بما تحمله من خطابات لغوية رائقة، تنم عن مدى تأثر المستشرقين والكتاب الأوروبيين بالإقليم الشرقي. ولا دل ذلك من اعتراف "مارلو" وهو إحدى

1 - آمال علا وشيش. ما يعد الكولونيالية. خطابات ال " ما بعد ". استشراق وتقديم على عبود المحمداوي. منشورات الاختلاف. الجزائر، ط1، 2013، ص46

2 - سعيد طيباوي. ادوارد سعيد والخطاب الاستشراقي. مركز الدراسات والأبحاث العلمية في العالم العربي . 31-01-2015. ص02

3 - الاستشراق - محمد عناني ص338

الشخصيات في رواية "قلب الظلام" للكاتب جوزيف كونراد، الذي أسهب في التعبير عن عشقه للجغرافيا، والمخطوطات التي تحمل للخرائط، يقول مارلو: " ربما قضيت ساعات أتأمل أمريكا الجنوبية، أو إفريقيا أو أستراليا، فأنسى نفسي، فيما يغمرني به الاكتشاف من أمجاد، وفي ذلك الوقت، كانت خريطة الأرض مليئة بالفجوات، فإذا شاهدت "فجوة" ذات إغراء خاص (وإن كانت جميعا تبدو مغرية) وضعت إصبعي عليها، وقلت 'عندما أكبر سأذهب إلى هنالك'."[1] وبدا موضوع الجغرافيا أمراً مهما للغاية بعد أن كان مجرد دراسات أكاديمية فجة، لأنه تبين من خلال دراسة الجغرافيا، من المنظور الجديد تنفتح آفاق لم تكن لتظهر بالطريقة نفسها لو تمّ الحفاظ على النمطية والروتين، الذي يملأ هذا الحقل الدراسي "كان تحويل الجغرافيا من مادة 'مملة متحذلقة' – وهما الصفتان اللتان أطلقهما كيرزون على الجوانب التي تخلصت منها الجغرافيا، باعتبارها دراسة أكاديمية – إلى "أشد العلوم تحررًا من القيود القومية"، يؤكد على وجه الدقة، ذلك الولوع الغربي الجديد الواسع الانتشار."[2] وبناء على هذا، فإن الحقل الدراسي المذكور أخذ حظا وافرًا من اهتمام ونشاط النصوص الاستشراقية لدرجة أن مفردة "جغرافيا"، أو "أقاليم"، وما إلى ذلك من المصطلحات التي تدور في الحقل الدلالي نفسه، لها وقع خاص في الخطاب الاستشراقي إن لم نقل أنها محور هذا النشاط المعرفي النصي والعملي. وكان الدافع الذي صوب اهتماماته إلى الجغرافيا يدلي بشكل أو بآخر أن الاهتمام بدراسة الجغرافيا، يوازيه اهتمام بامتلاك الجغرافيا، وهذا هو المقصد، فصاحب التجربة الخابرة هو سيد الموقف الذي يسيطر على التضاريس والأقاليم، بعد أن وعاها نظريًّا من خلال نصوص الاستشراق دون مراعاة للسكان الأصليين:" ولم يخطر ببال إمير دي فاتيل. البروسي السويسري الذي كان حجة في القانون الدولي، أي تحفظ من الناحية النظرية حين دعا الدول الأوربية في عام 1858 م، إلى امتلاك الأراضي التي لا تسكنها إلا قبائل رحّل وحسب"[3]، ويضيف سعيد معقبا: "كان المهم هو إعلاء شأن الغزو الصريح بتحويله إلى فكرة، أي تحويل شهية الحصول على المزيد من الحيز الجغرافي إلى نظرية عن العلاقة بين الجغرافيا من ناحية وبين

1 - المرجع نفسه ص338
2 - الاستشراق - محمد عناني ص337
3 - المرجع نفسه ص338

الشعوب المتحضرة أو غير المتحضرة من ناحية أخرى."[1]، وكان لفرنسا الاستعمارية دورًا هاما في هذا الصدد، إذ هي الأخرى، بالوزارة مع بريطانيا كانت تنشد التوسع الجغرافي. لهذا اهتم الدارسون والمستشرقون الفرنسيون بالجغرافيا في أعمالهم.

وجاء اهتمام إدوارد سعيد، بالسياق المؤثر في النص، مع تركيزه على الجانب "البيئي" الذي، بدوره، يساهم في خدمة النص الأدبي. فلا يمكن، بحال، فهم الدلالات الأدبية بمعزل عن الجانب البيئي الذي ترعرع فيه "هذا الفهم – الأدبي – تعمق أكثر من خلال الاهتمام بالجغرافيا، وانعكاساتها على الأدب، ... وكشف سعيد أن المفهوم الأكثر ارتباطا في تفسير الأشكال الأدبية هو الجغرافيا، لما لها من أثر في تكوين هذه الأشكال"[2]. ويركز سعيد على ميدان الجغرافيا في كتابه "الثقافة والامبريالية"، الذي يعتبر الجزء الثاني أو المكمل لكتابه الاستشراق، ويرتبط مفهوم الجغرافيا بالمفهوم العالمي العابر للحدود، الذي لا تحده مساحات معينة. إذ هو أوسع من ذلك:"نحتاج أن ندرك أن المشهد العالمي المعاصر أقاليم متداخلة وتواريخ متواشجة، كان قد نوقش وشخص مسبقا في تطابقات وترادفات بين الجغرافيا والتاريخ و الثقافة، وهي تطابقات وترادفات كانت بالغة الأهمية بالنسبة لرواد الأدب المقارن"[3] ويستدل سعيد بأعمال أستاذه أنطونيو غرامشي، الذي هو الآخر أعطي اهتماما خاصا بمجال الجغرافيا في الدراسات الإنسانية: " أما بالنسبة لغرامشي، فإن التاريخ الاجتماعي والواقع، كما يمكن لمحض فحص عاجل لمفرداته التصورية أن يجلو فورًا، يدركان في إطار معطيات جغرافية، إذ تطغى في عمله كلمات مثل" المنطقة" "الأرض"، "الكتل"، "الأقاليم"[4]. لقد أصبحت الجغرافيا سندًا ودعامة لمختلف العلوم الإنسانية، وخرجت من قوقعة المواد الأكاديمية ودراستها العامة لتصل إلى مرحلة يصفها سعيد بقوله: "إننا لا نعدو أن نكون في مرحلة

1 - المرجع نفسه ص338
2 - موريس أبو ناصر: التنوير في إشكالاته و دلالاته، الدار العربية للعلوم "ناشرون" – ط1، ص230
3 - الثقافة والامبريالية ص116
4 - لثقافة والامبريالية ص116

ينبغي علينا فيها أن ننظر إلى التواتر المذهل للافصاحات الجغرافية في الثقافات العربية الثلاث التي بلغت أعلى قدر من السيطرة على أماكن نائية"[1].

ومن خلال دراسة الاستشراق البريطاني نرى وفرة الحقول المعجمية التي تصب في مجال الجغرافيا وتعتبر الركيزة الأساس لأن الاستشراق لا يقوم بمهامه خارج الإطار الجغرافي، فنظريات الاستشراق تنتظر التوسع الجغرافي تحت غطاء الأبوية البريطانية على الشرق. ولكن هذه الأبوية ذات اتجاه واحد، هي حقوقها تجاه من تبنتهم. وهذه الأبوية تنهب ما تراه حقوقها، وليس لها واجبات إلا القمع والاحتواء وخطاب السلطة، وبهذا تكون قد انزاحت عن المدلول الاجتماعي لهذه التسمية، واستبدلت بمفهوم آخر يواكب مشروعها السلطوي غير المحدود. يقول سعيد:"فلقد أصبح الشرق، منذ أيام –وليم جونز– المكان الذي تحكمه بريطانيا، والموضوع الذي تعرفه, وهكذا اكتمل التوافق بين الجغرافيا والمعرفة والسلطة. مع استمرار بريطانيا في اتخاذ موقع السيادة دائما"[2].

وفي إشارة ضمنية إلى استمرارية السلطة البريطانية على الشرق، يقول _كيرزون_:

"الشرق جامعة لا يحصل فيها الطالب على درجته الجامعية أبدا"[3].

ويشير سعيد أن المقصود من هذه العبارة أن: "الشرق يتطلب الوجود البريطاني فيه إلى الأبد تقريبا"[4].

إن الشرق التصقت به خصائص ثابتة عن طريق الاستشراق وتدْخل في الخصائص الكامنة التي تناولها _الاستشراق الكامن_ وقد شرقن نفسه إلى حد ما، وساير الخطاب الامبريالي، إضافة إلى الظروف التي وافت النهضة الأوربية:"فبحلول القرن التاسع عشر، كان اتفاق الظروف السياسية والفكرية في فرنسا، قد بلغ الحد الذي أتاح للجغرافيا أن تصبح موضوعا جذابا لتزجية الوقت على المستوى القومي، وكذلك التأملات والمضاربات

1 - الثقافة و الامبريالية ص120
2الاستشراق - محمد عناني ص236
3الاستشراق - محمد عناني ص 336
4الاستشراق - محمد عناني ص336

الجغرافية. فلقد كان المناخ الفكري في أوربا ملائما، ولا شك أن النجاحات الامبريالية البريطانية كانت تفصح عن نفسها بأعلى صوت ممكن"[1].

وهكذا ارتبطت الجغرافيا بالامتداد الاستعماري حتى تأسست الجمعيات التي تعنى بدراسة الجغرافيا:"حتى قال أحد المتحمسين لذلك: (إن الجمعيات الجغرافية قد تشكلت لإبطال مفعول التعويذة السحرية التي تغلنا بأصفادها شواطئ بلدنا)[2].

ويجمل إدوارد سعيد مفهوم الاستشراق الكامن، ودوره بقوله: "عندما تحدث بلفور في مجلس العموم البريطاني عام 1910، كان يعتمد، ولا شك، على تلك الطاقات التعبيرية للغة عصره الشائعة والمقبولة عقلانيا، وهي التي تتيح إطلاق اسم _شرقي_ على شيء ما، والحديث عنه دون المخاطرة بالوقوع في غموض أكثر مما ينبغي"[3].

بلفور في خطابه يستمد طاقاته التحفيزية ،التي يمكن استنباطها من سياق هذا الخطاب، الذي يلقيه في المجلس العمومي، وفي جل حالاته تكمن حيويته باستعانته بالخطاب الاستشراقي _الكامن_ بأنه: (الاستشراق الكامن شأنه شأن جميع الطاقات التعبيرية وضروب _الخطاب_ التي تتيحها، كان في أعماقه محافظا إلى حد بعيد، أي يحاول جهد الطاقة الحفاظ على ذاته، وكان ينتقل من جيل لجيل، باعتباره جانبا من جوانب الثقافة. وباعتباره لغة خاصة بظاهرة من ظواهر الواقع مثل الهندسة أو الفيزياء. وكان الاستشراق يرهن وجوده لا بانفتاحه أو مدى تقبله للشرق بل باتساقه الداخلي والمتكرر بشأن إرادة التسلط على الشرق. وهي الإرادة التي كانت من مقوماته. هكذا تمكن الاستشراق من البقاء)[4].

إذن الاستشراق الكامن يتمثل في الشحنة التي يبثها في الخطاب الامبريالي، والسند الذي يرتكز عليه والمتمثل في فكرة: (إرادة التسلط على الشرق). إنه مشروع نظري خفي يوجه دلالات الخطاب الظاهر باتجاه إرادة التسلط :

1 - الاستشراق - محمد عناني ص339
2الاستشراق . محمد عناني ص 341
3الاستشراق. محمد عناني ص 346
4الاستشراق. محمد عناني ص346

(إذا كان الاستشراق خطابا، عندها يجد أحد وظائفه التأسيسية هو ما يسميه فوكو _الصيغ العيارية_ وهذه هي قواعد التشكيل الخطابي التي تحدد من يتحدث والسلطة التي يتحدثون بها. والموقع المؤسسي الذي يتحدثون منه، وكلها مواقع للذات، المتكلم، المخاطب، المفوض وغير المفوض. التي يمكن للشخص احتلالها. ففوكو يريد أن يتخلى عن أي محاولة لوصف الخطاب على أنه تعبير عن الذاتية، فبدلا من التعبير عن الأنشطة التركيبية للذات التأسيسية، تعد التعابير اللفظية شيفرات لحقل تنظيمي لمختلف المواقع الذاتية)[1].

إن فوكو بهذه النظرة يلهم سعيد ويغذي مشروعه الاستشراقي، ولكن سعيدا جاوز هذا المفهوم الخطابي أحادي النظرة، إذ أن خطاب السلطة المهيمن والقوي، الذي يفرض ذاته على الوجود لا يمكن التوقف عند أبجدياته دون النظر إلى الخطاب المعاكس، أو كما يسمى (خطاب الرد) الصادر عن الشرق. وهنا يبرز المشروع السعيدي بهذه الخاصية التي يمكنها أن تلعب دورا محوريا في توازن خطابي، يعدل من امبريالية الخطاب الاستشراقي ويفكك دلالاته السياقية.

ويقدم سعيد صورة واضحة عن علاقة الاستشراق الكامن بالاستشراق السافر المتعدد التوجهات والدراسات، فيقول: (أبرز صور التلاقي بين عقائد الاستشراق الكامن، وخبرة الاستشراق السافر فلم تشهدها فترة مثل فترة تطلع بريطانيا وفرنسا إلى تمزيق الأراضي التابعة لتركيا..)[2]

حيث تظهر تضارب المصالح بين الامبراطوريتين. فكل دولة كان لها مخطط خاص(الامتلاك المحموم لجغرافيا الشرق) ولو أن الدافع كان موحدا أو مستمدا من الاستشراق الكامن. وحتى أن كل مستشرق كان يتميز بخصائص وإيديولوجيات ومنظور مختلف...

1 - وليام.د.هارت. إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية للثقافة. تر::قصي انورالذبيان هيئة أو ضبي للثقافة والتراث (كلمة). أبو ضبي ط1، 2011. ص 103_104

2الاستشراق - محمد عناني ص348

وهناك تمييز يضعه سعيد حتى يرسم الحدود بين الاستشراق الكامن الذي سبق ذكره والاستشراق السافر أو الظاهر وهو الذي يتفرع ويتأقلم، وكذلك يتأثر بالمستجدات والأحداث. ومن هذا المنطلق فإن الحركية والتغير من سمات الاستشراق السافر بخلاف الاستشراق الكامن، الذي يمكن اعتباره الخلفية أو المرجعية لكل الاستشراق: (إن التمييز الذي أقيمه حقا تمييز بين مذهب وضعي إيجابي، يكاد يمارس دون وعي (وإن كان قطعا لا يقبل المساس به) وهو الذي أطلق عليه هنا تعبير الاستشراق الكامن، وبين شتى الآراء التي عبر من عبر عنها، عن المجتمع الشرقي بلغاته وآدابه وتاريخه. ودراساته الاجتماعية وهلم جرا. وهو ما سوف أسميه الاستشراق السافر. ونحن نجد أن أي تغيير يحدث في المعرفة بالشرق يكاد يقتصر على الاستشراق السافر، أما الاجتماع والاستقرار والاستمرار في الاستشراق الكامن، فهي خصائص ثابتة تقريبا)[1]

إن المستشرقين تتعدد مشاربهم ومرجعياتهم وتجاربهم، إلا أن الانطلاقة كانت ثابتة ومستقاة من الاستشراق الكامن، ثم أن سبلهم مختلفة في تحصيل ثقافة الشرق، وتصوير هذا المجتمع المتخلف بعيون ذاتية، تنم عن التأثر البالغ بالاستشراق الكامن، والذي لا يختلف فيه القدامى والمحدثون من المستشرقين.

وما دام الانطلاقة واحدة (الاستشراق الكامن) ، فإن الهدف المنشود هو الآخر موحد بين جل المستشرقين، وهو تغذية المشروع الامبريالي من خلال رسم ما يسمى ب (خارطة الطريق) أمامه، حتى يسير وفق معالم توجيهية من أجل ربح الوقت، ومن جهة ثانية، السيطرة، عن طريق التأثير، وإقناع الشرق بشرقنة نفسه.

1الاستشراق - محمد عناني ص323

*-الميكيافيلية: توظيف المكر والازدواجية (الخداع) في الكفاءة السياسية،أو في "السلوك العام"وهو أيضا مصطلح يعبر عن مذهب فكري سياسي او فلسفي يمكن تلخيصه في عبارة "الغاية تبرر الوسيلة" وينسب إلى الدبلوماسي الكبير والكاتب **نيكولو ميكيافيلي** (1469-1527) الذي عاش في عصر النهضة الإيطالية.و كتب عن هذا المذهب في واحد من أمهات الكتب الغربية **الأمير** (بالإيطالية -PRINCIPE) كما كانت له أعمال فكرية أخرى.

نقلا عن الأنترنت الموقع : ميكيافيلية /ar.wikipedia.org /wiki/

وهذا التوحد بين الاستشراق الكامن، والهدف الاستعماري المنشود لا يتعارض مع اختلاف المستشرقين في سبيل الوصول إلى الهدف المتفق عليه أخيرا، إذ: (الغاية تبرر الوسيلة)[2] كما يقول نيكولو ميكيافيلي، وهذا الاختلاف بين الأطراف قد يعمل على تكامل الرؤى وشموليتها واحتوائها للمشهد الثقافي بمختلف أبعاده: (فالفوارق بين الأفكار الخاصة بالشرق عند كتاب القرن التاسع عشر الذين تناولتهم بالتحليل في الفصل الثاني تقتصر على الفوارق السافرة، فهي فوارق في الشكل وفي الأسلوب الشخصي، ونادرا ما تمس المضمون الأساسي فكل واحد منهم يحافظ على اكتمال انفصال الشرق، بغرابته وتخلفه ولامبالاته الصامتة، وإمكانية اختراقه الأنثوية، وإمكان – تطويعه– الذي ينم عن بلادة الحس)[1].

هذا المشترك الدلالي لمفهوم الاستشراق نتج عنه خطاب استشراقي موحد السياق، فالنص الغائب في الخطاب الاستشراقي يمت بصلة وطيدة إلى الاستشراق الكامن، ليوجه الاستشراق السافر، مع اختلاف توجيهاته، نحو الهدف الاستعماري المتفق عليه في كواليس الامبريالية.

ولهذا يحذر سعيد في آخر كتابه (الاستشراق) من الوقوع في فخ شرقنة الشرق لنفسه، وهنالك فخ آخر يحذر منه سعيد هو ما يسمى ب: الاستغراب، أي محاولة المضي في الاتجاه المعاكس للاستشراق, وحتى لا يقع المرء في هذه الهفوات والأغلاط يجب أن يحمل رصيدا معرفيا عن الذات، من المشارب الصافية، وكذلك عن الآخر من المصادر الموثوقة. يقول هانس جورج جادامير: (يكون من يحاول أن يفهم أحد النصوص، كامل العدة لتلقي ما يخبره هذا النص به، ولهذا السبب يجب أن يكون العقل المدرب على التفسير والتأويل رهيفا، منذ البداية، تجاه ما يحويه النص من جدة، وهذا نوع من الرهافة لا يتطلب الحياد بالنسبة لمادة الموضوع، ولا إلغاء ذات المفسر، لكنه يتطلب أن يتمثل المفسر تمثلا واعيا لمعانيه القبلية الخاصة، وتحيزاته) [2].

1الاستشراق - محمد عناني ص342
2الاسلام الأصولي ص128

إذن لا يمكن إغفال خلفية الخطاب النصي، وقراءة ما بين السطور، لأن الجانب البلاغي والأسلوبي لا يعدو أن يكون واجهة جمالية لخلفية مقيتة، كانت أحد أهم الأسباب لتقديم سعيد مشروعه على هذه الشاكلة: (وبسبب ما عددته من الأسباب الوفيرة في هذا الكتاب، وفي كتابي الاستشراق، فإن معرفة الاسلام والشعوب الاسلامية نشأت وترعرعت، لا من الهيمنة والمواجهة فحسب، وإنما من الكراهية الثقافية أيضا. ونجد اليوم أن الإسلام يعرف تعريفا سلبيا على أنه في موقع التناقض الجذري مع الغرب، ينبثق من هذا التوتر إطار يحد جذريا معرفة الاسلام)[1].

فهذه الشائعات التي ألصقها المستشرقون برداء الشرق آمنوا بها، إلى درجة أن بناء منظورهم وتصورهم الكلي عن الشرق لا يخرج عن إطارها، فالنظرة البائسة السوداوية انطبعت في الذهنية الغربية، مما أدى إلى النتيجة العامة عن الشرق: (وهذا هو السبب الذي جعل كل من كتب عن الشرق من رينان إلى ماركس (من الزاوية الأيديولوجية)، أو من أشد الباحثين صرامة (مثل إدوارد، ولين، وساسي) إلى أقوى المبدعين مخيلة مثل فلوبير، ونرفال، يرى أن الشرق مكان يحتاج من الغرب أن يوليه اهتمامه، ويقوم بإعادة بنائه أو حتى (تخليصه)[2].

وهذه دعوى صريحة إلى تشجيع المد الاستعماري، وتسويغ تدخله في الشرق، تحت غطاء (المخلص والمنقذ) فالاستشراق ينطوي على وجود نظري وعملي، وهو ليس مجرد نسق معرفة فقط, إنه تدخل وإعادة توزيع ورسم للحدود.. ، ومن ثم فهو أسلوب للهيمنة والسيطرة وإعادة البنية, ولم يجانب سعيد حينما قال: (بداعي من الحمق أن أحاول سرد تاريخ موسوعي للإستشراق)، فما يهمه في الاستشراق هو (الخطاب) أو (نظام الخطاب) إذا جاز عنوان ميشيل فوكو الذي مارس تأثيرا جليا داخل الكتاب)[3].

وإذا كان الاستشراق خطابا، فإن سعيد يعمد على تفسير مشروعه الاستشراقي، وقد اختزل ذلك في كتابه تعقيبات على الاستشراق، الذي أراده أن يكون تكملة لبعض النقاط التي لم يتم تناولها بالقدر الكافي، أو تم

1الاستشراق - محمد عناني ص 324
2يحي وليد استشراق إدوارد سعيد في المغرب. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. الرباط. المغرب،.
3خطاب ما بعد الاستعمار, مجلة الكلمة، العدد 16_ 2008_ ص03

إغفالها في كتاب الاستشراق. يقول سعيد: (ما سعيت إليه في الاستشراق لم يكن مجرد تقديم قراءة نقدية لمنظور الحقل واقتصاده السياسي، بل أيضا الموقف السياسي الثقافي الذي يجعل خطابه ممكنا، وقابلا للبقاء إلى هذا الحد، والإبستيمولوجيات والخطابات التي على شاكلة الاستشراق لن تكون جديرة باسمها إذا شخصت على نحو اختزالي يجعلها شبيهة بالأحذية، ترقع حين تبلى وترمى وتستبدل بالجديد حين تعتق ويتعذر إصلاحها. الكرامة الأرشيفية والسلطة المؤسساتية والديمومة البطريركية الخاصة بالاستشراق، يتوجب أخذها على محمل الجد، فهذه الخصائص تقوم، في المحصلة، بوظيفة الرؤية العالمية المسلحة بقوة سياسية هائلة، ليس من السهل تصريفها تحت لافتة الابستيمولوجيا، وبذلك يكون الاستشراق، في نظري، بنية أقيمت في زحمة تنافس امبريالي كثيف. مثلت تلك البنية جناحه المهيمن ،فانبثقت لا كمهنة بحثية، بل كأيديولوجيا متحيزة)[1]

1 – إدوارد سعيد تعقيبات على الاستشراق ترجمة وتحرير صبحي حديدي المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1 1996 ص 71.

خاتمة

إن الدراسة النقدية كلفت سعيد المزيد من النشاط البحثي في مختلف الميادين حتى يلم بالموضوع قيد الدراسة من أبعاد متعددة وحقول معرفية مختلفة أو متكاملة ومتفاعلة من أجل كنه الحقائق و إخراجها في بوثقة دلالية رائقة ودامغة وذلك في مواجهة المد الامبريالي ولو من الناحية النظرية التي تعتبر روح العمل التطبيقي الميداني .فكان سعيد أمام منظومة ثقافية غربية محكمة البناء والتحصين يعسر على الدارس أن يعرف مداخلها بيسر إلا إذا كان يحمل من الزاد المعرفي الشيء الكثير و كذا المعرفة الميدانية مما يؤهله لخوض هذا الغمار . ولا جدال في إقتدار إدوارد سعيد في هذا الموضوع ، ولسنا في موضع الغلط لنجزم أن سعيدا هو الأكفأ من غيره والأعمق أثرا ولا دل على ذلك من الموجة النقدية الشرسة التي تعرض لها بمجرد صدور كتابه "الاستشراق" الذي تلته مؤلفات أخرى بعضها تناوله عدة مترجمين وربما جاء بعناوين مختلفة من إختيار المترجم . وكان كتاب الثقافة والامبريالية "الجزء الثاني" لكتاب الاستشراق، كما ضم كتاب "تعقيبات على الاستشراق" كملحق للجزء الأول —الاستشراق– ويجدر بالذكر أن مختلف مؤلفاته السابقة والتالية كانت تصب في حقل المقاومة وكسر شوكة المركزية الغربية والتمرد على النمطية ، وهذا ما جعل من نشاطه الفكري محل اهتمام ودراسة من طرف الغرب والشرق ككل . يدرسه الغربي من باب انتقاده والرد عليه وتعتيم مشروعه واتهامه بالمعاداة والعنصرية تجاه الغرب . وكذلك يدرسه الشرقي حتى يفق على حقائق هذا النشاط الاستشراقي وحملات الشرقنة واحتواء الشرق وإلصاق الكثير من الصفات عليه لا تمت له بصلة . حتى أن المستشرقين صنعوا وأنشأوا شرقا لا يعرفه الشرق ، بل هو مجرد أوهام وتخييلات من إبتداع المستشرقين في أغلبهم —كما يذكر سعيد– وكذلك لا يمكن ان يحصر الاستشراق بدلالاته خارج دائرة الخطاب . وفي الكتاب قيد الدراسة يقدم المؤلف نماذج من مقالات ودراسات ومقاطع شعرية وسردية روائية وخطب ومحاضرات هي في مجملها خطابات استشراقية تنم عن الخلفية الامبريالية والدافعية الى التوسع الجغرافي في الشرق قصد السلب والنهب والاحتواء وفرض التبعية .. تحت غطاء نشر الديمقراطية — ويركز سعيد على الشيفرات النصية والترميزات السيميائية المتعارف عليها في عالم الاستشراق الذي أصبح حقلا معرفيا قائما بذاته له أدواته وأعلامه .. وحقوله المعرفية وكذا جغرافيته الشرقية .

ولا جدال في أن كتاب الاستشراق أصبح المحور للدراسات الاستشراقية في مرحلة ما بعد الكولونيالية فلا يمكن إغفاله أو تجاوزه حتى أصبح محطة فارقة بين الدراسات التي سبقته والتي تلته . والبحوث التي أصبحت تسمى "ما بعد الكولونيالية " والتي تناول منها الكثير في كتابه النقدي " العالم والنص والناقد " والتي لم تخل بدورها من بصمات الاستشراق والثقافة والامبريالية ومفهوم الهيمنة عند أنطونيو غرامشي ومفهوم الخطاب عند ميشيل فوكو . وكذلك آليات التفكيك عند جاك دريدا إضافة إلى إدراج كثير من الاصطلاحات من حقول معرفية مختلفة وحتى الفن وجد له موقعا في هذه الأطروحة ، فجاءت مفرداته لتصنع بدورها استعارات موسيقية على غرار كلمة "الطباقية" وغيرها المذكورة في ثنايا دراساته وكل هذا الزخم أفاد منه سعيد وزاد عليه حسب ما تقتضيه السياقات المؤثرة والمؤطرة لعمله الفكري والنقدي ..

برزت عدة نقاط كانت المحور للدراسة النقدية للاستشراق عند إدوارد سعيد الذي ينتقد الاستشراق كمفهوم ومشروع وكذلك يطال نقده المستشرقين

حيث أن كتابه أحدث جدلا واسعا ليس على مستوى معين ولكن في مختلف الحقول المعرفية إذ يعتبر إدوارد سعيد موسوعي المعرفة ومتشعب في مختلف التخصصات والدراسات فكان الجدل في الشرق والغرب ككل وبالخصوص عند الغرب لأن كتابه المحوري كان موجها بشكل أكبر إلى الغرب لأنه عمل على وضع حد للانتهاكات الغربية للشرق .

إن الثورة الثقافية التي حركها إدوارد سعيد والتي إ انعكست ارتداداتها على الجانبين الغربي والشرقي جاءت عبر مراحل من الدراسة المستفيضة والمعمقة وكذا التجربة الخصبة في قراءة الذات بعيون الآخر والتي سايرها سعيد في بداية مشواره من أجل كنهها بعمق والاطلاع على دقائق تفاصيلها بغية الوصول إلى الهدف الخفي وراء رسم هذه الصورة الجاهزة لثقافة الشرق والمستوردة من المخابر الغربية بكامل جزئياتها وإن اختلفت هذه الجزئيات إلا أنها في النهاية تلتقي في مصب واحد مادامت قد انطلقت من منبع واحد وجمعت في هذه الصورة الجاهزة في مشروع ثقافي سمي بالاستشراق الذي يتضمن "المفاهيم الغربية للشرق".

إن هذا الشرق الذي أصبح محل دراسة من طرف المستشرقين كان محل أطماع السياسيين والعسكريين الغرب لذلك كرسوا أموالهم وقدراتهم من أجل كنه هذا الشرق من جهة ثم العمل على إعادة إنتاجه بما يخدم مصلحتهم وهذا الأمر موكول للمستشرقين "عمليا" . الذين عايشوا أهل الشرق في مناطق مختلفة وانتشروا في جغرافيته

الواسعة حتى يكونوا على مقربة من مجتمعاته وعلى اطلاع بثقافات ولغات وأديان وقيم هذه الجموع البشرية "الطيعة والطيبة " .

والمستشرقون على حد سواء على دراية بأن هذه الشعوب تمتهن الكرم بمعنى أوسع المستشرقون سيجدون المأوى وأسباب الضيافة والقرى هناك فاستغلوا ذلك من أجل إنجاح أعمالهم والبقاء أطول مدة ممكنة بين ظهراني السكان الأصليين لاحتواء ثقافاتهم وعاداتهم وسبل عيشهم وأسس ونظم مجتمعاتهم وبالجملة الإحاطة بكل خصائص هذا الشرق الذي يعتبر عدوا لهم ، ومن جهة أخرى مصدر ثرائهم وقيام حضاراتهم على أنقاضه .وقد تمكن سعيد من احتواء المسار الثقافي والاطلاع على الإستراتيجية الكامنة وراء هذه العملية التي تبدو في الظاهر دراسة موضوعية مهمة ومفيدة للشرق وإضافة إلى الرصيد العلمي العالمي

إلا أن ذلك لم يكن له وجود . حيث العمل الاستشراقي مجرد استكشاف تمهيدي للعملية الامبريالية التي تعقبه كما أشار في مواضع عدة صاحب الاستشراق والثقافة والامبريالية الذي أحدثت مؤلفاته المذكورة ثورة فيما يسمى بالدراسات ما بعد الكولونيالية ، فقد تمرد –بعد أن تأثر– على النظم النمطية التي كانت تحكم الوثاق الثقافي وبين أن كل الادعاءات بالموضوعية والعلمية والإنسانية والتحضر إن هي إلا أقنعة –وليست قناعات– على وجوه تبدو بريئة وهي تخفي الضغائن للشرق وأهله .

وكما أن سعيدا لامس الجانب التاريخي والفلسفي والاجتماعي والانثروبولوجي ..والدنيوي للاستشراق فانه وبكل تأكيد تناول الموضوع الأدبي النقدي في الاستشراق وقد قدم نصوصا وخطابات ومقاطع شعرية وسرديات روائية لبعض الكتاب من زمرة رواد الاستشراق . وهو يجزم في مواضع عدة بأنه لا يمكن كنه الاستشراق إلا إذا اعتبرناه (خطابا) وهذا هو الأساس ثم أن هذا الخطاب يخضع للتوجيه والايديولوجية الغربية وبالجملة فان الاستشراق ما هو إلا امتداد للغرب في ثوب شرقي كما عرفه البعض وقد أشرنا إلى ذلك في المدخل وفي مواضع أخرى في الفصل الأول . ثم أنه لا يمكن بحال من الأحوال القول ببراءة وموضوعية هذه الدراسة وإن بدت بعض الأعمال تتصنع النزاهة والعلمية إلا أنه في الأخير مجهوذ غربي لصناعة الشرق ووصفه بالانهزامية و الرجعية و القابلية للتبعية وعدم الاقتدار على التمثيل الذاتي والذي يتطلب الكفاءة. لذلك يجب أن يكون الغرب ممثلا للشرق إضافة إلى أن السكان الأصليين من أهل الشرق يجتمعون في صفاتهم ومحدودية تفكيرهم والكسل وحب المثيرات والشهوات الغرائزية . وهذا ما أعطى لرجل الشرق صفة " الغريب المدهش" المعقوف الأنف الملون الذي يحلم أن يجلس على كرسي في طاولة الرجل الأبيض الغربي ، وينام في سريره ويعاشر زوجته ..، ومن ناحية ثانية فان المرأة الشرقية هي

الأخرى ليست إلا آلة لا تفرق بين رجل وآخر (من أهل الغرب خاصة) شهوانية غبية ساذجة ليست لها ميزات خاصة . كما ساق سعيد المثال عن "كشك هانم". ومن هذا المنطلق نادى المستشرقون أنوثة الشرق التي هي بحاجة آلية وملحة لذكورة الغرب . هذا من أجل شرعنة الاحتلال –الاغتصاب– بشكل أو بآخر –كما يزعم الاستشراق – وإذا ترك الشرق لوحده فانه لا يستطيع مواكبة الركب الحضاري النموذجي المتمثل في الغرب ولا يمكن تصور الحضارة خارج الإطار الغربي . وكذلك لو ترك الشرق خارج رعاية الغرب فانه ينعكس سلبا على الغرب وتحدث فيه ثورات داخلية وقلاقل تخل بالنظام العام للبشرية وهذا ما دفع اضطراريا الغرب لتبني الشرق بطلب ملح منه تحت عنوان عبء الرجل الأبيض والتدخل بناء على الطلب "النجدة" الحثيث للشرق كما تدعي النصوص الأدبية والسياسية ..

ويعتبر الاستشراق حقلا دراسيا قائما بذاته له قواعده وأسسه وأعلامه و اصطلاحاته التقنية والأدبية واديولوجيته وكذا جمهوره من الغرب والشرق وعلى أهل الشرق أن يروا أنفسهم من خلال مرآة الغرب الاستشراقي التي تعرفهم أكثر مما يعرفون أنفسهم. ولا يمكن أن يروا –أهل الشرق– أنفسهم في مرآة أخرى خارج نطاق الاستشراق حتى وإن كانت هذه المرآة العاكسة شرقية الصنع .

وتحتوي تجربة إدوارد سعيد حقلا نقديا زاخرا يدور في فلك الاستشراق بصورة أو بأخرى وطباقية الصراع بين الثقافة والامبريالية وأسلوب الهيمنة وخطاب السلطة ..

إن هذه الثورة الثقافية التي أحدثها إدوارد سعيد من خلال أطروحته الاستشراقية غيرت معالم الدراسات في هذا الحقل على المستوى العالمي وأنهت إلى غير رجعة هذا المضمار إلى درجة أن رواد وأعلام هذا الفن غيروا كامل أنماط أعمالهم المستقبلية التي لحقت كتاب الاستشراق فأصبح كتاب إدوارد سعيد محطة فارقة لما قبلها وما يليها . فالاستشراق أصبح يسمى "الدراسات الشرق أوسطية" والمستشرق "خبير في علوم الشرق الأوسط"..

ويشير سعيد في كتابه الاستشراق أن أطروحته تتناول الاستشراق الامبريالي بالخصوص والذي كان يضع النظريات للجيوش الاستعمارية تمهيدا لاحتواء الشرق عسكريا بعد أن تم التأثير عليه ثقافيا وفكريا . ذلك أن إدراج مدارس استشراقية أخرى على غرار الألمانية. لاجدوى منه ولا يخدم السياق العام الذي يتوق إليه سعيد من خلال طرحه هذا. لذلك ساق مجموعة من النماذج الكفيلة باعطاء صورة متكاملة الملامح عن الخطاب الاستشراقي وخلفياته الامبريالية الاستعمارية التي تعمل على رسم صورة قاتمة وبائسة عن الشرق من أجل التأثير على المتلقي الغربي الذي

لا ينظر إلى الشرق إلا من خلال المنظار الاستشراقي وكذلك الأمر مع أهل الشرق المسموح لهم بالنظر إلى أنفسهم من خلال هذا المنظار فقط أي مسموح لهم أن يتشرقنوا فقط .

وفي الأخير فإن سعيدا يحذر من أمرين قد يكونا نتيجة نتظرة من طرف بعض أهل الشرق وهي التأثر بالاستشراق إلى درجة التشرقن أو النظر إلى الذات بعيون الآخر الذي هو الغرب. والأمر الثاني الذي يحذر منه سعيد هو الاستغراب أي السير في الاتجاه العكسي للاستشراق .

والاستشراق ليس شر كله . ولكن يمكن دراسته والافادة من تجاربه الايجابية للانتفاع منها والسلبية لتجنب الوقوع في شراك مثيلاتها من التجارب حاضرا ومستقبلا .

ويكمن فتح المجال لدراسات أخرى انطلاقا من هذا البحث حيث يمكن المقارنة بين ترجمة كمال أبو ديب وترجمة محمد عناني لكتاب الاستشراق.

كما يمكن تناول جدلية الاسلام والمسيحية في كتاب الاستشراق أو الكتب الأخرى لسعيد مثل كتاب تغطية الاسلام . وكتاب الاسلام الأصولي في وسائل الاعلام الغربية من وجهة نظر أمريكية . والذي هو تأليف مشترك بين إدوارد سعيد وبرنارد لويس.

كما يمكن دراسة الاستشراق في مختلف مؤلفات ادوارد سعيد وتتبع الأثر الذي خلفه هذا الكتاب في الكتب التي تلته مثل كتاب العالم والنص والنقد وكتاب تمثيلات المثقف ..

و يستطيع الباحثون دراسة المقاربة الثقافية في كتاب الثقافة والامبريالية والكتاب الملحق للاستشراق "تعقيبات على الاستشراق".

كذلك يمكن دراسة الأثر الفكري لأساتذة إدوارد سعيد في كتاب الاستشراق وبالخصوص مفهوم الهيمنة لأنطونيو غرامشي ومدلول الخطاب عند ميشيل فوكو ...

قائمة

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **الحديث النبوي الشريف**
- **قائمة المصادر و المراجع:**
- **المعاجم:**

1- تهذيب اللغة،ج9، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت370هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 2001م.

2- الكليات، أبو البقاء الكفوي، طبعة مؤسسة الرسالة، بعناية عدنان درويش ومحمد المصري، بيروت، 1992م.

3- القاموس المحيط- معجم عربي عربي -المطبعة الميمنية بالقاهرة سنة (1319 هـ) (مادة خطب).

4- قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، إيميل يعقوب دار العلم للملايين. بيروت.1987م. (مادة خطب).

5- لسان العرب لابن منظور ، طبعة دار الجيل و دار لسان العرب، بيروت ،1988م.

6- مجمع اللغة العربية المعجم الوسيط، أخرجه إبراهيم محمد وآخرون، دار الدعوة، استانبول، عام 1989.

7- معجم الأخطاء محمد العدناني الشائعة مكتبة لبنان، بيروت، 1980م، طبعة 2، (مادة خطب).

8-معجم الأخطاء محمد العدناني الشائعة مكتبة لبنان، بيروت، 1980م، طبعة 2، (مادة خطب).

9- معجم أسماء المستشرقين، يحي مراد: دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، ماي 2004م.

10-مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1996م، (مادة خطب).

10- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ج 1،(بيروت: دار الكتاب اللبناني)، 1982.

11- معجم مقاييس اللغة –أحمد بن فارس زكريا أبو الحسين- المحقق عبد السلام محمد هارون-دار الفكر- ، بيروت لبنان- ج1979،2 .

12- معجم متن اللغة، موسوعة لغوية جديثة، الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج3، ط1، 1959.

13-معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة سعيد علوش الدار البيضاء المغرب 1985.

14- المعجم النقدي لعلم الاجتماع ر .بورون،وف .بوريكو،سليم حداد (مترجمًا)، بيروت :المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،(1986).

15- المعجم الوسيط، تأليف مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية،بالقاهرة-مصر،1960.

16-موسوعة الاستشراق (معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في خطاب مابعد الكولينيالي) ، تأليف مجموعة من الأكاديميين، إشراف وتحرير د. عامر عبد زيد الوائلي و د.طالب محيبس الوائلي، مراجعة د. علي عبود المحمداوي مراجعة لغوية د. وسام العبيدي ، ابن النديم للنشر والتوزيع – دار الروافد الثقافية – ناشرون،ط1، 2015.

17-موسوعة لالاند الفلسفية، أندري لالاند،خليل أحمد خليل(مترجمًا ،م1 ،) بيروت :منشورات عويدات،2001.

18-موسوعة لاروس الكبرى، باريس 1962م،.**Gradencyclopique paris**. **Lareusse**

20- موسوعة النظريات الأدبية، نبيل راغب: الشركة المصرية العالمية لونجمان، مصر، ط1، 2003.

- مؤلفات إدوارد سعيد:

1- الاستشراق - المعرفة السلطة الإنشاء - إدوارد سعيد، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط7،2010م.

2- الاستشراق "المفاهيم الغربية للشرق"،إدوارد سعيد،ترجمة محمد عناني، رؤية للتوزيع والنشر، ط1، القاهرة،2006 م.

3- الآلهة التي تفشل دائما،إدوارد سعيد، ترجمة حسام الدين خضور،التكوين للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، 2003م.

4-تأملات حول المنفى،إدوارد سعيد، ترجمة ثائر ديب، دار الآداب،بيروت،ط1، 2004م.

5-تغطية الإسلام، إدوارد سعيد، ترجمة الدكتور محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، 2006م.

6-الثقافة والامبريالية، إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، مكتبة بغداد، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،ط4، 2014م

7-الثقافة والمقاومة، إدوارد سعيد، حوار مع دفيدبارساميان، علاء الدين أبو زية (مترجما)،دار الآداب، بيروت لبنان ، 2006م.

8-خارج المكان، إدوارد سعيد، ترجمة: فواز الطرابلسي، دار الآداب، بيروت- لبنان، ط.1، 2000م.

9-خيانة المثقفين: النصوص الأخيرة، إدواردسعيد، ترجمة: حسين أسعد، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، دمشق،2011م.

10-السلطة والسياسة والثقافة، إدواردسعيد، تقديم غاوري فوسواناثان، ترجمة د.نائلة قلقيلي حجازي،دار الآداب، بيروت، ط1، 2008م.

11-صور المثقف، إدوارد سعيد، تعريب غسان غصن، دار النهار، بيروت- لبنان، 1996م.

12-العالم والنص والناقد ، إدوارد سعيد، ترجمة عبد الكريم محفوظ،منشورات اتحاد الكتاب العرب، د . ط- دمشق، 2000م.

13- القلم والسيف، إدوارد سعيد، حوارات مع دافيد بارساميان، ترجمة توفيق الأسدي، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق - برامكة، ط1، 1988م.

14- المثقف والسلطة،إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني, رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2006،1م.

15-نظائر ومفارقات، استكشافات في الموسيقى والمجتمع، إدوارد سعيد و دانيال بارنبويم، ترجمة نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، ط1، بيروت، 2005.

قائمة المراجع

16-أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية، محمد كرد علي: مجلة المجمع العربي، دمشق-سورية، 1927م.

17-إدوارد سعيد،الهجنة، السرد، الفضاء الإمبراطوري"،إسماعيل مهنانة، دار الروافد الثقافية"ناشرون"، بيروت لبنان، بالاشتراك مع دار ابن النديم للنشر والتوزيع ، وهران- الجزائر، 2013م.

18-إدوارد سعيد دراسة وترجمات، فخري صالح، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009م.

19-إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية والثقافية،وليام د.هارت، ترجمة قصي أنور الذيبان، هيئة أبوا ظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، 2011م.

20- إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، شيلي واليا، ترجمة وتقديم أحمد خريس وناصر أبو الهيجاء، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2007م.

21- الأدب،المؤسسة،السلطة ، سعيد يقطين،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب ط1، 2000م.

22-استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت،ط1، 2004م.

23- الاستشراق وسحر حضارة الشرق، للدكتورة إيناس حسني، 62 كتاب دبي الثقافية، مايو 2012 م.

24-الاستشراق قراءة نقدية ، الدكتور صلاح الجابري، دار الأوائل، دمشق، 2009م.
الإسلام في الفكر الأوروبي للدكتور ألبرت الحوراني، دار الأهلية للنشر- بيروت، 1994م.

25-أضواء على الثَّقافة الإسلاميَّة، نادية شريف العمري، ، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت لبنان، ط9، 2001 م.

26-الاغتراب في الدراما المصرية "، حسن سعد السيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.

27-بناء الذات الثورية،الدكتور علي تقي الدين شريعتي، ترجمة: الدكتور إبراهيم دسوقي شتا، دار الأمير، بيروت- لبنان، ط.1، 2005م.

28-تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، أحمد حسن الزيات،دار نهضة مصر للطبع والنشر،القاهرة، د.ت، ط2011،14م.

29- تاريخ النقد الأدبي عند العرب المؤلف، إحسان عباس الناشر، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط1983،4م.

30-تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي،بيروت لبنان، ط1، 1989.

31-تحولات النقد الثقافي، عبد القادر الرباعي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط2007،1م.

32- التسامح في فكر ادوارد سعيد، علي خليل محمد، مركز رام الله لدراسات حقوق الانسان، ط1، فلسطين، 2007.

33-تمارين في النقد الثقافي، صلاح قنسوة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ط1، 2007م.

34-التنوير في إشكالاته و دلالاته، موريس أبو ناضر: الدار العربية للعلوم "ناشرون"، بيروت، ط2011،1م.

35-الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط1، 1999م.

37-حضارتهم وخلاصنا، المهاتما غاندي، تعريب نجدة هاجر/ سعيد الغز، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، أكتوبر1959م.

38-حفريات المعرفة، ميشيل فوكو: ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 2، 1987م.

39-الجريمة والعقاب - الجزء الأول، ميخائيلوفيتش فيدور دوستوييفيسكي،اقتباس حميد بوحبيب، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2012م.

40-جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة، محمد عوني عبد الرؤوف، المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة، ط1، 2004م.

41-"الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية "(المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكة)، رودي بارت، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، العربي للطباعة والنشر بالقاهرة 1967م.

42-دليل الناقد الأدبي- ميجان الرويلي، سعيد البازعي—المركز الثقافي العربي،الرباط المغرب،ط2000،1.

-43الرسيس والمخاتلة" خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر،رامي أبو شهاب: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت ط1، 2014م.م.

44-سلسلة أعلام العرب، محمد عبد الغني، حسن عبد الله الفكري،وزارة الثقافة، مصر، 1962م.

45-سلسلة عالم المعرفة، رونالد أرونسون،كاميو سارتر،شوقي جلال (مترجمًا) الكويت،ديسمبر2006م.

46-الفقراء، ميخائيلوفيتش فيدور دوستوييفسكي، ترجمة أحمد الويزي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت- لبنان، ط2015،1م.

47-"الفن القبطي"، سعاد ماهر،الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية، القاهرة،1977 م.

48-"الفنون الهيلينستية والمسيحية والساسافية، نعمت إسماعيل علام، دار المعارف،القاهرة، ط2، 1980م.

في مناهج الدراسة الأدبية، حسين واد، دار سراس للنشر، تونس، 1985.

49-القرن العشرين – المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، ل. نيلوف وآخرون،المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1،2005 م.

50-اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، الناشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، 1998.

51-" اللوحات المصورة الأيقونات"،فيكتور جرجس عوض الله، الهيئة العامة لشؤون المصالح الأميرية، القاهرة، 1965م.

52-"ليوناردو دافنشي وبحوثه العلمية"، جلال شوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974م.

53-ماضي: من إشكاليات النقد العربي الجديد. شكري عزيز، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع ط2 .2008م.

54-ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب،حميد دباشي،ترجمة باسل عبد الله وطفة،مراجعة وتدقيق: حسام الدين محمد، منشورات المتوسط،ميلانو – إيطاليا، ط1،2015 م .

55-ما بعد الحداثة والتنوير – موقف الأنطولوجيا النقدية – دراسة نقديه – الزواوي بغوره،،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت ط1،2009م.

56- مدخل لدراسة النص والسلطة، عمر أوكان، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب،ط1،1991م.

57-مسؤولية المثقف، علي تقي الدين شريعتي ، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا،دار الأميرللثقافة والعلوم، بيروت لبنان، ط2،2007م

58-مصادر الدراسة الأدبية، يوسف أسعد داغر ، مطبعة دير المخلص، لبنان،ط2،1961م.

59-معذبو الأرض،فرانر فانون،ترجمة د.سامي الدروبي، و د.جمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، ط2، 2015م

60-مفهوم العقل، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط2، 1997م.

61- مقالات بحوث حول الاستشراق والمستشرقين، أبو الحسن الندوي : دار إبن كثير(بيروت-دمشق)، 2012م.

62-مقدمات في الثَّقافة الإسلاميَّة، مفرح بن سليمان القوصي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض السعودية،ط3، 1424 هـ. 2003م.

63-مقدمة ابن خلدون، الفصل 35، في التفاوت وفي مراتب السيف والقلم في الدول،ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، المكتبة العصرية، د.ط، بيروت-لبنان ، 2002م.

64-«النص القرآني من الجملة إلى العالم»،وليد منير: مقدمة د/ طه جابر علواني (القاهرة ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1418هـ _ 1997م).

65-النظرية والنقد الثقافي، الكتابة العربية في عالم متغير، واقعها، سياقاتها، وبناها الشعورية، محسن جاسم الموسوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1،2005م.

66-النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الأساسية. آرثر إيزابرغر: ترجمة وفاء ابراهيم ورمضان بسطاويسي, المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. 2003م.

67-نقد الخطاب الاستشراقي، ج1، ساسي سالم الحاج: دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002م.

68-الهوية الثقافية والنقد الأدبي،جابر عصفور، دار الشروق،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة-مصر، ط1،2010 م.

،

- الرسائل والبحوث والمجلات:

- الرسائل:

1- الخطاب الإصلاحي والنقد الاجتماعي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس – دراسة من منظور النقد الثقافي- من إعداد الطالب : بن قلوعة صلاح الدين كلية الأدب العربي والفنون جامعة مستغانم 2015.

2- المثقف والسلطة عند إدوارد سعيد، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة من إعداد الطالبة بن خده نعيمة، قسم الفلسفة جامعة وهران، 2012.

3- مذكرة لنيل درجة الماجيستير في النقد الثقافي:خطابات الفيسبوك وخطاب المثقف _ مقاربة سيميائية ثقافية _ من إعداد الطالب: فوضيل عدنان.كلية الآداب واللغات_ جامعة مولود معمري تيزي وزو. 2013 .

- البحوث:

1- إدوارد سعيد والخطاب الاستشراقي، سعيد طيباوي، مركز الدراسات والأبحاث العلمية في العالم العربي . 2015-01-31.

2- "استشراق إدوارد سعيد في المغرب"، يحي بن وليد. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث. الرباط. المغرب،05 أكتوبر 2015م.

3- بحث" تطوير الخطاب الديني كأحد التحديات التربوية المعاصرة " د.اشرفأبو عطايا وأ. يحيى عبد الهادي أبو زينة بحث مقدم إلى مؤتمر"الإسلام والتحديات المعاصرة"المنعقد بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية في الفترة: 2-2007/4/3م.

4- سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، أحمد يوسف، مخبر السيميائيات جامعة وهران، الجزائر، 2004.

5- مشروع النقد الثقافي في ملتقى الإبداع، عبد الوهاب أبو هاشم، جمعية الثقافة والفكر الحر، مركز ثقافة الطفل الفلسطيني،اللقاء الخامس، يوم 17 أفريل 2003.

- **المجلات :**

1- الاتجاهات اللسانية المعاصرة ودورها في الدراسات الأسلوبية،د/ مازن الواعر: مجلة عالم الفكر، الكويت، الثاني والعشرون، ع: 3،4 _ 1994.

2- أدب ما بعد الكولونيالية، ثائر ديب، مجلة بناة الأجيال، سورية، العدد53 خريف2004.

الاستشراق في الميزان ، عمر لطفي العالم، مجلة الجهاد/ ليبيا، عدد 88، 1990م.

3- الإمبراطورية ترد بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار النظرية والتطبيق،بيل أشكروفت وآخرون، ترجمة خيري دومة، عرض الدكتور عمر زرفاوي، مجلة أبوليوس، جامعة سوق أهراس الجزائر، 26 جوان 2018م.

4-تعريف الاستشراق ، شكري النجار، مجلة الفكر العربي، العدد: 31،معهد الإنماء العربي، بيروت لبنان،1983م.

5-تعريف الاستشراق، مالك بن نبي،مجلة الفكر العربي،العدد: 32،معهد الإنماء العربي، بيروت لبنان،1983

6-" حوار الحضارات: أي مصداقية.." محمد عابد الجابري مجلة فكرة نقد السنة 5- العدد 44 ديسمبر 2001.

7-دنيوية النص الأدبي لدى إدوارد سعيد، قراءة في المصطلح، جمال مقابلة وعلي عشا،مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، مجلد2 ،العدد2 ،2000م.

8-عرض حول كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، د.أمحمد بن عبود وعبد العزيز السعود، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد 65. 1981م.

9-عنوان المقال: الخطاب ما بعد الكولونيالي في كتابات ميشيل فوكو،سلايمية يمينة، جامعة باجي مختار، عنابة، مجلة البحوث والدراسات الانسانية

10-صور المثقف في فكر إدوارد سعيد، محمد الهادي كشت، مجلة تمثيلات المثقف المقاوم، العدد الخامس، نيسان - أفريل 2018.

11-القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي، إدوارد سعيد، مجلة الابتسامة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت - لبنان، ط1، 1980.

12-مدخل إلى علم الثقافة الإسلامية، إعداد الطالبة:غزوى العنزي بإشراف الأستاذ: د.عبد الله الوصيف، وهو بحث مقدم لقسم الثقافة الإسلامية، بكلية الشريعة جامعة الإمام محمد بن سعود، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،المملكة العربية السعودية، عدد2،محرم 1410هـ.

13-المصطلح ومشكلات تحقيقه، كايد محمود إبراهيم، مجلةالتراث العربي، العدد97،السنة الرّابعة والعشرون، مارس2005م.

14-مقال: التجربة النقدية عند ادوارد سعيد- قراءات في المتجر النقدي ما بعد الكولونيالي، أحمد عارف، مجلة أبعاد،مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية في الجزائر، جامعة وهران، العدد 7،31 ديسمبر2018.

- **الجرائد:**

1- الاستشراق وأهدافه، محمد عبد المنعم خفاجي،جريدة الحضارة، القاهرة بتاريخ 09-04-1986م.

- **المواقع الالكترونية:**

1-مقالة للدكتور صبري محمد خليل "مفهوم الإصلاح في الفكر الإسلامي السياسي"نقلا عن الانترنت،

الموقع : www.drsabrikhalil.wordpress.com

2- د. منى أبو سنة تعريف الخطاب "مقال: مفهوم الخطاب" نقلا عن الانترنت،

الموقع http://civicegypt.org/?p=9513

3-تعريف الثقافة لغة واصطلاحا :

رابط الموضوع: https://www.alukah.net/culture/0/103655/#ixzz5jaVwFzfX

4-تعريف المثقف: رابط الموضوعhttps://www.alukah.net/culture/0/98882/#ixzz5rQ68gUXx

5 ينظر الموقع: http://wwwAnatrrropos/com .غزلانهاشمي: ما بعد الكولونيالية.. من الهامش إلى المركز

6- ميل حمداوي، النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، مقال نقدي. الموقع

HTTP : // www.diwamalarabe.com

7- Voir : johanam.smith ,ross c . murfin, c'est quoi la critique culturelle ? http:// www .usac . -6

ca/english/ frank/wc/htm

8-عن إدوارد سعيد وما بعد الكولونيالية وأشياء أخرى -http://drkhader.ps/post/302/

9-مصطلحات أساسية في نظرية ما بعد الكولونيالية:

-الكولونيالية-و-أشياء-أخرىمصطلحات-أساسية-في-نظرية-ما-بعد/https://qira2at.com/2016/06/15

10- الميكيافيلية :

نقلا عن الأنترنت الموقع : ميكيافيلية /ar.wikipedia.org /wiki

11-ميشيل فوكو، إرادة المعرفة، ترجمة وتحقيق مطاع صفيدي، جورج أبي صالح، منشورات مركز الانماء الغربي . الانترنت الموقع:

https :// barq-rs.com /التفكير-مع-إدوارد-سعيد البدائل-المعاص-/

- المصادر الأجنبية :

- الفرنسية:

1-Histoire de mots,Philip Bénéton. « culture » et « civilisation », travaux et recherches en sciences politique ; 35 (Paris : Press de la fondation national des sciences politique, 1975).

2- « Introduction à l'œuvre de Marcel Mauss, » Claude Lévi-Strauss, (19) dans : Marcel Mauss, Sociologie et anthropologie, bibliothèque de sociologie contemporaine, précédé d'une introduction à l'œuvre de Marcel Mauss par Claude Lévi-Strauss (Paris : Presses universitaires de France, 1950).

- الانجليزية :

1- Oriontalism, Said Edward W, Vintage Books, a Division of Random House, New York, October 1979.
2- Primitive culture : Researches into the (1) Development of Mythology, Philosophy, Religion, Arts, and custom, Edward Burnett Tylor, 2 vols. (London: J. Murray, 1871).

الملاحق

الملحق 1:

مصطلحات ومفاهيم عند إدوارد سعيد:

أكثر ما ينظر إليه في الغرب، في نتاجات إدوارد سعيد، هو أنها كتابات تندرج فيما يسمى بنظرية المابعد: ما بعد الماركسية، ما بعد الحداثة، ما بعد الكولونيالية...

لقد انتهت حقب الحداثة والماركسية والاستعمار، وصرنا نتأملها من بعيد، بعد أن تجاوزناها. ثمة بشر هنا في الغرب ليسوا بيض البشرة بالضرورة، ولكنهم غربيون بالمواطنة، ويرون ما لم يكن الأبيض قادراً على رؤيته. المستعمَرون السابقون يعيدون سرد الحكاية من منظورهم، طروادةُ تقول روايتها، خلافاً لهوميروس وأغاممنون وأخيل..

إن مدرسة ما بعد الكولونيالية (Post colonialism) التي برز فيها ما يسمونه هناك بالثالوث المقدس ـ إدوارد سعيد، وهومي. ك. بابا، وغاياتري سبيفاك ـ تلقي الضوء على محاولات الحواف والهوامش، لقول قيلٍ مختلفٍ عن قيلِ المركز، في مراجعة شاملة لكل الأحكام التي أنتجتها ثقافة المركز، بخصوص اللاغربي.

ومع ضرورة التأكيد على الهوية الدنيوية، لدراسات ما بعد الكولونيالية، تجدر الإشارة إلى رفض هذه الدراسات سلوك سبيل الأصولية الثقافية أو القومية أو الدينية، حيث تؤكد ما بعد الكولونيالية على هويتها الإنسانية الأوسع، في طرحها لمفهوم التلاقح الثقافي، أو المثاقفة، الذي عبر عنه مترجم كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق) بمصطلح (الهجنة) فيما يمكن انتقاده بأنه إعلاء متصل للمثقف المهاجر، باعتباره مالك الحقيقة ومجّمع كل الثقافات، على نحو يحرره من روابط الجنس والعرق والطبقة والموقع السياسي والثقافي المتعين.

المثقف أو المفكر:

يبدو أن إدوارد سعيد حين يصف المثقف، فإنه يتبنى مفهوم أنطونيو غرامشي عن المفكر العضوي (Organic intellectual).. ولا غرابة، فكلنا نعني بالمثقف: ذلك الشخص الذي يشغل بالفكر. والمفكر العضوي، لدى غرامشي، هو ليس مجرد شخص يستخدم منتجات الذهن، بل هو يستخدمها بطريقة مختلفة كذلك: فالمفكر العضوي هنا هو مفكر مرتبط مع قيم قادمة جديدة، مهمته تمهيد السبيل لانتصارها، على قيم قديمة يراها آفلة. فهو يغني للمستقبل الذي يراه أفضل وأكثر عدالة، فيؤهل المجتمع أيديولوجياً لانتصار تلك القيم الجديدة. بعكس المفكر التقليدي الذي ترتبط مفاهيمه بتفسيرات الطبقة المسيطرة، وينظّر لاستمراريتها.

من هنا فليس المثقف ـ في نظر إدوارد سعيد ـ سياسياً، حتى لو كان هدفه سياسياً، فهو على عكس السياسيين، لا يهتم بأن يبني الإجماع حوله، ليقتنص السلطة، بل هو امرؤ يقوم كامل وجوده على إحساس نقدي، هو حس الامتناع عن تقبل الصيغ السهلة المتساهلة، أو الكليشيهات الجاهزة، أو التوكيدات السلسة، المتوائمة مع ما يقوله المتنفذون أو التقليديون، ويفعلونه.

ولو أردنا أن نرى إلى كيفية تطبيق إدوارد سعيد لمقولته هذه، في تعامله مع الوقائع الحياتية، فربما أمكننا أن نتأمل مقولته الصارخة، في اتفاق أوسلو، في مقدمة كتابه الثقافة والإمبريالية:

"إن تاريخ الإمبريالية لَيعلّمُنا، أنه ليس في وسع شيء ـ سوى فكرة حقيقية للتحرير والمساواة ـ أن يقاوم قوة الإمبريالية ويصدها. وإنها لمأساةٌ بحق، أن جهلنا للتاريخ وللقوة الاستعمارية، يبدو أنه علّم مهندسي أوسلو الفلسطينيين، أن الاستسلام الخانع المتذلل ـ مصحوباً بصرخات النصر الكاذبة ـ قد يحقق النتيجة ذاتها، التي تحققها حملةٌ حقيقية من الاستنهاض والمقاومة. بل إنها لمأساةٌ وإهدارٌ وضياع. بيد أن أجيالاً من الفلسطينيين قد تستيقظ وتعي هذا الواقع".

السرد:

لقد تعودنا أن السرد هو قص حكاية، أي خيال. أما السرد لدى إدوارد سعيد في كتابيه الأهم (الاستشراق) و(الثقافة والإمبريالية) فهو كما يراه ميشيل فوكو و جاك دريدا: تشكيل عالم متماسك متخيل، تحاك ضمنه صورُ الذات عن ماضيها. فالأهواء والتحيزات والافتراضات، تكتسب طبيعة البديهيات؛ يصوغها الحاضر بتعقيداته، بقدر ما يصوغها الماضي بمتجلياته وخفاياه، وأنهاج تأويله. فمن هذا الخليط العجيب تُنسج حكايةٌ، هي تاريخُ الذات لنفسها وللعالم، تُمنح طبيعة الحقيقة

التاريخية, وتمارس فعلها في نفوس الجماعة، وتوجه سلوكهم وتصورهم لأنفسهم وللآخرين؛ بوصفها حقيقة ثابتة تاريخياً. وتدخل في هذه الحكاية ـ أو السردية ـ مكونات الدين واللغة والعرق والأساطير والخبرة الشعبية؛ وكل ما تهتز له جوانب النفس المتخيِّلة. فكثير مما تراه الهويةُ القومية حقيقةً، هو في الحقيقة مجرد تخيل، حكاية الذات لنفسها وللآخرين عن نفسها. ولك أن تتخيل ما تتخيل الشعوب أنها تستحق.

التاريخ:

التاريخ ـ في نظر إدوارد سعيد ـ هو قوة العقل البشري على سبر أغوار العقل البشري. ووفق هذه النظرة، لا يعود التاريخ مجرد تسجيل لأحداث الماضي، بل هو رؤية فعل الناس في الدنيا بشروط الدنيا. فالتاريخ ليس مجرد سرد الأحداث، بل هو تفسير هذه الأحداث بمنظور دنيوي، يرى إلى كل من فعل الإنسان والمكان والزمن والثقافة، في صناعة الحدث، واختيار ما يتم تسليط الضوء عليه، وما يتم إلقاؤه في زوايا العتمة.

إذن فالتاريخ لدى إدوارد سعيد هو رؤية شاملة تفسيرية، لا للأحداث فحسب، بل للنصوص الأدبية والفنية. فأنت مفكر تاريخي حين ترى إلى جوانب النص ـ أو الحادثة ـ المختلفة، لكنها الجوانب الدنيوية. فالتاريخية لدى إدوارد سعيد هي على النقيض من كل من الأسطورية والدينية. فالتاريخي يستمد مادته من الدنيا، فيما الديني يستمد مادته من السماء. والأسطوري يستمد مادته من آلهة تعيش حوله وتتحكم فيه. إذن فالتاريخ لدى إدوارد سعيد هو فعل الناس في الدنيا بشروط الدنيا. يقول في (الأنسنية والنقد الديموقراطي):

"إن العالم التاريخي هو من صنع بشر، من رجال ونساء، لا من صنع رباني؛ وإنه يمكن اكتناهه عقلياً وفق المبدأ الذي يقول: بأننا ندرك فقط ما أنتجناه. وبعبارة أخرى: إننا نستطيع أن نعرف الأشياء، وفقاً للطريقة التي بها صُنعت. إننا ـ كبشر في التاريخ ـ نعرف ما نحن صانعوه؛ أو بالأحرى: أن تعرف شيئاً ما، يعني أن تعرف الكيفية التي بها صُنع ذلك الشيء، أن تراه من وجهة نظر الإنسان الصانع. فالمعرفة التاريخية مبنية على قدرة الكائن البشري على إنتاج المعرفة، لا مجرد استيعابه المستكين والامتثالي والباهت لها".

الثقافة:

الثقافة لدى إدوارد سعيد كلمة تكاد تكون مرادفة للهوية. فالثقافة في نظره هي طريقة رؤية الجماعة للأشياء والذات. فالثقافة مفهوم جمعي لما تراه الأمة من حقها، لما ترى أنها تستحقه من دون الجماعات، لما ترى عليه الجماعات الأخرى. من هنا فالثقافة ليست هنا مجرد تفكير منطقي، بل هي عقيدة تدخل فيها الكثير من التحيزات والاستيهامات القومية. يبدو ان إدوارد سعيد يوافق إرخ أورباخ على تعريفه للثقافة، بأنها ذلك الشعور القومي الذي يتعامل ولا بد مع الآخرين بحس عدواني، لصالح الأمة والوطن والجماعة والانتماء.

من هنا فالمثقف هو ابن الجماعة وممثلها. وهكذا نعود مرة أخرى لنرى كم هو قبيح حجم خيانة المثقف الذي لا يمثل الجماعة.

الاستشراق:

الاستشراق ليس مجرد مجموعة النصوص التي كتبها الباحثون الغربيون عن الشرق، بل هو طريقة محددة سياسية في الغالب، تصوغ بها جماعاتُ المفكرين في الغرب، رؤيةَ الغرب لطريقة تفكير وأنماط الحياة في الشرق. فالغرب ـ وفق هذه الرؤية المصوغة مصلحياً ـ يعجبه أن يرى الشرق مرتعاً للأحلام والسحر والجمال والعوالم الغريبة... هكذا، وهكذا فقط. فالشرقيون، وفق هذه النظرة، حالمون، شعراء ،لكنهم لاواقعيين؛ لديهم كنوز وذخائر، لكنهم غير قادرين على الاستفادة منها؛ نساؤهم جميلات، لكنهن راضيات بأن يكن مجرد أدوات متعة؛ رجالهم شعراء قادرون على الحب، لكنهم غير قادرين على المغامرة والاستكشاف والإبحار في محيطات مجهولة...

هكذا ينشئ الغرب للشرقي صورة نمطية تستدعي الغزو، تحت شعارات إنسانية، كالتحضير والتعمير واستغلال الطبيعة، ونشر الحرية... إلخ. هذا هو ما يفعله السياسيون والمفكرون الغربيون بشعوبهم، ليؤهلوها لقبول الهيمنة على الشرق.

إذن فالاستشراق ليس مجموعة دراسات، بل هو نظرة الغرب المصوغة للشرق، كما يحب أن يراه صانعو الثقافة والسياسة الغربيون.

النقد:

يرى إدوارد سعيد أن نقد النصوص الأدبية والفنية، لا يمكن له أن يكون أقرب إلى فهمها؛ إلا بدمجها مع العالم. فنحن نرى إلى كيفية صياغة عنوان كتابه (العالم والنص والواقع) لنكتشف القصدية وراء

وضع النص بين العالم والواقع. إذن فنحن أمام نوع من النقد يكفر باستقلال النص، الذي ساد ذات مرة تحت شعار البنيوية اللافت (لا شيء خارج النص) فكل ما هو خارج النص لدى إدوارد سعيد، يدخل النص ويفسره. ففي (الثقافة والإمبريالية) يقول: "إن الاستقلال الذاتي المزعوم للأعمال الأدبية والفنية، يقتضي نوعاً من الفصل، يفرض فيما أرى محدودية مضجرة، تأبى هذه الأعمال الأدبية نفسها أن تقوم بفرضها".

من هنا فهو يخترع مصطلح (صلات التقرب) التي تربط بين القارئ ـ عادياً أو أكاديمياً ـ والنص الخاضع للقراءة، حيث يكون القارئ مالكا للقدرة على تفسير النص، كل مرة، بطريقة مختلفة. يقول في (العالم والناقد والنص):

"ما من نص يبلغ نهايته، وذلك لأن سلسلة صلاته المحتملة خاضعة للتمديد، على الدوام، بواسطة أي قارئ إضافي... شريطة أن تكون دراسة المرء موجهةً، بمنتهى العناية، نحو النص ككلٍ ثقافي وفني حيوي. ولذلك فإن الناقد يقلد أو يكرر النص، في تمديده له، منذ البدء، إلى أن يصبح كلاً متكاملاً".

القضية الفلسطينية:

كان إدوارد سعيد، ذات مرة عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني. ورغم ما يقال عن كونه رجلاً كوزموبوليتياً (مواطن العالم) إلا أنه لم يتنكر لفلسطينيته. ولو تنكر، لما قبل بعضوية المجلس الوطني؛ ولما سمعناه يعارض أشد المعارضة اتفاق أوسلو، كما نقلنا قبل قليل؛ ولما رأيناه ينتقد بحرقة ما رآه في محمود درويش من انهزامية، لاحت في ثنايا قصيدته (خطبة الهندي الأحمر) إذ علق عليها إدوارد سعيد ـ في مجلة القاهرة ـ قائلا:

"والحق أن هذه المقطوعات الشعرية تنطوي على نغمة الكلل، وهبوط الروح، والتسليم بالقدر؛ والتي تلتقط ـ عند العديد من الفلسطينيين ـ مؤشر الانحدار في أقدار فلسطين، التي ـ مثل الأندلس ـ هبطت من ذروة ثقافية كبرى، إلى حضيض فظيع من الفقد، على صعيد الواقعة والاستعارة معاً"؟

لكن له رأياً ما حول قضية فلسطين، يبدو أنها تميل إلى فكرة الدولة الواحدة، نعرف ذلك من قوله في كتاب (الأنسنية والنقد الديموقراطي):

"كنت دائماً أعتقد أن الصراع على فلسطين، لا يمكن حله فعلاً، بواسطة إعادة ترتيب جغرافية تقنية، تسمح للفلسطينيين المقتَلَعين والمحرومين، بالحق ـ إذا كان هذا يسمى حقاً ـ في أن يعيشوا أشبه بالبوابين، في نهاية المطاف، على حوالي 20% من أرضهم، المطوقة من قبل إسرائيل، والمعتمدة كلياً

عليها. ومن جهة أخرى، ليس مقبولاً أخلاقياً مطالبة الإسرائيليين بأن ينسحبوا من كامل فلسطين السابقة ـ وهي الآن إسرائيل ـ فيصيروا لاجئين مجدداً، مثلما هم الفلسطينيون الآن".

اللغة:

اللغة في نظر إدوارد سعيد هي المكان، حيث نستطيع أن نسجل به تمردنا على مصيرنا، بواسطة المجاز والتورية والسخرية. فهكذا تصبح اللغة طريقة للالتفاف على عقبات اللغة نفسها. فأنت حين تسخر من السلطة، إنما تسجل اعتراضك الصارخ ضدها، وأنت حيت توري أو تكني في حديثك عما تراه ظالماً، إنما تنفس عن لواعجك الداخلية وتعلن عن رغبتك في المواجهة والاعتراض باللغة كذلك.

(عن إدوارد سعيد وما بعد الكولونيالية وأشياء أخرى):

https://drkhader.ps/post/302/عن-إدوارد-سعيد-وما-بعد-الكولونيالية-وأشياء-أخرى/

الملحق 2

مصطلحات أساسية في نظرية ما بعد الكولونيالية / الاستعمار

Colonialism – الكولونيالية / الاستعمار:

التوسع الإمبريالي لأوروبا في باقي أنحاء العالم أثناء الأربعمائة سنة الأخيرة، وخلالها كان للمركز المهيمن علاقة سيطرة ونفوذ على الهامش أو على المستعمرات. هذه العلاقة نزعت للامتداد إلى التعاملات الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية والسياسية والحضارية بشكل عام، عادة مع تشكيل طبقة المستوطن الأوروبي وطبقة المواطن المحلي المتعلم الملتحق بطبقة المستوطنين، لطبقات تقع بين الأمة الأوروبية ''الأم'' ومختلف الشعوب الأصلية التي تسيطر عليها الدولة الأم. نظام كهذا يحمل في طياته مفاهيم مرتبطة بالدونية العنصرية وتكوين تصورات عجائبية عن الآخر.

Post-colonialism–مابعدالكولونيالية/ما بعدالاستعمار: بشكل عام هي دراسة آثار الاستعمار / الكولونيالية على الثقافات والمجتمعات. هو مجال يُعنى بكيف غزت الدول الأوروبية ثقافات ''العالم الثالث'' وسيطرت عليها، وكيف استجابت تلك الثقافات من العالم الثالث وقاومت. ما بعد الكولونيالية / ما بعد الاستعمار، كنظرية وكدراسة لتعاملات سياسية وثقافية، وتمر بثلاث مراحل عامة، هي:

- الوعي – في البداية – بالدونية الاجتماعية والنفسية والثقافية لكون المرء في دولة مُستعمرة.
- الكفاح لأجل الاستقلال الإثني والثقافي والسياسي.
- وعي متزايد بالاختلاط والامتزاج الثقافيين.

Ambivalence – الازدواجية: هي طريقة نظر كل من المستعمِر والمستَعمَر لأحدهما الآخر، وتتسم بالإبهام وعدم الوضوح. عادة ما يرى المستعمِر من يستعمره بصفته دونه وأقل منه مرتبة، وإن كان مُختلف، يُمثل ''الآخر'' العجيب، في حين ينظر الطرف الواقع عليه الاستعمار للمُستعمِر بصفته مثار للحسد لكن فاسد. في سياق من الاختلاط والامتزاج، يُنتج هذا عادة إحساساً مختلطاً يقع بين النعمة والنقمة.

Alterity – التبدّل:

''حالة أن تكون آخر أو مختلف''، الآخر السياسي أو الثقافي أو اللغوي أو الديني. دراسة سبل جعل جماعة معينة لنفسها مختلفة عن الغير.

Colonial education – التعليم الكولونيالي: العملية التي تقوم بموجبها قوة الاستعمار بصبّ إما نخبة محلية مقهورة أو تعداد أكبر من السكان، في قالب طريقة المستعمِر في التفكير وفي رؤية العالم.

Diaspora – الشتات:

الهجرة الطوعية أو الجبرية للناس من بلدهم الأصلي. أدب الشتات يهتم عادة بأسئلة حفظ أو تبديل الهوية أو اللغة أو الثقافة، أثناء الوجود في سياق ثقافة أو دولة أخرى.

Essentialism – الحتمية:

جوهر أو ''ماهية'' الشيء. في سياق العرق أو الإثنية أو الثقافة، تصبح الحتمية هي ممارسة مختلف الجماعات التي تقرر ما هي هذه أو تلك الهوية، وحدودها، وما يقع خارج حدود الهوية المعنية. من حيث الممارسة، تنزع ''الحتمية'' لعدم رؤية الفروق والاختلافات داخل الجماعة الواحدة من أجل حفظ الوضع القائم أو لتحصيل القوة. المزاعم ''الحتمية'' يمكن أن تستخدمها قوة الاستعمار، وأيضاً الجماعة الخاضعة للاستعمار، كأداة لمقاومة ما يُدّعى بشأنها.

Ethnicity – الإثنية:

خليط من السمات/الخصائص التي تخص مجموعة: قيم مشتركة، معتقدات، تقاليد، أذواق، سلوكيات، خبرات، ذكريات، ولاءات. تتصل – بعمق – عادة بهوية المرء.

Exoticism – صُنع الغرابة:

هي العملية التي بموجبها تصبح ممارسة ثقافية/حضارية ما مثيرة ومدهشة في اختلافها عن منظور المستعمِر العادي. من المفارقات أنه مع اضطلاع الأوروبيين بتعليم المحليين وأبناء الثقافات الأصلية، بدأ

أطفال المدارس في الأغلب الأعم ينظرون إلى سبل عيشهم المحلية ونباتاتهم وحيوانات بيئاتهم المحلية بصفتها غريبة، مع اعتبار النظائر الأوروبية لهذه المفردات هي ''الطبيعية'' أو ''العادية''.

Hegemony – الهيمنة:

قدرة الطبقة الحاكمة على إقناع الطبقات الأخرى بأن مصالحها – أي مصالح الطبقة الحاكمة – هي مصالح الجميع، ليس فقط عن طريق السيطرة الاقتصادية والسياسية، إنما أيضاً عن طريق أدوات ناعمة، مثل التعليم والإعلام.

Hybridity – الامتزاج:

قوالب جديدة عابرة للثقافات تنشأ عن التعاملات العابرة للثقافات. الامتزاج قد يكون اجتماعياً أو سياسياً أو لغوياً أو دينياً، إلخ. ليس بالضرورة خليط سلمي، إذ يمكن أن يكون مصحوباً بنزاعات وصدمات. هناك تعريفان متصلان:

Catalysis: تجربة عدة جماعات إثنية (تحديدا من العالم الجديد: الأمريكتين) في التفاعل والاختلاط ببعضها البعض في بيئة عدائية عادة، ما يؤدي إلى أشكال جديدة من الهوية والتجارب.

Creolization: المجتمعات التي تنشأ من الاختلاط الإثني والعرقي لتشكل تعريفاً جديداً لجماعة مادية ونفسية وروحانية تعرف ذاتها بذاتها.

Identity – الهوية:

كيفية تعريف الفرد و/أو الجماعة لنفسه/ا. الهوية مهمة لتصور النفس، وتسهم في تعريف المحددات الاجتماعية وفهم الطابع الوطني. تشتمل عادة على آليات ''الحتمية'' و''صنع الآخر''.

Ideology – الأيديولوجيا:

نظام من القيم أو المعتقدات أو الأفكار التي تتشارك فيها جماعة ما وعادة ما يُنظر لهذا النظام بصفته من المسلم به، كظاهرة طبيعية أو صحيحة في حد ذاتها.

Language – اللغة:

في سياق الكولونيالية وما بعد الكولونيالية، تصبح اللغة عادة مسرحاً للاستعمار والمقاومة. من حيث الممارسة، فإن العودة للغة الأصلية تجد الكثير من المناصرين بما أنها كانت اللغة التي قمعتها قوات الاستعمار. مسألة استخدام اللغات الأوروبية هي مسألة كثر الجدل حولها في أوساط المؤلفين/الباحثين ما بعد الكولونياليين.

Abrogation – الإخلال:

رفض استخدام لغة المستعمِر بطريقة صحيحة أو بالأسلوب المتفق عليه.

Appropriation – الاستملاك:

العملية التي بموجبها يتم تطويع اللغة بحيث ''تحمل عبء'' التجربة الثقافية المختلفة – عن اللغة المعنية – للمرء.

Magical realism – الواقعية السحرية:

تكييف الأساليب الواقعية الغربية في الأدب بحيث يتم وصف حياة متخيلة لثقافات أصلية تتعاطى مع الأسطوري والسحري والخيالي بشكل مختلف تماماً عن التعاطي الغربي معه. هو مزج لعناصر ننزع لربطها بالواقعية الأوروبية على جانب، وعناصر غرائبية على الجانب الآخر، حيث يخضع هذين العالمين لـ ''تقارب أو ما يشبه الخلط التام''.

Mapping – تصميم الخرائط:

تصميم الخرائط الخاصة بالعالم في سياق الاستعمار كانت عملية تعيين وتوزيع بقدر ما كانت عملية وصف. كانت الخرائط تُستَخدم في المساعدة في العدوان، وكانت تُوظف في إثبات الادعاءات بحيازة بلدان ومناطق بعينها. الخرائط تمثل ادعاءات بحدود الدول على سبيل المثال.

Metanarrative – السردية الكبرى:

(تُعرف أيضاً بـ: grand narratives, master narratives) هي قصة حضارية/ثقافية كبيرة تسعى لأن تشرح في نطاقها جميع السرديات الصغيرة المحلية. السردية الكبرى تزعم أنها تمثل حقيقة كبيرة

تخص العالم وكيف يعمل. يرى البعض أن جميع السرديات الكبرى قمعية بطبيعتها لأنها تقرر هل تسمح بوجود سرديات أخرى أم لا.

Mimicry – التقليد:

طرق تكييف المستَعمَر لثقافة (لغة، تعليم، ملابس، إلخ) المستعمِر، لكن أثناء التقليد تتغير تلك الثقافة تغيرات كبيرة.

Nation/nation–state – الأمة/الدولة–الأمة:

تجمع من البشر ينتظمون في حكومة واحدة. المصلحة الوطنية ترتبط بالكفاح لأجل هوية مستقلة إثنياً وثقافياً، وفي الوقت نفسه إيمان بعالمية الحقوق – على أرضية تعدد الثقافات غالباً – التي تقف ورائها المصالح الجيو–اقتصادية. من ثم فإن التحرك لأجل الاستقلال الوطني يرتبط عادة بالإقليم كما يرتبط بالإثنية والثقافة، ويكون هذا الأمر وذاك متضادان ومختلفان عادة لحظة تشكل الأمم.

Orientalism – الاستشراق:

عملية (من أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن) شُيّد بموجبها "الشرق" كآخر غريب وعجيب، على يد الدراسات الأوروبية والثقافة الأوروبية. الاستشراق ليس دراسة صادقة حقيقية للثقافات الأخرى بقدر ما هو تعميمات غربية حول الشرق والإسلام و/أو الثقافات الأسيوية، وهي تصورات تنزع لتجاهل أو تقزيم الاختلافات الكبيرة القائمة فيما بين هذه الثقافات.

Other – آخر:

السبل الاجتماعية و/أو النفسية التي تستبعد أو تهمش من خلالها جماعة، جماعة أخرى. عندما تعلن أن شخص ما "آخر"، ينزع الجميع حينها لتسليط الضوء على ما يجعله مختلفاً أو مضاداً، وتنتقل هذه الآلية إلى كيفية "تمثيل" هذا الآخر، لا سيما من خلال الصور النمطية.

Race – العرق:

تقسيم وتصنيف البشر عن طريق الخصائص البدنية والبيولوجية. عادة ما تستخدم مختلف الجماعات العرق إما للاحتفاظ بالقوة أو لإبداء التضامن. في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان العرق يستخدم عادة كذريعة للقوى الاستعمارية الأوروبية لاتخاذ العبيد و/أو "عبء الرجل الأبيض".

Semiotics – السيميوطيقا:

نظام من الإشارات التي تمثل للمرء أشياء يعرفها. السيميوطيقا الثقافية تمد الجماعة بسبل تعريفها لنفسها، أو هي محاولات قوة مستعمرة للسيطرة على جماعة أو حشدها في قالب معين.

Space/place – الحيز/المكان:

الحيز هو محل جغرافي، فارغ من حيث أنه غير مُخصص. المكان على الجانب الآخر هو ما يحدث عندما يصبح الحيز مصنوعاً أو مملوكاً. المكان له تضاريس ولغة وبيئة وثقافة، إلخ.

Subaltern – المقهورون:

الطبقات الدنيا أو المستعمَرة التي تفتقر إلى سبل التعبير عن نفسها، ومن ثم فهي تعتمد على لغة ووأساليب الطبقة الحاكمة في التعبير عن نفسها.

Worlding – الإدخال إلى العالم:

هي العملية التي يُجلب بها الفرد أو الأسرة أو الثقافة أو الجماعة البشرية إلى المجتمع العالمي ذات المركزية الأوروبية/الغربي المهيمن

مصطلحات أساسية في نظرية ما بعد الكولونيالية:

https://qira2at.com/2016/06/15/مصطلحات-أساسية-في-نظرية-ما-بعد-الكولون/

فهرس الموضوعات

– بسم الله الرحمن الرحيم

–الإهداء

–شكر وعرفان

–مقدمة..... 01

–المدخل 09

الفصل الأول: دراسة وصفية لكتاب "الاستشراق" 40

–مركزية الاستشراق الأوروبي 70

–الاستشراق الكامن والظاهر 82

–ثنائية التقدم والتخلف..... 83

– الصراع البريطاني الفرنسي على اقتسام الشرق..... 85

–المرحلة الأخيرة 94

الفصل الثاني: تجربة إدوارد سعيد النقدية..... 105

–تمهيد 105

–نقد الخطاب الاستشراقي وتفكيك أنساقه 111

–الخلفية الثقافية لإدوارد سعيد..... 118

–العالم والنص والناقد (النقد الدنيوي) 125

–الانسنية والنقد الديمقراطي..... 130

-المثقف والسلطة 135

-الثقافة والامبريالية 137..... 141

-الثقافة والامبريالية والأدب الكولونيالي..... 147

-آداب ما بعد الكولونيالية..... 152

-إدوارد سعيد موسيقيا..... 159

الفصل الثالث : مقاربة ثقافية لكتاب الاستشراق..... 163

-تمهيد..... 163

- الثنائيات عند إدوارد سعيد 165

-ثنائية السلطة والثقافة 165

- ثنائية الإسلام إسرائيل 168

-ثنائية اللغة: العربية الانجليزية.....173

- الثنائية الامبريالية: فرنسا وبريطانيا.....175

-ثنائية: "الاستشراق" و"الثقافة والامبريالية".....181

- الاستشراق الكامن والاستشراق السافر 187

- الخاتمة..... 218

- قائمة المصادر والمراجع..... 224

- الملحق (1)..... 239

- الملحق (2)..... 245

- فهرس الموضوعات..... 251

-الملخص

الملخص

بدأ إدوارد سعيد تجربته النقدية منذ أن نشر رسالته الأكاديمية عن جوزيف كونراد، ثم اكتملت هذه التجربة بكتبه اللاحقة مثل الاستشراق والعالم والنص والناقد ، الثقافة والامبريالية، و تأسست تجربته على قراءة المنجز النقدي الغربي المعاصر والبناء عليه وتجاوزه وقد نضجت تجربته وبدأت تشق طريقها الخاص منذ صدور كتابه الاستشراق الذي تضمن رؤية نقدية متميزة بدأت باستثمار المناهج المعاصرة بخاصة عند ميشال فوكو وجاك دريدا ولكن هذا الاستثمار كان فريدا حيث جعل من النقد تجربة ذات علاقة بالعالم الذي صدر منه النص، فكانت الثقافة هي المحور الذي يحرك النقد الذي عرف فيما بعد بالنقد الدنيوي. وفي كتاب الاستشراق رؤية نقدية تتمثل في حضور عامل الثقافة وتأثيرها في قراءة النص وستستمر هذه الرؤية في التعمق من خلال كتابه الثقافة والامبريالية، حيث لا فصل بين النص والعالم الذي نشأ فيه، وهذ العالم ذو تركيبة معقدة من الثقافي، الاجتماعي والسياسي والأدبي، فالفصل بين النص وعالمه كما دأب النقد المعاصر هو قتل للنص و نسيان للعالم، أما تناول النص وفق منظور ثقافي فيسهل عملية الفهم لمراميه ومقاصده ويضعه ضمن سياقاته التي ولد فيها.

الكلمات المفتاحية : إدوارد سعيد الاستشراق النقد التجربة الثقافة الامبريالية المقاومة المقاربة الشرق الغرب.

Résumé

Edward Said a commencé son expérience critique depuis qu'il a publié sa lettre académique sur Joseph Conrad, puis cette expérience a été complétée par ses livres suivants tels que l'orientalisme, le monde, le texte, le critique, la culture et l'impérialisme, et son expérience était basée sur la lecture de la réalisation monétaire occidentale contemporaine et de s'appuyer sur elle et de surmonter elle a mûri et a commencé à faire son propre chemin depuis la publication de son livre Orientalism, qui comprenait une vision critique distincte qui a commencé à investir des approches contemporaines, en particulier lorsque Michel Foucault et Jacques Dredda, mais cet investissement a été unique en ce qui a fait de la critique une expérience liée au monde qui a été publié. De lui le texte. La culture a été au centre de la critique, plus tard connue sous le nom de critique mondaine. Dans le Livre de l'Orientalisme, une vision critique est la présence du facteur de culture et son influence dans la lecture du texte et cette vision continuera à s'approfondir à travers son livre Culture et impérialisme, où il n'y a pas de séparation entre le texte et le monde dans lequel il a grandi, et ce monde n'est pas séparé de la culture, sociale, politique et littéraire, la séparation du texte et de son monde, comme la critique contemporaine a toujours tué le texte et oublié le monde, mais traiter le texte selon une perspective culturelle facilite le processus de compréhension de ses objectifs et buts et le met dans les contextes dans lesquels il est né.

Mots-clés: Edward Said Orientalism Critique Expérience Culture impériale Résistance Approche Est Ouest.

Summary

Edward Said began his critical experience since he published his academic letter about Joseph Conrad, and then this experience was completed by his subsequent books such as Orientalism, the world, the text, the critic, culture and imperialism, and his experience was based on reading the contemporary Western monetary achievement and building on it and overcoming it has matured and began to make its own way since the publication of his book Orientalism, which included a distinct critical vision that began to invest contemporary approaches, especially when Michel Foucault and Jacques Dredda, but this investment was unique in that made criticism a world-related experience that was issued. From it the text? Culture was the focus of criticism, later known as worldly criticism. In the Book of Orientalism, a critical vision is the presence of the factor of culture and its influence in reading the text and this vision will continue to deepen through his book Culture and Imperialism, where there is no separation between the text and the world in which he grew up, and this world is not separated from the cultural, social, political and literary, the separation of the text and its world, as contemporary criticism has always been killing the text and forgetting the world, but dealing with the text according to a cultural perspective facilitates the process of understanding its objectives and purposes and puts it within the contexts in which it was born.

Keywords: Edward Said Orientalism Criticism Experience Imperial Culture Resistance Approach East West.